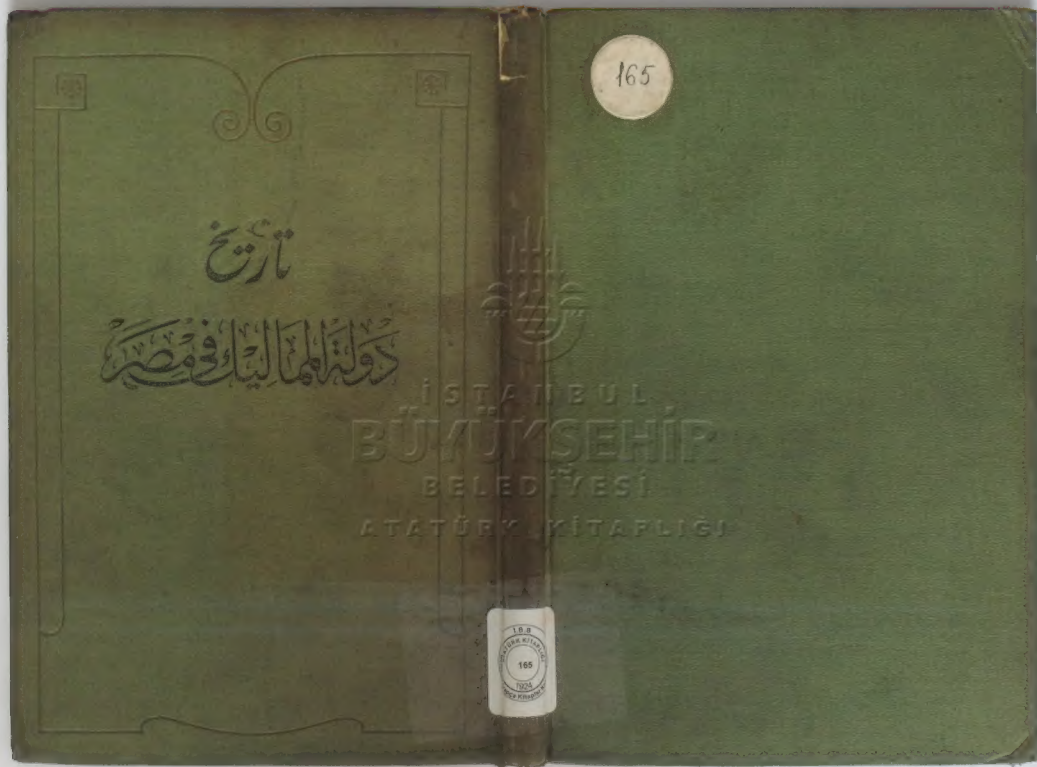
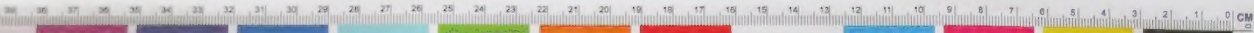


Bu eserin;
kataloglanması, dijital ortama aktarılması ve
elektronik ortamda kullanıma sunulması
İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA)'nın desteğiyle
İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı
Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü (Atatürk Kitaplığı)
tarafından gerçekleştirilmiştir.

Proje No : İSTKA/2012/BİL/233
Destek Programı : Bilgi Odaklı Ekonomik Kalkınma Mali Destek Programı
Projeyi Destekleyen : İstanbul Kalkınma Ajansı (İSTKA)
Proje Adı : Osmanlı Dönemi Nadir Eserlerin
Kataloglanması, Dijital Ortama Aktarılması ve
Elektronik Ortamda Kullanıma Sunulması
Proje Sahibi Kuruluş : İBB Kültür ve Sosyal İşler Daire Başkanlığı
Proje Yüklenicisi : Yordam BT Ltd. Şti.
Proje Uygulama Yeri : Kütüphane ve Müzeler Müdürlüğü - Atatürk Kitaplığı
İSTANBUL – Beyoğlu



تاريخ
دولت‌الملك في مصر

١٢٦٠ - ١٥١٧ م

Belediye
KİTAPLARI
No. 169

تأليف

السيد دليم مود

K.C.S.I., LL.D., D.C.L., PH.D. (Bologna)
مؤلف كتاب « حياة سيدنا محمد » و « سيدنا محمد والاسلام »
و « الخلافة » وغيرها

ترجمة الى العربية

و
محمود عابدين
مدرس التاريخ بدار العلوم
الأمين المساعد بالتصنيف العربي

« حقوق الترجمة والطبع محفوظة »

(الطبعة الأولى)

١٣٢٢ هـ - ١٩٢٤ م

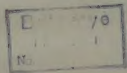
مطبعة الخلفاء في شارع ابن الجوزي





ایران الناصر محمد بن قلاوون (کسکان عام ۱۷۹۸ م)

ATATÜRK KİTAPLIĞI



TANBUL
ÜKŞEHİR
BELEDİYESİ

المسميات والأعلام - حتى لا يلبس عنه الذوق العربي وحتى لا نرمي بسايرى به بعض المترجمين غير المدققين من الإهمال . على أننا لا ندعى العصمة لأن الخطأ قد ينال المرء وهو أحذر ما يكون . وقد أضفنا الى الكتاب بعض الحواشى التي لم نر بداً من إيرادها لزيادة توضيح الموضوع

وقد حليناه بالصورة التي اختارها له مؤلفه ، وصدرناه بخريطة واضحة رسمها حضرة الأستاذ محمد فؤاد مدير حسابات المعارف ، فله منا مزيد الشكر جزاء صنيعه واننا تقدم شكرنا لحضرة الأستاذين الفاضلين الشيخ عبد الرحيم محمود الوقفي والشيخ على السباعي على قراءتهما الكتاب قبل طبعه والله نسال ان يجعله كتاباً مفيداً لأهل العلم ومحبي الاطلاع ، آمين

سليم حسن

محمد عابدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه وسلم . وبعد ،

فإن كتاب في تاريخ عصر من عصور مصر الشقيقة تهم قراءته كل شرقي وخاصة من كان له ولع بتاريخ هذا البلد ، وهو لا يخفى في كل أطواره من لذة أو فائدة . دفعنا الى ترجمة هذا الكتاب عن الانجليزية « أولاً » ما نراه الآن في قومنا من الروح الوطنية العالية ، والميل الشديد الى تحصيل العلم ، والرغبة العظيمة في الوقوف على تاريخ بلادنا ، ذلك الذي نحن أولى الناس بفهمه وتبني الخطوات التي سار فيها ، لأن من أقوى دعائم الرقي الفكري والتقدم السياسي في أى أمة معرفة تاريخها . و « ثانياً » شعورنا بأن هذا الكتاب يسد فراغاً عظيماً في عالم التأليف عندنا إذ لا يوجد كتاب خاص بهذا العصر وضع باللغة العربية على النقط الحديث . و « ثالثاً » لأنه أنجز مؤلف مفيد في موضوعه على ما في الأصل الانجليزي . من هفوات قليلة نذكر كتابها ومؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ الفاضل السيد وليم موير المستشرق . وقد أخرجه لقراء الانجليزية ليدسه في لغته بعض الفراغ الذي تفتقره كتبنا العربية في العربية . وقد استعان مؤلفه بغير ما كتب في هذا الموضوع باللغة العربية والألمانية والفرنسية والتركية كما تجد ذلك في المقدمة التي صدره بها

وقد توخينا فيه سهولة العبارة مع سلامة التركيب ولم نحد قيد أنملة عن إيراد المعنى الذي قصده المؤلف ، ولم نترجم أمام ما كنا نجد أحياناً في أسلوبه من غرض بل بذنا كل ما نملك من مجهود في بيانه . ولم يفتنا ، مع هذا ، أن نرجع الى المصادر العربية التي أشار اليها المؤلف في مقدمة انكتاب خوفاً من الأغراق ، واستيقاناً من

مقدمة المؤلف

يشمل هذا الكتاب نظرة عامة في تاريخ أسرة المماليك الذين ابتدأ حكمهم من يبرس عام ١٢٦٠ م. وانتهى على يد السلطان سليم العثماني عام ١٥١٧ م، كما يتم تاريخ الخلافة العباسية الى الوقت الذي استولى فيه سلاطين العثمانيين على لقب الخلافة. وفي يسرى بداءة الأمر أن اعترف بالشكر الجليل للرحوم الدكتور ويل فاني مدير له بمواد هذا الكتاب إذ اقتبستها من كتابيه الآخرين من مؤلفه العظيم « تاريخ الخلفاء » فقد وفق هذا الكاتب العالم، بما أوفى من مارة وما بذل من مجهود، أن يجعله كتاباً جامعاً شاملاً؛ وهو لم يكتف بالاشارة الى المصادر التي استقى منها واعتمد عليها بل كان يقتبس ما هو هام بعبارة المؤلف وكمالاته نفسها ومعظم هذه المصادر حصل عليها الدكتور ويل من المخطوطات اليدوية العربية النادرة الوجود بعد العناية والبحث الطويل في دور كتب جوتا ومونيخ وبرلين وليفن وباريس. وفي بعدا حوادث الحسين عام الأخيعة من تاريخ هذه الأسرة (التي اعتدنا فيها تاريخ ابن عباس وكتاب الأتراك) فان هذه التاريخ قد اعتدنا في تحقيقه على ما خطه الكتاب المعاصرون الذين من أشهرهم:

ابو الفداء	ولد عام ١٢٧٣	وتوفي عام ١٣٣١ م.
التويري	" ١٢٨٠	" ١٣٧٧ م.
ابن بطوطه	" ١٣٠٢	" ١٣٧٧ م.
المقرزي	" ١٣٥٨	" ١٤٤١ م.
	" او ١٣٦٤	
ابو الحسن	" ١٤٠٩	" ١٤٧٠ م.
ابن عباس	" ١٤٤٨	" ١٥٢٤ م.

وهو اثني عشر غير هؤلاء. ولكن أوفى هذه المصادر المذكورة الثلاثة الآخرون.

وقد ترجم م. كترمبر^(١) جزءاً من كتاب المقرزي المؤرخ الكبير، الخاص بمصره وبالأزمنة السابقة له الى الفرنسية؛ والكتاب على العموم نفيس جداً لأن كثيراً من فقراته الهامة قد ذكرت باللغة الأصلية العربية كأنها حواس أو ملاحظات والمقرزي (سمي بهذا الاسم نسبة الى الجهة التي نشأت فيها أسرته في بعلبك) كان من اهل مصر، وكان يشغل مركزاً في شرطة القاهرة، وكان مراقباً على الهبات في دمشق. وكتاباته الكثيرة لها مكانتها العظيمة من الاحترام، وتتميز بحجالات حوادث الأزمنة السابقة بأنها نتيجة بحث مجهد وتدقيق تاريخي. اما حوادث زمنه فكان فيها شاهد عدل فذكرها غير متحيز.

اما ابو الحسن فقد عاش بعد المقرزي نحو ثلاثين سنة؛ وهو ابن الأمير تغرى بردى الذي كان مملوكاً بونانياً للسلطان برقوق. وقد لعب ابوه هذا دوراً هاماً في الحوادث التي وقعت للسلطان فرج. وقد عفا عنه مرة برجا، ام هذا السلطان وهي من سبي اليونان أيضاً. وابو الحسن باعباره مؤلفاً مكثراً قوى الذكاء، يوثق به كثيراً. وله ميزة خاصة هي استمراره بعد المقرزي في تكميل تاريخه. وقد كان محبباً الى بيت الملك، وقد يدع هذا سبباً للشك في حكمه، ولكن يقطع طريق هذا الشك كونه عالمًا مؤرخًا معاصراً.

ولما ابن عباس فهو الكتاب المعدة الوحيد الذي يجعل اعتادنا عليه في تاريخ الجزء الأخير من أسرة المماليك، وبما أنه عاش بعد سقوطها فكتابته يمدنا بمعلومات قيمة عن عصر تعوزنا فيه الكتب الأخرى^(٢)

وهذا رأى الدكتور ويل في التاريخ الذي كتبه، وقد ذكره في مقدمة الجزء الخامس، قال: « هذا الجزء مثل سابقه قد خصص جله لتاريخ مصر وسورية، ولكن القارئ سيجد أيضاً شيئاً كثيراً خاصاً بالولايات الأجنبية المجاورة مثل اسرات

(١) وجزء من هذا نشرته ادارة الترجمة الشرقية في جزيان. باريس ١٨٣٧ و ١٨٤٠

(٢) نشر كتاب ابن عباس في ثلاثة أجزاء في القاهرة. وقد حصلت على نسخة منه بعد اربعين عاماً. ولكن ذلك كان بعد انقضاء هذا الكتاب. ولذا لم أستد منه شيئاً يذكر

تيور وعثمان والتركمان وبنى ذى العادر وكمران وشريف مكة، وكذلك فيه بحث دقيق لطريف في علاقات سلاطين المماليك برودس وقبرس والبرتغال والبندقية والبابوية وبعض ممالك أوروبا الأخرى. وإلى على يقين تام من أن هناك أشياء كثيرة لا زالت تستدعي التفصيل والشرح الطويل بدرجة أكبر مما في المصادر التي بين يدي، وكان في مقدوري أن أملأ الفراغ بالجدس والتخمين وأضعه في قالب تاريخي ولكني لم أرد أن أضع كتاباً بهذا الشكل، بل أردت أن أشرح بسهولة حوادث ووقائع كثير منها مجهول إلى الآن، وكان لا بد لي من جمعها من المخطوطات المبعثرة ثم أعرضها للتحليل والتقد. وإن القارئ الكريم سيتجاوز عن هفواتي لما لقيت في هذا العمل من مشقة إذ ليس له أن ينتظر من المستشرق، الذي كان عليه أن يستخلص مثل هذه المواد الجديدة من منابعها، مؤلفاً تاماً شاملاً كالذي ينتظره من المؤرخ الذي وجدها كاملة تحت يده»

فإذا كان ما تقدم هو اعتراف المؤلف بالتواضع، عند نظره إلى مؤلفه الذي اعتدت أنا على ما فيه من مادة في اخراج كتابي هذا، فلي الحق أن أطلب إلى قرائي نظرة العطف والصفح. وقيمة هذا الكتاب تنحصر في أنه وضع ليدركه في الغتام^(١)، ثمة في تاريخ عصر حوادثه شقة لتقام ارتباطها بختام الحروب الصليبية ولاشغاله على تاريخ أسرة من السلاطين الأرقاء نشأة الفريدين في تاريخ العالم ولما كانت أسرة المماليك تسير في خطوات صلاح الدين وخلفائه - إن شاء الله - في الحقيقة من سلطة الأيوبيين - كانت لها علاقة مباشرة بالأيام الأخيرة للحروب الصليبية، وليان هذه العلاقة تجاربت فوضت تبيداً لهذا التاريخ جزءاً من محاضرة تشتمل على سرد حوادث تاريخية المشاحات العلوية مشاحات «جنود

(١) هكذا يقول المؤلف من لفته الإنجليزية الفنية بمؤلفاتها في كل علم وخاصة في التاريخ فإذا صاناً تقول نحن وإيس في كتبنا التاريخية ما يلا مثل هذا الفراغ أو يبعث في عصر كالذي ترجمناه بحثاً مستفيضاً خاصاً ؟ اتنا أدل أن يقدّر القراء الأفاضل قيمة هذا السرد الذي تقدمناه إلى العربية خدمة العلم.

الصليب» وتبييتها الختامية. ولعل القارئ يجد هذا مفيداً في الإبتداء إذ أنه يفسر أصل ومنشأ الفواد الذين كان عليهم أن يقضوا القضاء الأخير على المجهودات التي كانت في النزاع الأخير لجيوش المسيحية السنية القيادة مع حسن استعدادها

وتجد في دائرة المعارف البريطانية مقالا قيماً عن مصر وهو مقال جذر بالاعتبار وله قيمة خاصة من جهة ارتباطه بأواخر عهد أسرة المماليك ومصريها. وكذلك نشر البحث الأثرى الفرنسي جملة نشرات شقيقة جداً زينتها بالصور عن العصر الذي نتكلم فيه وقد استعرت بعضاً منها. وهناك أيضاً بحث تمتع في رسالة وضعها م. م. كس هرتز عن متحف القاهرة محلاة بالصور متعلقة بما احتوى من الآثار

وفي الختام لا يسعني إلا أصدقاء شكري إلى صاحب السعادة يعقوب آرتين باشا على ما نشره عن القاهرة وأسرة المماليك، وعلى الصور الشمسية لبعض الأبنية القديمة التي أوردنا نأدج لها في هذا الكتاب، وأضعف شكري له على مذكراته البديعة في عادات المماليك والتي تجدناها في الملحق الثاني في ختام الجزء الثاني من هذا الكتاب

و. م

جامعة أدنبرغ عام ١٨٩٥

تمهيد

مختصر تاريخي للحروب الصليبية

(مقتبس من محاضرة أقيمت على طلبة جامعة ادنبرغ عام ١٨٩٤ م.)

تجد الفقرة التالية في مقدمة كتاب نهوض ونحطاط وسقوط الخلافة :
قد يجوز لي أن أسف في هذا المقام ، إذ لا يوجد كتاب جامع شامل ثمة في لغتنا ، في الحروب الصليبية وفي أسرة الممالك ، واسقاط العثمانيين لها . وهذه فصول ليست شائعة في موضوعها حسب ، بل شائعة أيضاً لارتباطها بشئون الكنائس الشرقية وباتجاه العلاقات السياسية بين أوروبا وآسيا ومصر.

أني أريد أن أوجه نفاذك الى هذا الموضوع مبيناً النقص الحالي في أذهانتكم مشيراً الى المصادر التي يمكن الاعتماد عليها فيه ، حاثاً على البحث في الموضوع . في لغتنا تاريخ «جون» لهذا العصر ؛ وهو مع أنه جلي ومفيد ومع ما فيه من محاسن كثيرة لا يزال يعد نفاً غير تامة . وهو في ذلك مثل سائر المؤلفات الانجليزية . وفي الحقيقة مثل معظم المؤلفات الأوربية قد كتب من وجهة نظر غربية . وخير كتاب متقن شامل في هذا الموضوع هو كتاب «أسكن» الذي جاء في ثمانية مجلدات . وليس في وسع أي طالب أن يدعي العلم الكامل بهذا التاريخ من وجهة النظر الشرقية أو الغربية من غير أن يدرس هذا المؤلف دراسة تامة ^(١) . وأهم من هذا

(١) Geschichte der Kreuzzüge nach Morgenländischen und abendländischen Berichten, 1807—1832.

أني أمتدح قراءة هذه الأجزاء الثمانية مع أنها طويلة مملّة ، وأحث على قراءتها كل انسان يبغي الحصول على المعلومات اللازمة في هذا الموضوع .

من الوجهة الشرقية « تاريخ الخلفاء » ^(١) تأليف ويل الذي يمد الى هذا العصر (الخلافة العباسية انحطت وانحلت من الوجود تقريباً) تاريخاً حقيقياً للإمبراطورية الشرقية : السلاجقة والمغول والممالك . والجزء الأخير من مجلد ويل الثالث وأول المجلد الرابع ضروريان لمعرفة الحروب الصليبية المتتابعة وعلاقتها بانتهاء أسرة السلاجقة وظهور أسرة أرتك وسقوط الخلافة الفاطمية ونهوض أسرة الممالك لم يتعمق كاتب من الكتاب تعمق ويل في مؤلفاته الشرقية التي كثيراً ما تخالف ما كتبه مؤلفو الغرب في هذا الموضوع ؛ أو ببساطة أخرى التي تناولت الحروب الصليبية المتتابعة بحثاً وتديقاً من وجهة آسيوية ومصرية . ولهذا أوصي كل طالب يريد الاضطلاع من هذا الموضوع أن يتقن معرفة كل ما كتبه ولكن ويول فيه وافي أرى أن سرد كل الحوادث وشرحها في محاضرة كمحاضراتنا التي كل الغرض منها توجيه النظر الى تاريخ الحروب الصليبية وتأنجها ، مما لا داعي اليه . وعلى هذا سأقتصر على إيراد لمحة تاريخية مختصرة

يتضح لنا أهمية دراسة الموضوع (أولاً) عندما ما تذكر أن بيت المقدس كان في قبضة ملك مسيحي نحو قرن من الزمان ، وأن سوروية حكمها حكم مسيحيون نحو قرنين أي من عام ١٠٩٧ الى عام ١٢٩١ م . وذلك حينما سقطت عكاً ، وأخرج الصليبيون من البلاد و (ثانياً) عندما تذكر أن الجماهير الكثيرة التي نزحت مدة عشرين عاماً من الزمان من ديارها الى فلسطين قد بلغ عددها جميعاً ما لا يقل عن بضعة ملايين . ويجب ألا ننسى التأثير العكسي (رد الفعل) الذي حدث لأوروبا إذ له أهمية تاريخية عظيمة .

نشأت أول فكرة لحرب صليبية من الرغبة في حماية الحجاج الذاهبين الى البلاد

(١) Geschichte der Chalifen, von Dr. Gustav Weil.

الطبعة الأولى : ثلاثة أجزاء ، ١٢٤٦ ، ١٢٥١ من ظهور الاسلام الى آخر الخلافة العباسية والبلغة الثانية تشمل أسرة الممالك الى غزو العثمانيين لهم - المجلدات الرابع والخامس ، ١٨٦٠ - ١٨٦٢ .

القدس وقد زاد عدد هؤلاء الحجاج زيادة ظاهرة خلال القرنين العاشر والحادي عشر وذلك لسببين : انتشار ظهور المسيح على رأس الألف من التاريخ الميلادي ، واعتناق البطاركة بين الذين المسيحي وهو ما مكن الحجاج أن يسيروا آمنين في بلادهم في ذهابهم إلى القسطنطينية ، ثم إلى سواحل فلسطين فيقتون بذلك مخاطر السفر في البحر . ونحن نعلم أن إحدى هذه الحملات خرجت في منتصف القرن الرابع وعددها سبعة آلاف فلم يرجع منهم غير الاربعة ، وأن ما أتاه الحاكم ببيت المقدس من المخالم ، وما جاء به السلاجقة الذين استولوا بعده على بيت المقدس عام ١٠٧٠ م . قد جرح قلوب أهل العالم المسيحي وملأها حفيظة ، وكان بطرس الناسك بأخباره المفصلة المروعة ، يثير ما كن في صدور الناس جميعاً حتى خشاشهم من رغبته في الانتقام . وعمل البابا أوربان في مجمع بلاشترنا وكلايرمنت على احتياج عواطف ألوف من رجال الدين وعامة الناس وإثارة نخوتهم وحاسهم . وقد وعد هذا البابا بالخلاص وتكفير الذنوب والمساعدة الربانية كل من اشترك في هذا العمل ، وبشتر شهيداً الصليب بأن لم الجنة ، فكانت نتيجة هذه العوامل عظيمة جداً . وكان نداؤهم الحامس « الله يريد » يرن صده في كل الأرجاء فبرع الناس رجالاً ونساء وأطفالاً من كل حذب وصوب ليتسوا بسمة الصليب باعتارهم حجاجاً ، وقام الاستعداد على قدم وساق لكل الفرق من مختلف البلدان ، على أن يكون موعدهم القسطنطينية في قابل .

١٠٩٦ م .

وخرجت في الحال الطبقة الدنيا في جموع غفيرة متبعين بطرس الناسك وغيره من القواد ومدفوعين بالتعصب الشديد ، ولكن لم يلبثوا أن ظهروا عبيداً للشهوات والميول الدنيئة . ساروا جماعات جماعات مخترقين هكاريا (البحر) جرف عليهم سلوكهم الشائن سخط أهل البلاد فثاروا عليهم وأبادوا العدد الأكبر منهم ؛ وهذا أمر لم يكن منتظراً . كانت أولى الجماعات بقيادة ولتر ، والثانية بأمره بطرس . ومالوا جميعاً كل الليل للتهب والسلب ، ولم يصل إلى القسطنطينية منهم غير التزير اليسير . ومن هناك

غبروا إلى يتيانيا واستولوا على نيقية ؛ وعند ذلك ظهر الحسد والمنافسة بين الأجناس المختلفة منهم فزقهم الأتراك شرمق وجعلوا من عقابهم هرماً . وهذا كان نتيجة لازمة لسوء استعمال غيرتهم . وقد نجى القيصر عدة آلاف ؛ ولكن الفتيان والفتيات ، الذين كانوا قائحة محزنة ، أخذوا إلى (البلاط) التركي . وبعد ذلك قام جيش عدده خمسة عشر ألفاً ، وآخر عدده عشرون ألفاً ، وساروا في طريق جرمانيا . وهناك جردوا سيوفهم وأتوا من القفاز مع اليهود ما لم يسمح به فاستاء الناس منهم واقتفوا أثرهم إلى البحر يذبحون ويقتلون ؛ غير أن بقية منهم هربت إلى القسطنطينية والياقون ، وهم عدد داح إلى السفريقة ، ادوا أدرارهم إلى أوطانهم ؛ ولهذا قال جيون « قد قد هؤلاء الصليبيون ثلثة ألف قبل أن يخلصوا مدينة واحدة من يد (الكفار) ، وقبل أن يتم اخوانهم الصليبيون الذين هم أرزن وأبل ، استعدادهم »

« الحرب الصليبية الأولى ١٠٩٧ م . »

كانت تلك اللأسة سبباً في استعجال قيام القوات الجديدة المنظمة وعددها ستون ألفاً غير النساء والقباسوة وذبول المسكرات . وكان قواد هذه الحملة امرء عظاماً يحيط بهم اتباعهم وجماعات من الفرسان ، فإن « الحرب الصليبية في ذلك الوقت كانت نتيجة سبباً لهذا النظام العجيب نظام الفروسية » . سار هؤلاء جماعات ثلاثاً كما فعل النعمان الذين من قبلهم ، وفي نفس الطريق التي سلكوها ، فوصلوا بعد لآل وتكدب خسائر عظيمة إلى السفور فقامهم القيصر ألكسيوس بعداء ؛ وقد وقع بين هذا الجيش وبين الأغريق كثير من المناوشات قبل أن يعبروا إلى آسيا الصغرى .

وكان طريق اليونان هو الطريق المعروف في ذلك العهد إلى آسيا الصغرى حتى أن كل الحملات التي تابعت عدة سنوات ، منظمة وغير منظمة ، كانت تسير فيه متجهة نحو سورية ؛ ولكن اتخذ الصليبيون فيما بعد طريقاً سهلاً هو طريق البحر

ألف جندي وحاول أن يدور من شمال آسية الصغرى لمهاجمة بغداد ولكنه تمت
تشتيتاً مروعاً في أرمينيا حتى لم يفلت من جيشه إلا عدد قليل لجأ إلى شواطئ البحر
الأسود. وكذلك حق الفلك على جيشين عظيمين أحدهما بلغ عدده مائة ألف
جندي فزقوا شر ممزق في محاولتهم العبور من البسفور فالمرور من آسية الصغرى
إلى سورية؛ ومن أخطأه الموت من هذين الجيشين، ذكرائاً أو أنثاء، شيئاً أو
شيئاً، يعموا مع الرقيق. كذلك كانت الفترة الوحشية العمياء التي بها أجمع البلاط
البايوى التيران في العالم المسيحى بدعوى أنها وعود سماوية.

والآن نأتى على ذكر عصر استعاده فيه أمراء الحدود من الخلاف الذى وقع في
بيت السلاجقة وبدعوا يتزولون أولى الهزائم الحاسمة والضربات التي انتهت بآياد
الصليبيين: فان هؤلاء الأمراء أثاروا من حولهم من السكان المسلمين فكانت
نتيجة عكس سيرة على الأفريقية الذين هزموا مراراً وتكراراً. قامت قبيلة أرزنك على
رأسها الغازي فزمو روجرز حاكم انطاكية وقد ساعدهم السكان حتى المسيحيين
فاستولوا على المدينة حياً. وبعد ذلك استعد الفريغان لمعركة «دانيات» الدموية.
وفيهما هزم المسلمون الصليبيين هزيمة منكرة فتبعوا منهم عدداً عظيماً من الفرسان
والحاكم روجرز نفسه الذى تروى عنه في اعترافه الأخير قبل وقوع القتال عبارة
مؤثرة جداً. وفي مصيبة أخرى محزنة أسر جوسلين. أما الملك بلدوين فقد سبق
مصفداً إلى حران ولم يزل حريته إلا بمعاودة لم يسطع إلقاءه في سجنه وتسلطه على
هذه المصائب كلها لم ينجح الصليبيون إلا في الاستيلاء على صور؛ وفيها عدا ذلك
لم يسطعوا الانتقام اللهم إلا بتخريب الأرض بقسوة

وفي ذلك الوقت ظهر على المسرح عدو الصليبيين المخيف زنكي: كان زنكي
أتابكاً أى خازناً عاماً في بلاط السلاجقة. وكان أيضاً مشغولاً كثيراً بشئون الخلافة
العباسية في بغداد؛ فلما ارتقى رئيساً في الموصل اشترك في غزاة على سورية فهزم
الأفريقية أينما نالوه واستولى على كثير من معاقهم؛ وبينما هو متابع انتصاراته استدعى

١١٢٦ - ١١٢٨

إلى بغداد فبقى فيها بضع سنين غارقاً في مشاغل الخلافة المتداعية للسقوط. ولما استولى
السلاجقة نهائياً على المدينة فرّ هارباً مع الخليفة إلى الموصل. وكانت أواسط آسية
في ذلك الحين مسرح اضطرابات وثورات بين الفزنويين والفورانيين والأغوز
والخوارزميين وغيرهم من قبائل التركان الذين قصوا على أسرة السلاجقة؛ فلما نفّض
زنكي عن نفسه غبار السيادة بسم الحظ له وأصبح حاكماً على الأراض الواقعة غربي
الفرات؛ وعند ذلك نزل على سورية كأبى الرمح القاصف واجتاح الأقاليم المسيحية
وأعمل السيف في الجيوش الصليبية فأخرجها مدحورة بعد أن قُتل منها عدد عظيم
وأسر الكثيرون من فرسانها؛ وقد اقتفى أثر الملك فولنكو حتى قبض عليه، ثم عنا
عنه النامح

وحوالى ذلك الوقت كان القيصر قد تمكنه الفترة من الصليبيين لادعائهم ملك
ولاية انطاكية، وأراد هو أن ينال لقب الحاكم عليها، ذلك القبط الذى اعترف
لأبيه عند أول فتحها، فزحف بجنوده في آسية الصغرى وحاصر انطاكية. ثم أنه
استعده هو وريثه ونجحوا جميعاً بالبالغ عددهما مائتي ألف لمهاجمة حلب. فبال
ذلك زنكي، وقام يستنسخ الممالك التي حوله عليها، فجاءه المدد من جهات
مختلفة: من ذلك عشرون ألفاً من الجياد من بغداد، وهى كل المساعدة التي أمدت
بها الخلافة العباسية المسلمين مدة الحروب الصليبية. فلما أنش زنكي من نفسه القوة
هجم المدد من المتحيزين فحرمها وردعها بتعثران في أذيال الخيبة إلى انطاكية.
ثم أنه سرجنوده على دمشق ولكن حاكمها، بمساعدة الفرنجة له، (وهذا غريب)
استطاع المقاومة. وبعد أن انتصر زنكي عدة انتصارات في كل البلدان المجاورة

استولى عنوة على أذاسا التي كان قد تركها جوسلين عزلاء فتهب جنوده ما فيها
وخربوا ما شاهوا، غير أن زنكي عطف على سكانها المسيحيين وأسقطهم. وبعد
ذلك على قل ركنيا مائلك. ففرح بذلك الصليبيون بما فيه؛ ولكنه كان فرحاً
قصير الأمد، ذلك أن جوسلين أسرع في العودة بفروانه واسترد المدينة بمساعدة
تاريخ الممالك (٣)

١١٢٥ - ١١٢٦

١١٢٦

١١٢٧

١١٢٨

الأغريق الذين نسوا بسرعة عدل زئكي وعفوه. ولكن ظهر لهم من هو أعظم من زئكي، ذلك هو ابنه نور الدين اذ جاءهم من الأمام وهاجمهم في حين أن حامية حصن المدينة أوقعت بهم من الخلف، ودارت رحا حرب استمرت طول الليل، وذاق الصليبيون فيها النكال وكادوا يشنون على بكرة أبيهم، الا جوسلين وبعض الفرسان الذين أقسموا لأنفسهم طريقاً بين الأعداء هاربين الى ساموساتا. أما سكان اذاسا المسيحيون فقد كان نوح الطالع ينتظرهم، لأن نور الدين ساءه منهم تكبرهم تاجميل ولا رحمة بل قتل منهم على ما يقال ثلاثين ألفاً. وبعث حصة عشر ألفاً الى اربص.

١١٤٤

الحرب الصليبية الثانية ١١٤٧ م

هبت أوروبا بأجمعها عند سماعها تلك الكوارث المروعة وأهاب ألبانيا ثانية بالناس للجهاد في سبيل الصليب، وقام برنارد كما قام بطرس الناسك من قبل وجعل أوروبا تتور من جليد بالدعوة. وما هذا في الواقع إلا تكرار لما حدث من خمسين عاماً حلت. فليس وكثيراً الجيش المسكفة التي تجتمعت، وبرزوا بعد يوم وفصيصه في موكب فاجروهم غصبات المسكونين كجوارح القطيع مع اليهود في جرمانيا كما ارتكبها معهم من سبقوا. ولما وصلوا الى أسية الصغرى كبدهم الأتراك خسائر عظيمة من جراء خيانة القيسر لهم، ولم يكند يصل الى الأرض المقدسة إلا نحو شهر. مع هذا كان الفرنجة لا يزالون يتقنون ما بينهم من المدد حتى حاولوا الاستيلاء على دمشق^(١) عنوة. ولكن بارونات المشرق قد رشام

(نذكر هذا نصف) الحاكم في معلوما مع احوالهم لاجلاس وانه فتراحت القوة خسارة والمعادون الجدد من الصليبيين سمو حياة مدعة من حوله حيا الى العودة ثانية الى اوطانهم حين الأسف المتألم. واذا استثنينا نجاحهم في الاستيلاء على عسقلان كانت هذه الحملة إحدى الحملات النكسة. فخرجوا من القدس مرتين ١١٤٩ - ١١٥٢ والأراضي التي حوله اجتاحتها نور الدين ولم يبق غير بعض الماقل القليلة في الشمال والجنوب للصليبيين الذين حرب عليهم ما ضاع منهم بعضهم بعض. وكادت حياتهم ارجحهم. الطريقة التي حقنهم، وقد استولوا صنعوا اني سمعه المسيحية. وفي إحدى المعارك دبح ريموند صاحب القلاع كاهن هو وكل أسعده وسحبهم سارين الثاني في السلاسل أسيراً وبقي حتى أدركه الموت

وبعد أن استولى نور الدين على دمشق تزايدت قوته يوماً بعد يوم، وفي هذا الوقت عقد مهادنة مع الملك بلدوين فلم يزع هذا حرمتهما، وانقض على معسكر سلاحي لم يكن يعرف هذه الحياة غير أن يخرجها ما يتو أن دفعوا بمن هذه الحياة غنياً. ونجح الملك بجحالة بكل دعوة من يدى نور الدين، ولكن قبض على كتيبة من فرسانه فتمزقهم في سوابج دمشق، ثم قتلوا اندهما. ولما كان الحاح هرباً من نصبيد كحاصل في محاربتهم لم يبق له (السالية)، فخرج عليه فرصة بانه حشد الباروت معهم لبعض.

الحرب الصليبية الثالثة ١١٥٨ م

ولكن الزوج الصليبي التي انحلت ايضاً من ردها د يترينش القسكي بنود حديد... وساعد على ذلك مرض نور الدين نفسه الذي كاد يؤسر في إحدى المعارك غير أن خطا عوده لأن رينولد، في إحدى غزواته في أرمينية، وقع في يد الأعداء وسبق ميكلاب الى حلب. ثم تلا ذلك سكون مستمر سنة أو سنتين. وقد استفاد نور الدين من هذه الفترة بدمعة في مملكته التي كانت تتزايد بسرعة وتماثلت تحراوها.

(١) كان صلاح الدين حاضرأ هذه المعركة مع أبيه. وانه لمن العجب أن نسع أن نحاس الناس قد تحرك واشتد برغم مصحف هناك ذلك الصحف التي قد أغبرأ في حريق الجامع الأعظم...
..... لت أدري وجها يدعو المؤلف الى العجب من هذا الحرب ذليلة، وتأثير الدين لا يتكبر
..... في هذه الطرقت. على أنه ذكر في حوادث عام ١١٧٦ في الحروب الصليبية الثالثة شيئاً
مثل هذا فله الصليبيون ولم يهضم له. وعلى كل حال فالقيام لا يستدعي هذا التليق (الحرب)

- ١١٦٩ في هذا الوقت تظهر مصر على المسرح لارتباط نتيجة هذه الحرب الصليبية بها :
 في شيخوخة الدولة الفاطمية تطلع إليها كل من نور الدين والملك أمريك ، فما
 كان من وزير الخليفة إلا أن استعان بأحدهما على الآخر ، فزأكل منهما الديار
 المصرية الواحد بعد الآخر . وفي نهاية الأمر أمضيت معاهدة ودية مع الاثنين ، ولكن
 أمريك كان أول من نقض ميثاقه الذي عاهد المصريين عليه وأطلق يد النهب
 والتخريب في المملكة وانتزع من البلاط الهدايا انزعاجاً ، فاستأثرت الخليفة العن
 بنور الدين وأرسل إليه خصلة من شعر زوجته إشارة إلى حرج موقفه . ففرح نور الدين
 وأرسل قائده شيركوه للتجدة قنسل أمامه أمريك مخذولاً ، وبذا أصبح شيركوه
 صاحب الكلمة . وبعد ذلك بقليل خلفه في مركزه ابن أخيه صلاح الدين . وفي قابل
 مات الخليفة فاتمته بموته الدولة الفاطمية^(١) وأصبح صلاح الدين حاكم مصر ،
 وهو من دم كردى . ومع أنه كان في بادئ أمره جندياً صغيراً ، لم يلبث أن أظهر
 نفسه وبه في مدافعة الفرنجة عن مدينا بمقدرة فائقة ، ثم سرعان ما ظهر بمظهر
 الحاكم القدير في السياسة والحرب ؛ فخذ نور الدين نائبه على ظهوره بفاهر المستقل
 في مصر ، ودعا إلى الخوض مراراً ففتح مركز صلاح الدين بإطراء ؛ إلا أنه لم يستقل
 الحظ من الخطر إذ مات في تلك الآونة نور الدين ذلك الأمير العظيم المخلص الصادق
 وبذلك بقي صلاح الدين سالماً آمناً في مصر حيث امتاز حكمه بفتح المدارس وإقامة
 المستوصفات وغيرها من الإصلاحات
- ١١٧٦ بسم الحظ لصلاح الدين بوقوع الشقاق بين أفراد أسرة نور الدين فاستطاع أن
 يمد نفوذه في سورية ، وما زال يزيد فيه حتى بلغ أرض الجزيرة (ميزوبوتاميا)
 والموصل . وقد استدعى إلى سورية تقيام الفرنجة بغزوهم من جديد إذ كانوا قد
 وصلوا إليها جماعات من طريق البر والبحر واستطاعوا في بادئ الأمر أن يتغلبوا
 على كل ما أمامهم بفضل سر (بقية من الصليب المقدس) كانوا يحملونها معهم ؛
 (١) بعد أن مرت ٢٧٢ سنة

- ١١٨٠ وكنهم ، كما هي عادتهم ، أضاعوا مجهوداتهم في المشاحنات ، وفي القيام بغزوات
 لا فائدة فيها . ولما هوجوا لدى أينااس هزيمة منكبة . وقتل هنغوى وعدد
 كبير من الفرسان ، وقد دمرت عليهم القلعة التي بناها على الأردن ليهبطوا بها
 دسنى . وفي إحدى مواسم نجب الملب بجيشه ضم ٤٠٠٠٠٠ . وهوى امرئته بسرعة .
 وأصبحوا للاحول لهم ولا طول . وكان أوصياء العرش في ذلك الوقت (كما يقول
 جيون) على التابع ما بين ممته وطفل وامرأة وجبان وخائن . أما البارونات والفرسان .
 مهما كانت طبقتهم فلم يكن همهم غير التنازع على السيادة ؛ والواقع أنه قضى عليهم
 الشره والغيرة والحصام والمبالغة في الترف - وهؤلاء الحماة الدنسون هم حماة الأرض
 المقدسة ؛ أما البولانيون أيضاً (وهم ذراري النصارى من أمهات وطبقات شرقيات)
 فانهم كانوا قد شبوا حينذاك ونشأوا غاملي الذكر متروكين فرادى في خطر الفرنجة
 والعجب ان المملكة ظلت متمسكة طول هذه المدة مع أن هذا لم يكن في الواقع
 ليحدث لو لم يستمر تواقد عدد من الفرسان والحجاج على تلك البلاد من عام
 لآخر ليدفوا عنها . ومع ذلك نرى الحالة تصل إلى خاتمة محزنة
- ١١٨٢ ولما وقع صلاح الدين بالتصاراته تهادن ورجع إلى مصر ؛ ولكنه لم يكذب يستقر بها
 حتى استدعى إلى الحجاز الانتقام من رينولد لأغارتة على ضواحي الأرض المقدسة ،
 بعد أن جهز أسطولاً في أبله ، وخرّب سواحل مكة والمدنية ، فذهبت إليه قوة
 بحرية فرنسية فرضت على أعقابها بخسائر عظيمة ، ووقع في الأسر عدد كبير من أتباعه فذبح
 بعضهم أمام محراب بقى . وغضب صلاح الدين لامتهان دينه فانتمم بالأغارة على
 الولايات الصليبية . ثم لما وجد نفسه آمناً في كل الشرق جمع الجموع من كل البلدان
 وهم بالقضاء على حكم الصليبيين القضاء الأخير . وكان غضبه عظيماً جداً على رينولد
 بصفة خاصة ، لا لمهاجته بلاد العرب فحسب بل لتكرار قبضه على قوافل المسلمين
 الذاهبة إلى مكة لآداء فريضة الحج ، مخالفاً نصيحة ريموند الذي تصالح أخيراً مع
 صلاح الدين . وقد سار الملك ويت إلى طبرية حيث كان صلاح الدين نازلاً بعد

١١٨٧ استيلائه عليها ، وحيث كان ينزو ما حولها ؛ فترامت الجيوش لدى حطين حيث هزم الصليبيون هزيمة منكرة من جراء الدخان والحارة الشديدة المتصاعدة من الحشائش التي أحرقها المسلمون فعميت أبصارهم عن مشاهدة المسلمين . وقبض على الملك وعلى عظيم الميكلين ، وكل من بقى صاروا أسارى . وقام صلاح الدين نفسه بنج رينولد برأ بقسمه الذي أقسم به ؛ وبيع الأسرى ببيع الرقيق . أما فرسان لطائفين فقد قطعوا إرباً إرباً على مشهد من صلاح الدين ، إقتنائاً منهم على إغارتهم على البلاد المقدسة ومهاجرتهم حجاج المسلمين . وأخذ الملك وحده باحترام إلى دمشق ، وأطلق سراحه بعد أن وعد بتسليم عسقلان

استولى صلاح الدين وقتئذ على الأرض ، واسترد معظم الماقل التي كانت باقية في حوزة الصليبيين ، ولم يرد أن يحاصر المدينة المقدسة ؛ وقبل أن ينزل عن شيء إذا سلت اليه من غير حرب . فرفض طلبه ، فأحاط بيت المقدس في آخر الأمر ؛ ١٢ أكتوبر ١١٨٧ وبعد حصار دام ثمانية أيام ضعفت عن المقاومة ، وسلت المفاتيح إلى صلاح الدين . وعند ذلك صاح السكان الصمون ^(١) صياح الألم والضجر وويل النساء اللابسات

١١٨٨ وقد عرف صلاح الدين كيف يستفيد من انتصاره ذلك . فلم يترك شيئاً هاماً من سورية في يد الصليبيين سوى أنطاكية وصور وطرابلس . وقد حصر بومند في أنطاكية ؛ ولكنه عندما أطلق سراح كل الأسارى المسلمين الذين كانوا تحت يده ، ووعد أن يتراجع إذا لم يأت المدد في الحال ، منحه صلاح الدين مهانة لمدة سبعة أشهر . على أن حملة صليبية أخرى كانت قريبة لأن ضياع بيت المقدس ،

(١) هم السكان المسيحيون

واتهاك حرمة بعد أن بقي عاصمة مسيحية نحو قرن ، وذبح الفرسان ، وضياع سورية كل هذا وقع كالصاعقة على أوروبا . فقام البابا يصدر نشراته ودعوته من جديد ، مبشراً بمساعدة الله ونصره (متأسياً في ذلك الماضي) ، وفرض على الناس أحوالاً ثقلاً منها (عُسْر صالح الدين) الذي لا تزال بقاياه دخلاً مقبولاً إلى خزائنه روما . وكان لدعوة البابا صدى في كل أنحاء أوروبا ؛ ومع أن روح التذمر كانت باقية في أول الأمر ، ولا سيما لعدم اخلاص البولانيين ، فإن الجماهير تجمعت أخيراً وخرجت كمن سبقهم للحرب الصليبية

الحرب الصليبية الرابعة ١١٨٩ م

خرج الناس لهذه الحرب ورائهم القسوة والتخريب . ومعظم هذه الحملة سلك طريق البحر ، والباقيون طريق البر ؛ فاقترعوا مع الاغريق كما اقتتل الذين من قبلهم من ناحية علم خلت ، وقاسوا الأخطار والحرام مثل ما قاسوا ، ولم يصل منهم إلى الأرض المقدسة إلا قليل كان مدداً للفرنجية ، ثم هاجوا جميعاً عكا ، فأوقع بهم صلاح الدين حصاراً كبيراً . وكان رأى كثرة عددهم تحاذل عنهم واسحب من الميدان متفترراً . أما الفرنجية فحاصروا المدينة بمجاسة وتحمل الجنود بشجاعة ألم الجوع والمشيقة وهم محتفطون برأكرهم حول المدينة . ولكن رجح الفرنجية إلى ما اعتادوه من قتال عن كثرة أعدائهم ؛ فكان قلب الأسد والملوك ويت اصطفوا مع جنودهما حاملين أسلحتهم في وجه كثراد وفيلب ملك فرنسا . وحدثت نفس تلك القصة الخزية في جميع الجيش الذي هو خليط من متعصبين وآثمين وأتقياء ومن أهل الرذيلة والشغب . وبعد سنتين اضطرت الحاجة الحامية الاسلامية إلى أن تسلم بشروط ملائمة ، احترمتها صلاح الدين وعمل بوجودها فأطلق سراح الأسارى المسيحيين ؛ في حين أن ريتشارد القاسي عرض الحماية كلها ، وعددها ثلاثة أو أربعة آلاف ، على الموت الامن استطلاع منهم أن يدفع فداء كبيراً . وبعد حروب جديدة انقم فيها

١١٩٣ صلاح الدين من كل صليب وقع في قبضة يده ، وبعد ضياع عسقلان (التي استولى عليها صلاح الدين ومحا أثرها من الوجود على كره منه لدرء الخطر عن مصر) ، تم الاتفاق بين المتحاربين على مهادة تدوم ثلاث سنين ؛ ولكن بعد ذلك بقليل مات صلاح الدين . وإنه لذلك الأمير النبيل والحق أن حياته الفاضلة لا توازن حياة نور الدين لأنه كان وديماً ، عظيم الاحتمال والصفح ، وإن كانت تحرك نفسه الآمال الكبار والروح الإسلامية « العاتية »

١١٩٤ - ١١٩٦

كانت هذه المهادة من حسن حظ المسلمين الذين خضد من شوكتهم كثيراً موت صلاح الدين ، والزراع الذي مرق شغل أسرته الكبيرة ، كما هي العادة ، الى أن فاز أخوه العادل في آخر الأمر بالسيادة . أما الصليبيون فلم يستفيدوا مطلقاً من مثل هذه الفرصة ؛ ويمكننا أن نقول إن الحرب الصليبية منذ هذا العهد كانت معلومة العاقبة ؛ فأرض الصليبيين أفرقت ولم يكن ثباتهم إلا بما في أيديهم من المعاقل القليلة وبمساعدة شراذم صليبية كانت تنهاجر إليهم على الدوام .

الحرب الصليبية الخامسة ١١٩٧م

وأما الحملة الخامسة المكونة من جموع جرمانية بقيادة هنري السادس فقابلتها في البداية في سبيلها لآخر معار . وبعد سنين من الحلف والحشد ، وردى ، وم يرجعوا سيده غير الاستيلاء على بيروت ^(١) . وكان كل من بقي اليهم من الصليبيين لا يجد مشجعاً فيعود أدراجاه مسرعاً إلى أوروبا . وفي ذلك حال العادل بعد نفوذه الذي لا ينازعه فيه أحد فيما بين جورجيا وعدن ، فكانت مجهودات الفرجة الصليبية المنقسمة المتقطعة غير متتحة معه

(١) بقيت سبلتان متطرفتين مدة طويلة خارج المياه لسماعة سنن الصليبيين وقتل ركنها الى بيروت حيث بلغ مقدمهم نحو أربعة عشر ألفاً وقصوا في الأسر هذه الاستيلاء على المدينة وهدمه بعضهم بأكثر من هذا

الحرب الصليبية السادسة ١٢٠٠م

١٢١٢ تحولت الحملة الصليبية السادسة ، وهي قوة كبيرة ، عن الأرض المقدسة ، عند وصولها إلى البندقية ، وذلك للعداوة الكامنة للكنيسة الاغريقية . فحوصرت القسطنطينية وأخذت بالذبح والمصابب وبقيت تحت نفوذ الكنيسة الرومانية نحو نصف قرن حتى رجعت إلى الاغريق . وهذه الحرب الصليبية ، من أولها إلى آخرها ، مع معاضدة البلاط البابوي لها ، كانت شرّاً إذ أدت إلى انهيار ركن الجامعة الشرقية المسيحية نهائياً . ونشراً حوالي ذلك الوقت أيضاً عن حج الأطفال الذي أنزل المصابب برواح وطهرة ألوف من النبات والأولاد . وقد قبض على نحو ثلاثين ألفاً من هؤلاء . وهم في طريقهم البحر الى مصر . ويصعق ؛ وهذا بيان محزن للنقص الشنيع . الذي يرى فيه أرواح الصليبية شملت كل أوروبا . وبيان لتنتائج المحزنة .

الحرب الصليبية السابعة ١٢١٧م

١٢١٨ ولم ينقض وقت قصير حتى حدثت إغارة جديدة على سورية إذ خرج جيش عظيم على رأسه ركنه ملك اضمعوا في عسكر . وبعد أن حاربوا الأرض المقدسة تقدموا نحو مصر وحاصروا دمياط وفي شهر فلال افتتحوا الخوازي ودخلوا المدينة . أما إلى البابا فيجده . أرسل انكرديل بيلاجيوس نائبه . فأخذ إدارة الأعمال في يده ؛ وبعد القتال الشديد ، واهراق الدماء مدة سنين . سقطت المدينة نهائياً . فاعلمه في أيديهم . وبعد ذلك مجد البابا سم بيلاجيوس في كل أوروبا بأنه يوسع الثاني . حارب سمه أخرى فصاعدت على اصابين حربه أكثر من هذا سبب ما سحر منهم من الهزاع والحشد الذين كان من عدتهم ؛ وقد عرف بيلاجيوس وقتاً كبيراً تقتصده من تسمية وصالته في الحلفاء الشديد الذي كان يسه و بين القواد الآخرين . و استولى الحوف والوحل على سلطان مصر عرض عليهم مراراً أن تخرج المايك (٤)

يسلمهم بيت المقدس إذا هم حاصروا بلادهم، فرفض الكردنبال هذا مخالفاً نصيحة الملك جون؛ فقتل الملك عنه مفضياً ومعه ألوف كثيرة. أما ييلاغوس فقد زحف أخيراً من ديباط إلى القاهرة؛ ولكن المصريين هاجموا جنوده من الأمام والخلف فقطعوا عليهم خطى التقدم والتقهقر، ومع أن حاكم ساس جد السوء فإنه لم يقض عليهم تماماً إذ رأف بهم سلطان مصر، وسمح لهم بالعودة آمين إلى سورية دون أن يضايقهم أحد. وهكذا انتهى مشروع البلاط البابوي العظيم. وضاعت كل فرصة للتجاح بطمع ييلاغوس وحماقه؛ في حين أن تسامح السلطان الذي منح هدية ثمانية أعوام قبل الملاح والثناء من الناس جميعاً

وبعد موت العادل كدأ على ضياع ديباط دب بين إبنائه ديب الشجار والخلاف ولكن لم يستند الصليبيون من هذه الفرصة حتى تقلب التكامل في آخر الأمر وأصبح صاحب السيادة العليا. وقد نشأت العلاقات الحسنة بينه وبين فردريك الثاني الذي قام بمجملته الصليبية في ذلك الوقت وأعيد إليه بيت المقدس وما حوله على شرطية منح المسلمين الحرية والمساواة في الحقوق، وأن تبقى المدينة غير محصنة. ثم توج فردريك ملكاً بمدينة اندلس ومع هذا لم يستمر عشرين عاماً حتى جاء العول واكتسحو كل شيء أمامهم. ولما كان فردريك غير حاضراً لرضا البابا صارت الأكمنة المقدسة حياً ما موضع للفتنة البابوية. فكانت نتيجة هذا أن قابل الفرسان فردريك مقاومة سيئة؛ ويقال إنهم اغتروا بقتل أمارالوسكا البطركية كطريقتين وبيروت فلاستقلال بعضهم عن بعض، لم يفكروا إلا قليلاً في العمل معاً. وقد كاتب مساحتهم العنة وحلتهم السيرة في دعوه هذه الصليبيين بمحاولوا أكثر من القيام بشن الغارات والنهب. وفي هذا كانت تناههم الحسارة غالباً^(١). وفي أثناء ذلك كانت الدعوة للحرب الصليبية قائمة على قدم وساق في

(١) في صد غارة منولية على بيت المقدس قطع البولانيون إلى مسلم إرباً أوباً بدون رحمة. وكان هؤلاء يخافهم سكان سورية أكثر من خيفهم الجيوش الغولية

أوربا. غير أن البابا وجه هذه الجيوش الجديدة؛ في العشر أو الخمس عشرة سنة التالية إلى محاربة طوائف الأليجنسز^(١) ووثني الشمال، وإلى غير ذلك من الأغراض التي ارتأتها

وحوالي ذلك الوقت انحاز الفرنجة إلى جانب إسماعيل الذي خرج على ابن أخيه السلطان أيوب وهو انخياز كرهه حتى أتباع إسماعيل الذين أدى فرارهم من ميدان عسقلان إلى سقوط المسيحية الشان. ومع كل هذا فقد صالحهم السلطان ولكن الفرسان المحبين للحرب استمروا في غاراتهم العدائية على الكرك وفي النزاع فيما بينهم. وإذ لم يدركن الحبل عند ما تقرأ أنهم قتلوا إلى أسير في عكا. وأسوأ من هذا أن جي بطاقة من الأسرى بعد أن أعطوا عهداً بأن يتصرفوا، قتلوا أيضاً. ثم اقتربت بعد هذا ساعة خطيرة جداً إذ ثارت الجيوش الخوارزمية التي وصلت في ذلك الوقت إلى سورية واتفتت عليها كاسيل الجارف وخربت بيت المقدس بروحية مروعة، وقتلوا سبعة آلاف مسيحي، وسبوا الفتيات، هؤلاء البرابرة تخلفوا مع سلطان مصر محمد بن تحت أمرة بيرس فاند المملوك. فاض بهم على جيش كمتحد من الفرنجة والمسلمين ودمرهم قريبا من جوبا (ياقا) حيث لقي المسيحيون، بعد أن تركهم ثانياً رفاقهم المسلمين، هزيمة مكرة

والآن فصل إلى ما نسميه الحملة الصليبية الأخيرة على الأرض المقدسة، أي تحول حملة لاويوس. عاد لاويوس إلى مصر وهاجم ديباط، ونجح في ذلك كما نجيح أولاً، ولكنه لقي نفس الحاقلة الهزيمة التي لقيها ييلاغوس منذ ثلاثين عاماً. هُزم الجيش في تقدمه نحو القاهرة ودمر الأسطول. وأسر لاويوس. غير أن توران شاه عامله معاملة حسنة. فكان جزاءه على هذه المعاملة أن يبعه بيرس؛ وبذبحه آلت السلطنة إليه، فكان أول أسرة الماليك. رجع لاويوس في حالة سيئة هو وباروناته إلى سورية، ثم رجع إلى وطنه فرنسا بعد أن لاقى من المصائب ما لاقى. وبعد

(١) عن طوائف مسيحية اجتمعت في مدينة آلي ل جنوب فرنسا على أن تعبد الله على طريقة اعتقدت صحتها وتختلف في كثير من أحوالها طريقة كنيسة روما

١٢٧٠. ذلك بزم طويل أخذ لويس بعد العدة لحرب صليبية ثانية. وبما أنه قصد بها تونس فلأنجد ما يجدر ذكره ببجائنها أكثر من القول بأنه وقع فيها، كما وقع في غيرها الخلاف. ولذلك كانت تسحقها سنة

وباقى موضوعنا قصة اندحار مخزنة عجل بها الحلاف القتال والحرب الداخلية بين فرسان الميكلين والموسبتالين^(١) . وقد قال بيرس « إنهم أعداء لأنفسهم، ونزاعهم وحقتهم هما سبب قتلهم » . دمر بيرس في غزواته الأربع الشهيرة معاقلهم الهامة الباقية عدا طرابلس وعكا، وأرسل النساء والأطفال من كل الأصقاع بعيداً إلى الورى . ووقت في انطاكية قصة مخزنة عند سقوطها، فإن جميع الصليبيين من جنود وقسيسين وزهّاب وسكان قتلوا أو أخذوا سبياً

وفي عام ١٢٨٩ م . دمرت طرابلس في مذبحه هائلة ، وسبق الوف من الساحة
على الساحل بشن غارات كثيرة وبمقر حومة المهدنة حتى لم يبق في يديهم
في آخر الأمر غير عكا ، وحدها فكانت المركز الذي احتس في كل الصليبيين ، ثم
حوصرت عندئذ . ولقد كانت هذه المدينة في العظم كل حصنها وإن حصنا كائنا ما
مدينة كبيرة ، فخمة ، مرفقة ، هرع اليها الفريجة من كل صوب وحشدت إذ كانت آخر
لكن صنيعة لم يرق الفواد ، فغلبوه وعدوه خائنا وردوه الى قصر السلطان
ثم قفوا يصدون هجمة عليهم ، على أنهم خسروا فيها أثنى نفس . وقد صممت هذه
الفتنة الصليبية ، بعد أن تسرب إليها اليأس ، على أن تستبى في الدفاع ، وكان
ذلك منظارا مؤثرا عند اعترافهم الأخير . ومن العجيب أن المدينة سقطت في نفس
اليوم الذي استولى عليها المسلمون فيه منذ مائة من السنين بل وفي الساعة نفسها

(١) ولكن ص ٧٩٤ الجزء الثامن

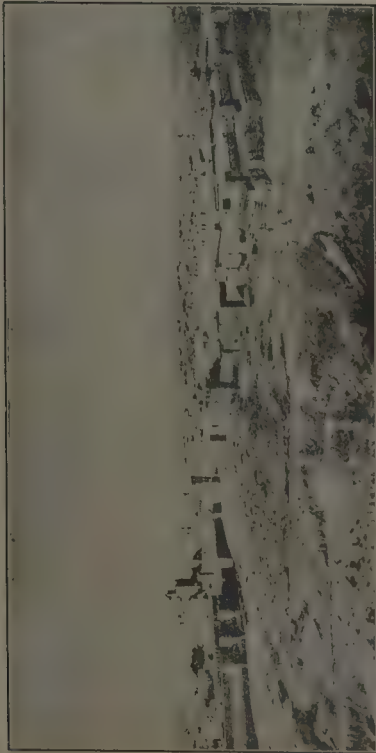
وقد هرب قليل ممن كانوا بها في السفن والتجأ الف منهم مؤقتاً الى مكان حصين ولكنهم لقوا أخيراً حتفهم جميعاً إلا واحداً - قصة محزنة

وهكذا انتهت هذه الحروب الصليبية العظيمة « وقد أمر السلطان بهدم كنائس وحصون المدن اللاتينية » وكان الحجاج المتدينون العزل لا يزالون يلتجئون إلى الصرح المقدس إما بسبب الجشع أو الخوف . (وختم جيون هذه القصة الحزنة بموله) : « ساد سكوب بحزن شريب مطر غلي طبل ذلك الشاطي . الذي طبل دماناً طويلاً يتردد فيه أصداء النزاع العالمي « الحروب الصليبية »

ما عده هو ملحق مختصر للحروب الصليبية . وقد كانت الفرصة مؤاتية في
مراياش اذ ذكر الحسد وتوسع الدين ادبا إلى الكفة والحزبه . ولكن هناك سببا
اعظم من الحسد والسخط وأعد منها أثر في جعل الحج مسجلا وهو عدم وجود
حاكم مسيطر معترف ؛ ولم تكن هناك من ايداع إلى الولاية سلطة شيعه سو النظام
وتحيز إلى اطاعة وتسيطر على وحده العمل . في الصليبيين من تمكثت وراء الختلفة
وهذا كان مصاعبه متعده . وهكذا كان حال غياث الفرسا المحتافين ؛
وكثيرا ما رأيت بدل بعضه . معا . ولم يكن " ملك " من الملوك فهو يذكر
على . وراء خدمه . فكانت " الطائفة وطرائس " وادسا وعبره من الملوك مستغلا
مهم من بعض . من متعاده حنا . وهذا كان فقه يحدده جميعا . ولما كان
حججه ميسور . له في فائده جميعا . غير معترف . ولكن الاعظام وتضارب
المصالح . فاشبه . فكان الفتن الحده صديقه

والخروب عابديه من ولدا إلى آخرها فصل في تاريخ الدنيا وهو فصل
كأول ندر ان احده ماسه إلى واحد كتاب مغل فيه لبقا وحده من
لحمه سرقه للخروب عابديه من كتابا كذا بهي القصة ايضا لمخص
يتمه حروب عابديه الخروب من نهر في حياه نور الانعامه وكذلك في
كس اسرق وحده المسحوق في لأخرة عد ثانيا الاضطهاد والحسرة
لدهو من لاهل قبا من لخير وكثير من اسر

والحروب الصليبية هي التي أيقظت العالم الغربي من سباته العميق سبات الغفلة .
وهي التي كان لها فضل سبق في جمع الممالك الأوربية المختلفة على عمل مشترك
كان الغرض منه عالياً ولكن أسمى ، تنفيذ فبعث في نفوسهم حياة سياسية جديدة
ثم ميلانحو الشرق كان من آثاره زيادة في المعلومات التاريخية والجغرافية عن
البلدان والناس ؛ ووسعت الأفكار من جهة اللغة ، وعادات وطباع العالم الآسيوي .
يضاف إلى ذلك أن الحروب الصليبية ، مع أنها كشفت الستار عن معايب الدين
الإسلامي (١) . قد جاءتنا بأشلة حية عن كرم المسلمين وفضيلتهم حتى في ميدان
القتال . وهي التي أعلت من شأن التجارة والملاحة فزادت في موارد أوروبا وثروتها .
وهي التي ساعدت على إحياء الفنون الجميلة والسير في علوم الفلك والرياضة والطب
والصيدلة والتاريخ الطبيعي - وفوق كل هذا قد ضربت النظام الاقطاعي ضربة
قضت عليه ، ذلك أن جماهير الموالى الذين اجتمعوا تحت لواء الصليب اطرحو جانباً
اغلال العبودية واتخذوا موقف المستقلين ، في حين أن هذا النظام وهت أركانه
بفروج الفرسان والبارونات الى الشرق وكثرة يعمهم مملكتهم
ولكنها من جهة أخرى زادت الاضطهاد الديني الذي كان وقتئذ ؛ وساعدت
على القسوة وإراقة الدماء ، في صفوف الجيوش المسيحية التي كانت لا تقتل في بعض
الأوقات عما يحدث في جيوش أعدائهم ؛ في حين نجد كذلك التناقض الغريب
الذي جمع بين التعصب الشنيع وأخط ردائل الإنسانية . ولحق أنه من الصعب
غالباً أن تدبّر دين المسيح أهو الدين الذي كان الباباوات ومحامتهم الدينية يحاولون
رده الى الأرض التي نشأ فيها أم العرق التي حاولوا بها تثبيتته هناك طوال هذين
القرنين ؟ وبينما كان المتوقع أن تضعف أكاذيب رجال الكنيسة الرومانية بالوعد
لربانية إن لم تقض نهائياً على الإيمان بالكنيسة الغربية ، نجد ، وهذا الغريب ،
العاطفة الصليبية أمت بنتيجة مخافة لذلك تماماً إذ جات بفئاته محاكم التفتيش
ومالت خزائن البابا بالأموال وثبتت أركان السيادة البابوية



أسرة المماليك

١٢٦٠ - ١٥١٧

إفصل الأول

مصر والمماليك

٦٤٠ م

بعيد وفاة النبي (صلى الله عليه وسلم) فتح عمرو بن العاص البلاد المصرية وانتزعا من الفوقس حاكما من قبل الرومان وذلك في عهد الخليفة عمر بن الخطاب

وقد بقيت جزءا من المملكة الإسلامية مدة قرنين من الزمان . وعند ختام القرن

٨٦٨ - ٩٠٥

التاسع الميلادي قام حاكمها احمد بن طولون وهو من سلالة المماليك التركية وخلع

نير المملكة الإسلامية التي كانت إذ ذاك منهوكة القوى متداعية المثر كالأعراس على

عرش البلاد ؛ ولا تزال آثار حكمه الزاهر ظاهرة واضحة في جامعة الذي أسسه

بالقسط^(١) والذي لا يزال يسمى باسم مؤسسه العظيم مولكن الطولونيين حاليون

أن رجعوا الى ولائهم للخليفة . ثم أن البلاد استقلت مرة أخرى تحت حكمهم

٩٣٢ - ٩٨٠

آخر وهو (ابن طنج) أول أسرة الأخشيدين وسوا يترك نسبة إلى أسرة ملوك

فرغانة (وكان هذا لقباً للملكهم) . وفي نهاية هذه الأسرة قام خلفاء الفاطميين بعد

أن قهروا الأغالية على أمرهم في طرابلس والقبروان وولوا وجوههم شطر المشرق

فتفتحوا مصر وجنوبي سورية واتخذوا القاهرة حاضرة للملكم فبقيت من ذلك العهد

مقراً للحكومة المصرية ، ولا تزال آثار حكمهم البلاد خالصة في الجامع الأزهر . وقد

(١) هذا المسجد شمال القسطنطينية القديمة وموقعه الآن جنوبي القاهرة على جبل يشكر . وقد جاء في دائرة المعارف البريطانية « أنه أكبر مسجد في القاهرة وأنه جدير بالذكر في تاريخ غنى البناء لا محالة من عتاج الأقبية القديمة »

بقى صولجان الملك في أيديهم قرنين من الزمان كانوا في نهايتهم قد لحقهم الضعف واعتورهم الخوف شأن الخلفاء العباسيين في أخريات أيامهم فقلب عليهم وزراؤهم الذين علت كلمتهم وهيب سلطتهم فصارت إدارة البلاد في أيديهم^(١) . تلك كانت حال البلاد في الوقت الذي سنكتب تاريخه . ولكن قبل الخوض فيه يجدر بنا أن نلح بايجاز إلى أصل المماليك الذين سنحدث عنهم ، حتى يكون القارئ على بينة من جنسهم :

اتخذ خلفاء بغداد منذ أجيال عدة عادة سيئة هددت عرش خلافتهم بالزوال وهي جلب الأتراك من العبيد ذوى الأسماء الحوشية من قبائل التركمان والمغول واستخدموهم حرساً لهم وعادة لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستعمل أمرهم وقتلهم وأصبحوا سدى الجيش ولحته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثون أن يصيحوا ذوى الأمر والنهي في بيت الملك يشعلون نيران الفتنة والقتال حتى جعلوا أجل الخلافة المنوكة النحلة . وسلك سبيلهم في ذلك خلفاء الفاطميين فأصاحبهم مثل ما صاحب من بعدهم . وقد نحت دوله الأتراك بين حدم هذا النوع لإدراكهم . غرباء في البلاد فاجتروا لهم لاعتبارهم ببلاد هؤلاء . من المماليك المبرورة في أواسط آسيا كانت لا ترى غرضاً في بيع أفلاك أعبادها للتخاسين الذين كانوا يعدونهم حسن المستقبل والسعادة في القرب . وقد شغل عمل التخاسين ما كان يذاع عن ثروة وتصرف الكثرة التي يمكن الحصول عليها بأقل جهد ؛ لذلك لم يقتصر الأمر على صياها الحروب وأسارها بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية تهاقت السلاطين والأمراء على شرائهم أحياناً بأثمان باهظة

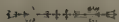
(١) كان الخلفاء الفاطميون من نسل طوائف الإسماعيلية الشيعية وقد نشأت من بربر شمال أفريقيا واجتمعت على رجل اسمه المهدي كان قد فر من بلاد العرب في أواسط القرن العاشر وصار خليفة عليهم في طرابلس . وبعد ستين عاماً من ذلك التاريخ غزا الخلفاء الفاطميون (سوا ذلك) لأنهم من سلالة قاطنة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وسلم (الذي هو المصطفى) وجنوبي سورية

ولما كانت هذه الفتنة تَشُو نشأة حرية كان أسعدهم حفظاً وأعظمهم مدبرة من تلك رقبته أمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أوجسين أو مائة . وقد سب أحدهم وشه واحدة بجملته أميراً ثم . وأخذ عددهم يتصعب شيئاً ما يك جدد كانوا يبالون ما بال إمرأهم من الحرية والفر . وقد كانت السلاطين بطبيعة الحال أكثر الناس كماً على سرا . ولما كان استبدادهم بموارد الحكومة في إحاطة أنفسهم بجمع عظيم من هؤلاء المماليك . فقد علمنا أن أحد السلاطين اشترى منهم نحو ستة آلاف . وبينما كان السواد الأعظم من الأمة يعيش عيشة التمس عرقاً في حمة الجمالة كان المماليك المقربون لدى الأمراء . ولا سيما غاشية الملك يتعلمون علوم السرا والحرب . وكان الواحد منهم ينهض من درجة حاجب أو تابع تدريجياً حتى يصل إلى مرتبة سيده . فملك اليوم هو قائد القدر بل ليس يبرز عليه أن يصبح سلطاناً . وقد كان المماليك في بدى . ثم متصفين بالفاحة ونسراة الأحلاف فخذوا على مر الأيام يشعرون بما لديهم من القوة وشدة البأس فازدادوا بهاجية واستندوا بهم وبسماة الناس لحب تدان يتكرر منهم من صوف التخريب والتعديب ولما كانوا متصفين إلى الحرب وسيم كل منهم في اسم سلطان أو قائد كانت حالتهم الطبيعية عبارة عن حروب داخلية وأحقاد متأججة . على أن هؤلاء المماليك حيناً كانوا ينقسمون في شهوراتهم وملاذمهم لا يلبثون غالباً أن تتوروا على سيدهم . بيد أن بعض السلاطين الأسد . كان في مقدورهم أن يكبحوا حماهم ويجهلهم طوعاً وإرادتهم ؛ لذلك كانت السكينة تعاود البلاد من آونة إلى أخرى فينشر لوائها حيناً يكن فيه الاضطراب والحب . كما بين فلا يلبث أن يس طيورهم في نية لحلة .

وقد أسكن أمراء الأيوبيين ممالكهم من الترك والمغول بجزيرة النيل (جزيرة الروضة) ليكونوا يبعدون عن المدينة ولذلك سمو بالمماليك البحرية . وأول أسرة من المماليك (١٢٦٠ - ١٣٨٢ م) كانت من هذه الطائفة . أما المماليك الآخرون فاتهم جلبوا إلى البلاد بعد ذلك وسموا البرجية نسبة إلى الأبراج التي كانوا يقطنونها في

القاهرة أو في أرجاء المدينة . ومعظمهم ينتسب إلى الجنس الأتركي ؛ ومن هؤلاء كانت أسرة المماليك الثانية (١٣٨٢ - ١٥١٧ م) .

على أن معظم المماليك كانوا محللين لأمراتهم متفلسين بهداهم . وقد تولى الأمراء استخدام هؤلاء في امتصاص دماء الأهلين والانتفاع من وظيفتهم وبالاستيلاء على إقطاعات من الحكومة . وأواقع أنه كان هناك في مجموعهم مكانة سامية ومركز قوى لا سيما في مذهب الأخيرة إذ كانوا يرغمون السلطان على الخصوع لإرادتهم . هؤلاء هم القوم الذين قضوا على مصر بيد من حديد مدة عشرين ونصف قرن من الزمان وهم الذين سادوا الآن في فضاء مصر



« الأيوبية ». وكانت القاهرة حاضرة البلاد فخصنها بأحجار الهرم الأصفر. وقد هجر قصور الفاطميين الفخمة وبنى قلعة الجبل على أقرب اكمة من سلسلة تلال المقطم واتخذها مقراً. وبعد أن حكم البلاد المصرية والسورية نيفاً وعشرين سنة حكماً ناجحاً مات وترك أسرة كثيرة العدد فوقه النزاع بين أفرادها وانتهى الأمر بنفلة أخيه العادل وأصبح صاحب الكلمة النافذة وحكم حكماً زاهراً في مصر وفي الشرق من بلاد جورجيا إلى عدن. وفي آخر أيامه استولى الصليبيون على دمياط فاشتد به الحزن والتكدح حتى مات خلفه حفيده الملك (الصلاح نجم الدين أيوب).
وفي هذه الآونة انقضت القبائل الخوارزمية على سورية وسلبوا بيت المقدس بكل وحشية. وقد عقد السلطان مع هؤلاء البربر معاهدة، وسير قائد الظاهر بيبرس ليعصر اليهم على عمه اسماعيل حاكم سورية وكان صديقاً للصليبيين. فتمسكت جيوش الفرنجة والمسلمين مع جيوش بيبرس والخوارزمية عند يافا وبربرم، بيبرس هزيمة منكرة وبذا أصبحت سورية في قبضة مصر ثانية.

تراد السلطان بعد ذلك إلى بغداد فبغوه في داخل البلاد وفي ممتلكاته فاستمرى عدداً عظيماً من المليك الترككية (وكان هو أول من سكتهم حرية الروضة في أنيل). وكان اسمه «توران» آخر سلاطين هذه الدولة وهو الذي في عهده عزالو ليس ملك فرنسا البلاد المصرية غير أنه هزم وسجن في مصر. ثم فر منه إلى القاهرة. وفي هذا حال توران شاء أنطلق سراحه. وقد أقر هذا لعن الإنسان في حشد المليك البحريه عليه؛ وكذلك أخرج عظيمه تمككه من وجه المعصاة منهم. فدير وموافرة صده وذبحوه وقضوه على رءاه الأمور في البلاد.

انتخب رؤسا المليك من بينهم الأمير (أيك) بدير ثور البلاد فكتب في هدى الأمير أن يحكمهم. ووج سببده (شيخ أيوب) وكانت في الحفيقه فذ انتدركت في المؤامرة على قبل ابن روجه. ولكن الخليفة عباسي لم يوافق على أن تتولى امرأة الحكم ولو سوريا فتر وجها أيك. ثم أنه أراضه للأيوبيين في بلاد

الفصل الثاني

الدولة الأيوبية وسلطنة أيك وقطر

(١١٧١ - ١٢٦٠ م)

حوالي منتصف القرن الثاني عشر حين كانت الدولة الفاطمية خائرة القوى والنزاع فيها قائماً على قدم وساق، والفوضى ضاربة أطرافها، أخذ كل من نور الدين والملك أمريك يزور إلى مصر ويطمع في أن يستحوذ عليها، فأثار ذلك ذعر الخليفة وطلب من نور الدين أولاً أن يأخذ بتأمره ثم مالئ أن لجأ إلى أمريك وطلب منه ما طلب من نور الدين؛ وفي كلتا الحالتين دخل كل منهما مصر وغرضه الظاهر هاجمها وبه اعتلاكها. وانتهى الأمر بعد مدة بديه بن الحارثين، غير أن ملريك نفس عهده وأغار على البلاد وفرض عليها غرامة فادحة فلم يسمع الخليفة إزاء ذلك الخطر إلا أن يستصرم نور الدين ويعت إليه فخصه من شعر روحه إسارة إلى الخطر المحدود في مصر. المدين تلك القرصه وسال قائد سيركوه للتحدة فبزم ملريك وشئت شمله، فقال شيركوه بذلك النصر الذي نجح به الخليفة العتاف الكبير وعتين وزيراً قبض على أزمة الأمور في البلاد غير أنه لم يصف طويلاً قبل أن يحتل الدولة خلفه في منصب الوزارة ابن أخيه صلاح الدين.

وفي السنة التالية مات الخليفة الفاطمي أيضاً؛ وكان صلاح الدين قد أعد المدة الفعالة لإبخاذ كل معارضة توجه إليه فاستولى على زمام الأمور وأعان نفسه سلطاناً على البلاد. وبهذا انتهت الدولة الفاطمية التي حكمت البلاد المصرية قرنين^(١) وكان صلاح الدين بن أيوب أحد رؤساء القبائل الكردية. وقد أطلق على دولته

(١) قد تجارست فأثبت هنا بكثير من المحاضرة المقدمة

الحزب الأثري

دولة المماليك البحريةية

أو الأسرة التركية

١٢٦٠ - ١٣٨٢ م

افصل الثالث

بيبرس

١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

كان السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى ^(١) أول سلاطين دولة المماليك البحريةية الذين تبنوا عرش مصر مدة قرن من الزمان، عبداً مملوكاً اشتراه السلطان الصالح أيوب وقد أظهر نفسه في ميعة سنة ٦٠٠ في الحروب التي سادها مصر على اسماعيل والتمبيين، وبعد ذلك وفي في مدائح المصاحب السامية وكان الظاهر بيبرس أحد أميين عروا، حسب حدة السلطان ورث شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية؛ وفي مدة سلطنة أيك انضم إلى جماعة أقطاي الخارجين عليه؛ وبعد قتل أقطاي قر من البلاد هو والده، وبذلك تمكن من تأسيس البحرية. أما في عهد قطز فإنه صار كرايها وقد نجح من مرة ثانية على أثر هزيمة قطز، ثم أنه ساعد على الإطاحة

بعد أن استقبل الأهلون بيبرس استقبال الظافر المنتصر في حاضرة البلاد أخذ هو يستهوى القلوب ويكفر عن السيئات التي ارتكبها فيما سلف هو وأخوانه من الأسرة البحرية، ولا غرو فإنه باتباعه طريق الحكمة في إدارة شؤون البلاد أفلح في اكتساب حبة الأهلين واستأنهم إليه وبسط نفوذه في داخل بلاده وخارجها تخفف

(١) لفظة فارسية معناها حامل البندقية

تاريخ المماليك (٦)



الضرائب التي كانت سبباً في تنقيص حكم سلفه الى الأمة، ونال الثقة التامة بما كان يستنه من القوانين العادلة والاعتدال في ترقية ممالكه، وهذا خاطر السورين باعترافه بحكامهم المحليين وحسن معاملته لهم ولم يخرج عن طاعته إلا ولاية دمشق؛ ومع ذلك فإن الأمراء لم يلبثوا أن دخلوا في طاعته وحُمل حاكم البلاد الخارج أسيراً الى القاهرة وقد سمح بيبس القيام بالأعمال العامة تشييد المساجد وزخرفها وأسس المعاهد الدينية وكري الترع وأصلح الثغور والمقالق وزاد في استياب الأمن في مملكته بترتيب خيل البريد فكانت تصل الأخبار بسرعة بين دمشق وحاضرة البلاد^(١)

١٢٦١

وقد فكر بيبس في السنة التالية من توليه عرش مصر في ارجاع الخلافة العباسية الى مكائنها، وكان هولاء قد اجتاحتها جملة من بغداد وقضى على كل الأسرة العباسية. وكان غرض بيبس من ذلك أن يقوى عرشه ضد أحقاد نظرائه سابقاً من المايك وكذلك خوفاً من قيام الشيعة لارجاع الدولة الفاطمية، فظن أنه لو نصب خليفة من السنين فإنه يقضى على مثل هذه الدسيسة، ويجعل حكمه في مصر شرعياً لذلك لما سمع أن أحد العباسيين أخطأه مذبحاً المغول، جد في استحضاره من سورية الى مصر في موكب حافل. ولما اقترب العباسي من البلاد خرج السلطان وحاشيته في موكب لمقابلته. وقد تبع السلطان في موكبه اليهود والنصارى رافعين علمي أبيهم النوراة والانجيل. وبيع للعباسي بالخلافة وأقسم له بيبس ورجال حكومته على

الطاعة. ثم الخليفة المستعصر بالله « فبه قد بيبس سيطرة البلاد وعند صلاة الجمعة بعد قراءة ما تيسر من القرآن والحظبة والصلاة على النبي « صلى الله عليه وسلم » والدعاء له ولآل عباس دعا الخليفة للسلطان بدوام العز والبقاء. وبعد بضعة أسابيع شاهدت وليجة السلطان حفلة مبارزة حية على النيل واجتمعت بالبستان الكبير حاشية الحديقة حيث حلق خبثه على السلطان الحلق. وهي حنة سوداء وجمدة بنفسجيه وخطوف من ذهب. وقد سبها عرياناً ثم هذه الخليفة المملوك بعد أن قرأ عليه وفيه

(١) كانت تصل الرسائل في مدة ستين ساعة

يحبض الخليفة السلطان اسباباً على واجبه نحو الحرب ذوداً عن الدين وما أثقل به عاتقه من المسؤولية. وبعد ذلك دقت الطبول وعزفت الزمور وهتف الجميع فرحاً وجوراً ثم سار الموكب في طريقه المفروشة باليسط الى القلعة وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة فالوزير على متون الجياد وتبهم سائر الناس على الأقدام فكان منظرأ لا يحيط به الوصف. بعد ذلك خرج السلطان بجيش قوي البأس ليُجلس الخليفة العباسي على عرشه في بغداد كما كان من قبل. غير أنه لما وصل الى دمشق في طريقه قيل له ان تأسيس خلافة قوية الأركان في بغداد قد تكون خطراً على استقلال مصر فأوغر ذلك صدره على الخليفة وتركه هناك يجترق الصحراء برفقة قوة من الأعراب والترك. وفي أثناء سيره انقض عليه الحاكم المغولي فتخلى عنه أتباعه ومات في طريقه

ولما وصلت أخبار هذه القاصمة الى مصر، ولي السلطان بيبس أحد سلالته عباسيين الخلافة (١٢٦٣ م). ومع أن هذا الخليفة كان يقوم بكل ما يتعلق بوظيفته من سهرس أخذ لنفسه الحيلة حتى لا يجعله يشغل المسكاه التي كان يتمتع بها سلفه. فجعله سجعاً عابثاً مراقباً حثيثاً في القلعة. وقد بقي الخليفة طويلاً حكمه دوله المايك وليس لهم من الخلافة إلا اسمها وإن كان ذلك لا يطبق على حكم كل سلاطينهم. والواقع أن الخليفة كان يؤذي به في مواقف الرسمية الهامة ليعتم الحاسية، ثم كذا كان يؤذي به عند توليه سلطان جديد بصفته الرئيس الديني للمسلمين ليعترف بلب السلطان. وهذا كل ما كان له من الأمر.

على أن بيبس دمر عمله في إدارة شؤون البلاد كان لا يتحرر، عند إمارة تار حننه. عن لعدد الحانية والاستهانة بالأرواح والأفس. وكانت طبيعته خاصة بحسنه فكان سريع التصديق لما يقى اليه من الواسية. وكان لا يكتفي بتقرير ورواياته وحكمته من وقت لآخر تخافة أن يشتد منه بهي غضب، بل كان يودعهم أعماق السجن ويربأ كانوا لا يخرجون منه أبداً. وكان أشد أخلاقه إيلاماً عدده فإنه لم

يتأخر أو يتردد في استخدامه لقضاء مآربه، وشواهد ذلك عدة. وأعظمها فظافة وخسة تلك الأبحولة التي أوقع بها مغيثاً الأيوبي صاحب الكرك، فإنه بعد أن سعى مراراً في إضاعه، أرسل إليه رسالة أعطا فيه الأمان والمواثيق أنه يرعى ذمته ولا يفسده بأذى^(١). ومع ذلك كان مغيث لا يزال يشك في موثاق بيبرس غير أنه لم يجد بداً من الاجابة؛ واضطر إلى الذهاب إلى معسكر السلطان في سورية فقابل به بيبرس بكل تجملة واحترام ورافقه على ظهور الخيل إلى سمرقند وهناك قبض عليه على حين غفلة منه وأرسل مصفداً إلى القاهرة حيث قتل جوعاً. أما الوالي الذي خلفه مغيث وراه على الكرك فإنه أتى تسليم القلعة إلى ذلك السلطان الخائن، ولذلك كان الاستيلاء عليها عنوة محضاً. على أن أسرة مغيث عولمت بالدين والرفق. وإن كان ابنه لما بلغ أشده واستوى زج في أعماق السجن لمجرد القلعة، ولا حاجة بنا بعد ذلك إلى سرد حوادث غدره غير أن المكر السيئ الذي أبداه في المثل الآتي يبرر لنا ذكره: ذلك أنه أراد أن يتخلص من بطريق النصارى بفناد بسبب ما راجع من مصادقة لمعمل فاطمطع بيبرس له رسالة يسكره فيها على ما يثق عليه من الأخبار السرية، ثم دبر أن يكشف أمر حامل الرسالة، فلما جرى ما يكتب بين يديهما كما يفناد المولى أمر بجز رأس البطريق لحياته.

١٢٦٣ - ١٢٦٤ وكان الظاهر بيبرس على خوف ووجل شديد من المغول الذين كانت لهم دولة تمتد من نهر جيحون إلى المحيط الهندي رئيسها أيقبا؛ فطلبه فترك إلى مصالحة بروج كاشي ثم حارب في حربه ضد ووالي مصادفه العنصر الذي كان قد أخذ يعيق من أضراس الحرب الصليبية السادسة ومن المصائب العظيمة التي أنزلها البابوية بالقسطنطينية

(١) وقد رأى التويري المذوع هذه الرسالة ونقلها عن الأصل ووصفها في كتابه كلمة وترجمها الأستاذ ويل فوفنت في صحيفتين. وحلف بيبرس أنه إذا نقض موثاقه فإنه يترك مالكه وجواربه ويخرج إلى البيت الحرام عاري القدم مذنباً ثلاثين مرة. أما مغيث فقد اتهم بيبرس بأرسال ابنه إلى هولاء كد يتوسل إليه أن يبق على الكرك. ومع التسليم بهذا فإنه لا يبرر حمله في بيته

وقد استحكمت بين المغولتين عرا المصافة والمصادقة، حتى أن القيصر بنى مسجداً للمسلمين في حاضرة ملكه وحصل من السلطان بيبرس على بطريق من الطائفة الملكية لمن يعترفون هذا المذهب في دولته. ولم تقف مساعي بيبرس عند هذا الحد، بل أرسل الرسل إلى اسبانيا وإثالي وإلى سلاجقة آسيا الصغرى، وفي الواقع إلى أي ناحية كان يرى أنه يجد فيها سداً ينصره على أعدائه المغول الأشرار. ومهما كان من الأمر فإنه لم يكن هنالك سبب يدعو إلى القلق في تلك الآونة إذ كان لدى المغول في بلادهم ما يسلبهم عنه. وقد بي الحال كذلك إلى أواخر حكمه والآن نرجع إلى الحرب الصليبية العظيمة، وإلى الغزوات الأربع الشهيرة التي بها قرب بيبرس أهل القضاة على سلطان الصليبيين، وذلك لما رأى الكرك قد غلبت على أمره وأن مرجع واقع بالمصادفة لمعمل آس أن في استطاعته إذ ذلك أن يزعج شكل حوده على الصليبيين الذين كانوا فصلاً عن أسباب العدا. المستحكمة بينهم - على تصادق وتوادم المغول. وكان قد سبق بيبرس أن طلب مبادلة الأسرى وكان الفرنجة قد وافقوا له على تسليمهم على إجماعهم في الدين ثم حذب بحرك من لدنه من الأسرى المسيحيين في حصون دمشق. على أن السبب المباشر في إخمته الأولى عليه فقهه العبود إذ أوا تسليم بعض المأفل. فقد بيبرس. إظهاراً لسطه، وأوقعه الحرب في أرجاء كل البلاد المسيحية وهدم كنيسة الماصرة.

وبابتداء الغزوة الثانية في أوائل السنة التي بحصار قيسارية التي سقطت بعد هجوم حصة آية وهدمت أسوارها ونحصرت لويص العظيمة لها. ولم يكن بيبرس يشجع الجيود أثناء ذلك سنة المعركة لحوض عمار الحرب حيث بل كان يشاركه في هذه الأسوار نفسه. ثم انقض على قلعة أرسوف البحرية الواقعة جنوبي قيساريه، وقد دافع عنها الفرسان الموحسونيون دافع الأبطال مدة أربعين يوماً. وسلك السلطان يهاجم المدينة من البحر كان الحرس الديني بالغاً الشدة

بالتحليل بين يديهما كما يفناد المولى أمر بجز رأس البطريق لحياته

١٢٦٣

١٢٦٣
سنة أول

١٢٦٥
سنة ثالثة

أربع

في القراء والدرأوش حتى النساء الذين تجمعوا لحفر الخنادق تحت الأرض . وفي النهاية اضطر يبرس للمفاوضة مع الحامية فأمنهم على حياتهم . ولكنه بعد أن أكرهم على العمل في تخريب حصنهم بأيديهم ، أخذهم غنائم حرب ليزين بهم موكبه وهو راجع إلى القاهرة ، وصلبانهم مكسرة وأعلامهم منكسة . وقبل أن يترك يبرس ساحة القتال أجزل العطاء لكبار الأمراء وكان عددهم يختلف بين الحسين والستين فأقطعهم القطائع من أرض فلسطين الحصينة الثروة التي ارتعنا من الصليبيين . وقد وزع نسخاً من الصحيفة التي سجل فيها العطايا التي منحها لأتباعه . وهذه الصحيفة تحتوي على وصف حكم هذا السلطان وعظمته بألفاظ تتم عن الفخر والأبهة ، وأنه بلا مراء هو الذي وطم دعائم الدين الحق بهزيمة أعدائه من التتار والصليبيين . وسجل في الصحيفة كذلك خدمات أمرائه الميامين « الذين يتالأنون كالنجوم في القبة الزرقاء » وأنهم قد نالوا ما يستحقون من المكافأة^(١)

١٢٦٥

في ربيع عام ١٢٦٦ م . هاجم بومند السادس ملك الانطاكية مدينة حصص فأرسل إليها يبرس قوة لتجلبتها ، وبعد ذلك سار بكل ما لديه من الجنود لغزوة الثالثة فزار في طريقه بيت المقدس ، ولما وصل إلى حيرون اغتدى على حراس قبة إبراهيم من قبض عتقه . ولكنه في خوف عتبه حرم عليهم السماح بالهجاج بزيارة هذا الضريح . وبعد ذلك عبر نهر الأردن على قنطرة كان قد بناها حديثاً^(٢) على شاطئ

١٢٦٦

حالة ثالثة

(١) وقد كتب يبرس هذه البشارة بأسلوبه المبالغ فيه وألقبها بالقرى فيها ألقبها بالقرى متعوا هبات وأنبأه العجايب التي منحت وهي تشغل عدة صفحات من كتاب القرى طبع كازيمير جزء ٢ من ص ١١ إلى ص ١٥

(٢) ولا تزال هذه القنطرة باقية إلى يومنا هذا . وقد كتبني على البقية الأوسط منها اسم الهندس الذي بناها بأمر يبرس . وفي مؤرخة ٦٧١ هـ (١٢٧٣ م) . راجع الصورة والمقال الذي كتبه كازيميرت جانو في المجلة الآسيوية سنة ١٨٨٨ م ٣٠٥ (Pont de Lydda) وهذه الكتابة بخط عربي واضح في أربعة أسطر يكتبها أسدان . وكذلك راجع القرى طبع كازيمير جزء ٢ من ص ٢٦ و (Palestine Exploration Fund) بولي عام ١٨٩٠ م ٢٥٣ ولها مقال عنوانه « سد الاردن في عام ١٢٦٧ م » . وقد نقل الكولونيل والسن عن النوري عام ١٣٣٢ مكتبة نطق الاردن لمدة ما حدث به في أيام يوشع . ومؤدى البشارة كما يلي :

قريبة من شمالي البحر الميت ، ومن ثم تقدم نحو عين جالوت وبحيرة طبرية . وفي ذلك الوقت كانت النجدة التي سيرت لتخليص حصص قد قامت بتمهتها وعاشت في أرض الصليبيين فساداً من شماليها إلى جنوبيها ونجحت أمام صفد وهي قلعة على جبل خلف بحيرة طبرية . وقد شدد يبرس عليها الحصار بما كان مطبوعاً عليه من العيرة والاهمال ؛ إذ كان يشغل بنفسه في ضرب المدينة ويذل جهده في العناية بالمرضى والجرحى ؛ وحى وطيس الحرب وجرت فيها الدماء واستعان المصريون « بالنار الأفرقية » في الاستيلاء على القلعة . وبعد انقضاء ثلاثة أسابيع على هذه الحال أعطاهم أماناً على أن يخرج الحامية من القلعة فارغة الأيدي . غير أن السلطان احتل أهلها جميعاً على أكة قرية من القلعة وهم نحو الفين من الصليبيين وغيرهم . وقد عزى ارتكاب هذا الجرم الفظيع إلى أن الأسرى حين حروهم حملوا معه أسلحتهم ومقتنعتهم . وبسبب فريق إلى أن بعض المسلمين وحدوا مسجونين في القلعة ؛ على أن هذا الأسباب لا تنحصر على ذلك الفلح ثلاث المظلة السوداء التي عصفت لسانها إلى يمانية^(١) بعد ذلك أعيد ساء صفد ونس على حداثتها قصة نعل على الفخر والصلب مما « به » استكدر رماه ونجد الذين حول أنكاس

في شهر ربيع عام ١٢٦٦ أمر السلطان يبرس بسد قنطرة دوت حصة أقبية على نهر الاردن قنطرة من دوق وقد حدث ذلك شيء عجب لم يحصل إلا حدث من قبل أو سنة منه وذلك أنه بعد أن تم البناء الشار أحد الأروسة نصب السلطان ذلك وأرسل الجيش لاصلاحه ولكن بالهطاع لأنه كان قديراً فقتل بعض ومن العجب أنه حدث بعد عدة من ايل ٨ ديسمبر سنة ١٢٦٧ أن توقف جريان الماء وصاعده في شغل الريان والميتل والتهزوا للفرسية به وأغمر الجزء المتصنع ولولا ذلك لما تمكن من مجوء . وقد أرسل الناس على صهر الحاردي يستعملوا سب توقيف الماء فوجدوا أن ثلاث قنطرة في الزهر وسد في الماء طريفة . وفي الساعة الرابعة من اليوم التالي تدفق الماء بشدة على القنطرة كاه السيل الحاردي غير أن الإصلاح كان قد تم ولم يزل التيار شيئاً غير أنه حل السقالات . وقد خزان الوبى هذه القصة عام ١٢٦٥ م حقاً أن هذا الشيء عجايب وأن القنطرة لا تزال قائمة إلى اليوم .

(١) فقد لحص ويل الاحياء التي دعت إلى تلك القصة التي لا يكاد يصدقها العقل . وقد كتبها بدون محاباة فوفقت في نحو خمسين من كتابه جزء ٤ من ص ٥٤ . وقد عني عن اثنين من رجال الحامية يتوسط أحد الأمراء . ويقول القرى أن أحداهم أسير وأن الآخر مستخدم لتلص أخبار الجيش الصليبي

إلى مساجد، ورنين النواقيس إلى أصوات المؤذنين، وقراءة الأنجيل إلى ترتيل القرآن» وهم جرا. وفي آخر القصة «نصر الله المؤمنين إلى يوم القيامة»

وفي هذا الوقت ابتدأت تظهر العلاقات لأول مرة بين المالك وأرمينية. ففي عام ١٢٦٢ م. قام هيثوم ملك أرمينية بشدّ أروء سلاحه آسيا الصغرى وكان كل من العربيفين تحت نفوذ التتار وغزوا سواحل سورية وهددوا مدينة عينتاب فسير عليهم يبرس جيشاً، وعندئذ طلب الأرمين المساعدة من تاتار آسيا الصغرى ومن الصليبيين الذين في أنطاكية. ولما وصل اليهم المدد قاموا بهجمة جديدة على الحدود وحاصروا بلدة حارث، غير أن ساقط التلج ورميرير الشتاء اضطرهم إلى التراجع ثانية. أما يبرس فقد قام بنقم لنفسه فل يكفّ بتخريب المدن الواقعة على الحدود وسبها بالعث فساداً في ولاية أنطاكية الصليبية وعكاً وبسيرة.

وبعد عامين من الاستيلاء على صفد، أرسل حملة في فصل الخريف اخترقت مضائق كليكا ونفذت إلى أرمينية حيث التقت مع الملك هيثوم، ولم يكن المغول قد مدوه في تلك الأزمة فزعم، ودمج أحد أولاده وصحب الثاني في السلاسل إلى القاهرة، واجتاحت كل البلاد من اطنة إلى جبال طرسوس. أما عاصمة ملكهم سلس فكان كل، فيها سبيته الحرب. وقد كان فرسان الهيكلين يافعون من أحد المعاقل الآمنة فاستولى المصريون عليه عنوة بعد حصار، ودمجوا رجاله وأسرهم وأطفاله. على أن يبرس نفسه ضرب لعل «فلما مضى شديدة» (وقارا هذه قرية مسيحية على روة شمال دمشق). وسبب ذلك أنهم كانوا يسرقون عابري السبيل من المسلمين ويبيعونهم بيع الرقيق فخرقت صوامعهم وبيع الإهليلج. وصال رهبانهم. وحولت كنائسهم إلى مسجد وأخذ صبيانهم من بيت مريم في مد. وكان من أمرهم. وفي أثناء عودة الظاهر إلى الديار المصرية كتب له جواده (فكسر فخذه) فجعل في حفرة إلى مصر. وفي خلال السنة التالية استسلم الملك هيثوم لمطالب السلطان فأفرج هذا عن ابنه ورجع السلم بينهما

١٢٦٣
١٢٦٤

١٢٦٦

إلى نصايه وحينئذ اضطر إلى تقض عهده مع المغول وإلى النزول عن كثير من معاقل الحدود التي كان قد أخذها منهم. ولو تخافى الأرمين والصليبيون الخضوع لنفوذ المغول لكان خيراً لهم فإن هذا الخضوع كان لا بد أن يثير حقد المصريين عليهم وتكون عاقبته سقوطهم. وفي عام ١٢٦٧ قامت الجنود السورية من جديد بتخريب كل ما في طريقها حتى وصلت إلى أبواب عكاك. غير أنه لم يكن لذلك من نتيجة ظاهرة

وفي السنة التالية كانت حملة رابعة شهيرة. ففي باكورة ربيع ذلك العام زحف يبرس على طرابلس وأنطاكية بعد استيلائه على «شقيف»، وانقضاضه على «ياقا» بدون انتظار وقد لاقى شدة في الاستيلاء عليها فقد العزم على أن ينقم من يؤمّد صاحبها لمساعدته المغول في هجومهم على سورية فخرّب كل ما حوالى طرابلس من الأراضي وسلب كل المدن والقرى، وذبح كل من وقع في الأسر من الفرنجة. ثم تقدم الجيش إلى أنطاكية فأمر حاكم المدينة في إحدى هجماته على العدو. وكان يبرس وقتئذ يرغب في اصباح يحاول أن يوسط ذلك الحاكم (الأسر) في أن يلقوا أسلحتهم ويسلموا المدينة. ولما خاب مساعده من تلك الناحية غزا المدينة وهاجم أسوارها ثم أوصد أبوابها في وجه السكان وذبح من ذبح، ومن بقى أخذه أسيراً وكان عددهم ثمانمائة ألف نسمة يدخل في ذلك الرهبان والقسيسون. وفي اليوم التالي سلم رجال المدينة هاربين وكان عددهم نحو ثمانية آلاف عدا النساء والأطفال؛ وقد وزعوا جميعاً مع من بقى من سكان المدينة سيابا حرب على رجال الجيش. أما العقول فأشعلت فيه النار ومنه امتد اللهب إلى أنحاء المدينة فتركها أثراً بعد عين. وبعد ذلك أرسل يبرس رسالة تهكم إلى يومئذ يشاطره فيها الحزن والأسى على مصير حاضرة ملكه المضيق. وعبارة الرسالة تم عن الصلف والتعريب والسخرية

وفي خلال السنتين أو ثلاث السنوات التي تلت المعركة لم تقتره يبرس الحرية عن دوام مناوأة الصليبيين فكان يستولى على معاقلهم مقللاً فقللاً رغم تاريخ المالك (٧)

١٢٦٨
حالة رابعة

١٩ مايو

١٢٦٩ - ١٢٧١

وقابلوه في موكب حافل تصدح فيه الموسيقى ويعلمون هتاف الفرح ودخلوا به كذلك إلى مدينتهم . وبعد أن قضى في المدينة بضعة أيام رأى أن مركزه فيها مهدد فرحل بطريق النهر الأزرق إلى حارم وقضى بها مدة . وكان « أبنا » وقتئذ قد سار على جناح ناعمة من الشرق ليأثر لجيشه المهزوم ويرجعه فؤاد المغول وحكمهم . فلما وصل إلى قيسارية ، وكان يبرس قد برحها ، انضم من مسلميها شر انتقام لمقاتلتهم سلطان مصر بالتحلة والترحاب قتل خلقاً كثيراً من المدينة وما حولها^(١) - هذه هي قطائع المغول في أرمينية وتلك كانت خيانة يبرس الذي غادر المدينة التي احتفت به نهب القضاء والفدر . وسره أن العدو الذي كان يخافه على سورية قد ولى وجهه عنها إلى آسيا الصغرى

رجع بعد ذلك بيرس وهو خال البال الى انطاكية حيث قضى في الخصال التي
حول المدينة شهراً، ثم قفل راجعاً الى دمشق واستراح هناك وأقام وليلة لامرأته من
«ابن القمر» وهو طعام تارى وكان شديد الشفب فأكثرت منه فغضب وقضى بغير
بعد أسبوعين، وفي رواية أخرى أن القدر الذي شرب منه كذب قدس في السلم
لاخير من الأيوبيين فشرّب منه الفاهر ساعياً ناسياً
معه من طعامه من وهو في يوم عطسه وحاله يعلو فيحياق أحضره
منه من طعامه من وهو في يوم عطسه وحاله يعلو فيحياق أحضره
رد الى صاحبه ليعيب في إحدى عينيه الزرقاوين، وكان مكمل الترتن تطويع القائمة
جهورى الصوت شجاعاً نشيطاً خفيف الركاب يحب السفر والحركة. ومن عاداته أن
يشرف على كل شيء بنفسه سواء أكان بالقاهرة أم بالاسكندرية أم بأي مكان
آخر راكباً جواداً أو بهيمة. والخلاصة انه كان مولماً بالسفر حتى قبل فيه :
يوماً بمصر ويوماً بالشام وبالأفغانيا وبأرمينيا وبأذربايجان وبأذربايجان وبأذربايجان

(١) قد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الفتي كان مائتي ألف وبعضهم أبلفه الى نحو ستمائة ألفاً علو سلمنا بهذه البيانات لا يصحنا الا القول بأن المدبحة كانت شعبة

وكان مغرماً بلعبة تارية تشبه لعبة «التنس» عند الإنكبار وتُدعى «البقي» كان يخصص لها يومين من كل أسبوع. ولما أخذ في بداية أمره يرى إلى مدارج القوة كان هو أو من تأمر معه اليد الغفلة في قتل سلطانين من سلاطين مصر. وفي النهاية أصبح مملوك الأس نبيلا ومملكا عظيما اليوم، يمتد سلطانه بلا منازع من القرات الى النيل ومن تخوم آسيا الى سواكن على البحر الأحمر؛ ولم تكن همته محصورة في تضييقه على الصليبيين وسد السيل في وجوههم وضغطه عليهم فيما بقي لهم من المعازل القليلة العدد بل كان سلطانه نافذا في كل البقاع

وكان شديد المداوة للسمع ومن كبر الماحرين لأهل السنة . ومن حليل
احماله ثمة أعاد الخلافة الى العباسيين كما ذكره وإن كان الخليفة يس له من الأمر
شيء إلا باسم الخلافة . وكان يبرس فيخصه لأحكام السريعة ويعدس فراقها وقد
حجج لبث الحرام ونشد كبراً من المعاهد الدينية وتزوج أربعاً من عتال الشار
- عدا من كبرى في يده من الطوارى الحسن - فزوى منهن عدة أولاد ذكر وإنا .
ومعه ذلك سمعاً من السيرة في أن العادة لدى المسلمين وحده الميث - أن
يكتب أمر لسانه ولا يعرف أحد شيئاً عن الحياة المنزلية في بيت أمير أو سلطان .
وكان يبرس بعد ذلك من فصاله وذاته في مجل من تلك ارضه التي
لا تكاد تسمع بها في اعمى العربى . وعلى اكاك عليه من نصف في ابراز الأموال
ولقد . والنمل مما سود اسمه . كان ملكاً عفا موي السكينة ⁽¹⁾ . على أن ما فاه
من حليل الأعمال وعقوبها . منسله لدى لا يبرس اليه الفتور وحاله امامه
مبهراته الحسن وضوءه من حبه . يس على الدوام وألمه كل من كان حوايه

[illegible]

كل ذلك حمل الناس على تناسي قساوته وغفلاته فلا يزال اسمه يتنقى به الى يومنا هذا في قهوات القاهرة، وهو يعد من أحسن واعظم السلاطين الذين تبوأوا عرش مصر ومما لا شك فيه أنه كان يتطلع إلى حصر وراثته العرش في أسرته ولذلك أعلن قبل وفاته بضع سنين أن ابنه سعيداً أكبر أنجاله خلف له على عرش مصر. وقبل مماته بعام زوج ولي عهده هذا من إحدى بنات قلاوون في احتفال فخم راجياً من ذلك الزواج ان يكون هذا الأمير عضداً لابنه في إدارة شئون البلاد

١٢٧٧

وقد حطت جثة يبرس ودفنت بدمشق، على أن نعيمه كتم عن الجمهور مدة شهر بأن حلت عفة خالية الى القاهرة وأوهم الناس أن السلطان فيها وهو مريض ولذلك لم يعتل عرش^(١) السلطنة ابنه سعيد إلا في الثلاثين من شهر يولييه

١٢٧٧ - ١٢٧٨

فصل الزايع

السلطان السعيد - السلطان قلاوون

١٢٧٧ - ١٢٩٠ م

كان السلطان السعيد شاباً غراً طائشاً، لم يعد التاسع عشر ربها عند اعتلائه العرش، ورث عن يه عبوة والعبد يد أنه لم يكن على شيء مما كان لوالده من القدرة والعزم. وكان متعدياً فيؤذي والده. فلما قضى على قبضه على صولجان الملك بضعة أسابيع حتى سم وزير والده (أتابك)، ورج بغيره من ضباطه في عيادات السجون. ثم أخذ ينادي لأفراد صهره مما يكره، فقبضه عنه جماعة الأمراء وأخذوا يحدون كبره. فلما أحس السلطان منهم ذلك أراد أن يتغلبوا بأنهم فاجدة على بلاد الأرمين وتحتف هو ووالدته بدمشق. وفي حلال تلك المدة أغمره جماعة من الأمراء وعلى أسهم قلاوون. وقد علمهم أنه يريد منهم سهواً فمضوا بهم إلى القاهرة فدخلوها، وأخذوا أنوابها في وجهه. ولكنه على الرغم من ذلك دخل المدينة وتسلل خفية إلى القلعة، وبعد أن حوصر فيها مدة أسبوع اضطر إلى التبرول من الملك والأئمة في الحراك. فكانت مدة حكمه الحادية من الجواهر المعطاة. تزيد على سنتين قبلًا

نوفمبر
١٢٧٨

مد دالب السديس قلاوون أكبر الأمراء وحرم السلطان السعيد ليتولى مقاليد الأمور. فقام بها في أول الأمر حذرًا (الملك) ومصر على ابن آخر صغير يبرس سمته سيف الدين سالمس. على أنه لم يلبث أن خالعه من الملك وتبر هو عرس مدر

(١) وجهه النسبة تقول إنه قبل ممات يبرس بضع سنوات غادر معسكره عند «أرسوف» وسافر مستخفياً إلى القاهرة ليرى سير الأحوال فيها وقد عثر كذلك طوال قامة بالقاهرة مخفياً في القلعة وقد ظن الجيش طول مدة غيابها أنه مريض في المسكر

١٢٨٠ وفي حلال سنة ١٢٨٠ هـ، تولى حرج سفر حاكم دمشق على السلطان فلاوون. وبأمره سقط على بلاد سورية. وحرب ذات فلاوون لأنه كان يخشى تخافه من أسلحه سره يبرس، وكذلك كان يحرف جمع الممول على بلاد ثم ليدو المدين كما هو يردون أن سبقت منه به من مصر كما كانت. فخر به السلطان وهزمه وبسط سبقت به من مصر ما وقع عدة. سنة على السلطان على دمشق أنه وعد الأمن إلى نصابه. أما الخارجون من أمراء مصر والشام فقد أحسن السلطان معاملتهم وأعادهم إلى مراكزهم (وكان من بين هؤلاء استقرار بعد أن أعطى عهد الولاء). ولا شك أن هذه طريقة مثلى نال بها السلطان عجة الأمراء ومناصرتهم له (١).

ولم يكد الأمر يستقر في نصابه حتى أخذت جيوش الممول تحتساح الحدود السورية ثانية مرتكبين نفس الفظائع التي ارتكبوها منذ عشرين عاماً. فأتوا في ولاية حلب من صفوف الوحشية والفساد ما اضطر الأهالي إلى الفرار نحو الجنوب. وأما أهالي دمشق فقد غلبهم المالح والرعب فهاجر منهم خلق كثير إلى مصر ليحتملوا فيها (٢).

٢١ أما فلاوون فإنه سار بجيوشه عدة مرات لطارده تلك القبائل المتوحشة، ومكافئته من قبله. وقد كانت له في سنة ١٢٨٠ هـ، فتنة في بلاد الشام المقدسة. وحينئذ كان يربقون فرصة إغارة الممول، وأخذوا يسلبون المسلمين المجاورين لهم، فهاجم السلطان غلباً بهم، ولكنهم طلبوا الأمان، فبقيهم مدة عشرة أعوام. وكذلك أبرم السلطان مهادنة مع يومئذ ملك طرابلس، إذ كان لا يزال يخشى إغارة الممول.

وفي خلال تلك الفترة ظهرت مؤامرة لاغتيال السلطان. ومن العجيب أن كشف أمرها أصدقاء فلاوون في عكا، حيث أمر المتآمرون إلى الفرقة بأمر مكيدتهم

(١) قال من بين أهالي دمشق الذين عرفوا عندهم السلطان « المؤرخ العظيم ابن خلدون » وقال شيخ قضاء المدينة « وقد أتني من قبل بصيغة سلطنة سفر

فأتين لهم أنه من لعنت أن تعاهدوا مع السلطان الذي سبيل في غريب العاجل. وذلك مما يدل على كثرة الإحتلاط بين الأمراء والفرنجية مما لم يكد يحظر بالبال. وقد اعترف المتآمرون بفعاليتهم ولتسموا الرحمة، وأنكبهم فأتوا جميعاً. وقد امتدت السممة إلى نفر من المايكات فزحوا في أعماق السجون وفر عدة مئات من أتباع أميرة يبرس إلى الممول. والحزب المتبقي لبثت لظاهر يبرس الذي أصبح يطلق عليه حزب الظاهرية صارت له مكانة ثانية في سياسة حكومة بلاد كما ستبينه بعد.

١٢٨١ ثم زار السلطان دمشق ليحتفل بتمت السلطان السعيد الذي قضى نحبه في الكرك. وحملت خنته ولدت له ذكراً بجانب وفاة والده يبرس. وفي حلال إقامته بدمشق احتضرت قبل الممول تولى بلاد سورية ثانية بقيادة « أغا » وأخيه متكرم ثم فذل فلاوون كل ما يستطيع من قوة وجمع جيشاً من المصريين والسوريين وأبدو والتركمان بجمع عدده خمسين ألف مقاتل، ثم رجع نحو حمص، فهالكة مكومت في جيش كبشته ثلثة من أهلي حوزجبا والأمن والأغريق. ودارت بين الفريقين رح معركة عنيفة كانت العاقبة فيها في يدى الأمراء الممول. ولما نأس السلطان من عدم انضمامه هو وأتباع فارس بزوطة مجرودة. عثر أن الممول أصابعاً طهره في هذا يوم يومه. من حمص إلى الأسلاب. فاصفقت سابعه من كسر السلطان وسقط مكومت من طهر حوزجبا وحرج. أما جبهة قوى الأديار وفريق سدر مدبر ومات معه من عدداً قبل كذا من حياته. وقيل من تأثير جرحه. وهناك أيضاً في السنة ١٢٨١ هـ.

ولا زالت شمر من هذا مدحاً ما سطياً في كراج البرق ومعه لأنه « وف ظر مدبر طهر المحب كما كاد يحدث. له فب من مفر في يد الممول في ديار كانت مبدل لها المسيحية تربي في مصر سورية. دما كان بعض حكماء الشرق يسمون من الأسامي كان بعد لا يخرج من بلاد الدين المسيحي. والواقع أنه يروح « بابك (٨) »

كل هذه الأمور كانت عنده في الدرجة الثانية بالنسبة لخروبه في سورية .
وكان في خدمته أكثر من اثني عشر ألف عموك من الجراكسة والمغول ؛
ومن بين هؤلاء عدد يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف كانوا نازلين بالقلمة ، ولذلك
سموا البرجية كما أسلفنا . وأطلق عليهم هذا الاسم ليميزهم من المالك البحرية .
وكانوا على وفرة عددهم على حظ كبير من حسن الساء . ولم نسمع حتى الآن
شيئاً يثبت افراطهم وعسفهم مما صعب ذكر اسمها فيما بعد من الذعر والفرع

وقد جدلة مؤرخو عصره لونه وحمله وعدله . والحق أنه جدير بهذا الحمد اذا
فرد عليه من الماطين بحسبه ؛ غير أنه كما ساهدا كان يفسو ويغدر عند ما
تدعوه الفصلحة ؛ كما كان يطرح ظهرياً أغظت اليهود والمواثيق لنيل مآربه . ومع
هذا لم يك ظمان الى سفل الدماء كيبرس ، ولكنه كان أقل منه تسامحاً مع
المسيحيين ، وقد حرمهم كل نصيب في الوظائف العامة . أما معاملته للصليبيين فكانت

سيف من لاضه وعسفة . وشده سيرة وطمة أحياناً ما ينزله من العباب في
غاية في القوة والوحشية ، فمن ذلك أنه أوثق لصاً وهو ممدود الى ظهر رجل
هذا النح من العباب سمع به كثير . ومن لطاف به في الكونية حتى
يقضى عليه . وأنه دفن نصرايماً حياً التزوجه من سلفة . أما تلك الزوجات المتعاسة
فقد حجب عنهن . على اسم من كل هذه المنعيب كان مكاناً غافلاً . حواد . محبا
الحرب . على كبر من حله ذكره . وحمل الناس نسبة تلهج بالثناء عليه ،
والاعتراف بحسن صنيعه ، هو ذلك البناء الضخم الذي شيده في المدينة ، والذي
يشمل بیمارستاناً ومدرسة تحتوي على قبة فيها قبره . وقد أعد في بیمارستان غرقاً
منسقة وفرشها بالأمرة المرضى من الفقراء والأغنياء على السواء وخاصة للنساء ،
وعين فيه محاضرين . وأوجد به معملاً كلاً يجهز بكل أنواع المعدات الطبية ،
ورتب في القبة خسين من القراء يتلون آيات الله ليلاً ونهاراً . وأنشأ بها مكتبة
للجمهور مألها بالكتب القيمة في كل فن . وعهد بها الى حفاظ . وعين بالمدرسة

علماء بمحاضرون في المذاهب الأربعة . وكان بها كذلك مكتب للأطفال ،
ومدرسة للصبيان ، وملجأ للأيتام . وأن هذا الوصف لما يذكر الأوربيين بالمعاهد
العظيمة التي يقيمونها في بلادهم اليوم

وفي هذا الوقت بدأ يدخل على فن العارة شيء من المحسنات الأجنبية فأبنت
قناره في حكم أخلافه . ولامشاحة في أن تلك المبرات وغيرها من الأعمال العامة التي
افادت البلاد كانت سبباً في تخليد اسم قلاوون في القاهرة الى يومنا هذا

ومات قلاوون وهو في السبعين من عمره . وكان من القاه « الأبي » نسبة
الى ألف الدينار هذا الثمن الكبير الذي اشترى به حين كان شاباً جليلاً (١) . وقد
ترك وراءه من الذرية ثلاثة ذكور واثنتين . ولما مات أكبر أولاده جعل وراثته
عرش لانه الثاني خليل . وفي آخر أيامه تزوج من إحدى بنات أمير من المغول هام
على وجهه حتى حضر الى مصر كعيره . فوالت له ابنته الناصري ، وسمع من
أخباره كثيراً فيما يلي

.....

(١) ويقال أنه اشترى مرتين كل مرة ألف دينار . وأنت الابن هذا بين لقائه للملكية

منه على أن المالك بدلا من أن يعطيه من أسهم الخبز كانوا يحاضرون به

فصل النخمين

السلطان خليل بن قلاوون

(١٢٩٠ - ١٢٩٣ م.)

حسن السلطان خليل على عرشه في طغيانه وسلاطه؛ وكان مع ما به من
كبر، واعادة بعضه طرف به، حكيمته، يستدات له لما ولي السلطنة ووجد
أن العهد بتوليته لم يوقع عليه والده قلاوون، إذ كان يؤثر ابنه الناصر عليه، لولا
أنه قاصر، أمر بقتل وزيره وأخبر السوء لكل أتباع والده فأبدهم عن مناصبهم
ونصب مكانهم أحدائنا من اخوانه وسفاره، وكان لا يعبأ بقتل النفس جريماً وراء
وساوسه وأوهامه، فتراه آتية بأمر يخفى أحد خصومه ثم لا يلبث أن يرضى عنه
بغيره ثم بعد ذلك، جرى، فوجد عليه بدعيه العذاب، لم يربأ أوريه
ذلك التمس موارد الهلاك، ولم يدرى إن صحيفة تاريخ هذا الكتاب منفعه تلك الفتناء،

والمعتمد له الذي يبي، وحده، سارده على إخراج الصليبيين كافة من
سورية. وقد احتفل للعمل على تنفيذ هذا الإصرار بأقامة الصلاة في قبة والده،
والمعتمد على من يبي، فبعد، ثم سارده كل دولة، به، إلى دمشق،
وطالب اليهم أن يمدوه بكل وسائل القتل لحل ما يلزم من النصارى والجنود إلى
أسوار عكا، ولما تم له ذلك حاصر المدينة ونصب حولها اثنين وتسعين متجنيقاً؛
فدافع جنودها دفاع الأبطال، وشدت أزهر النجدة التي أرسلها اليهم جزيرة
قبرس، ولكن نيران الأحقاد - وتلك آفة الصليبيين من أول أمرهم إلى نهايتهم -
التي كانت متاجرة بين أمراء الصليبيين امتد شررها واستمر أوارها، حتى في ساعتهم تلك
العصية، فألقوا من النجدة عدد عظيم، بينهم تاركين المدينة، فقطعت بعد حصار ثلاثة

١٢٩٠

١٢٩١

١٨ مايو

وأربعين يوماً؛ فأعقب سقوطها حال محزنة، إذ وقع رجال حاميتها جميعاً بين القتل
والأسر، وأخذ الأطفال والنساء إلى مصر أسارى. وقد بالغ السلطان في الفتك
بهم؛ حتى الفرسان الذين وعدوا بأن يفسح لهم طريق النجاة أمر السلطان
بقتل رقابهم جميعاً بدون رحمة (١). ثم أحرقت المدينة، ودمرت بعد أن ألبت
في أيدي الصليبيين مائة عام كاملة (٢). وعلى أثر هذا الفتح ترك الصليبيون كل
ما بقي في أيديهم من الحصون، على أن ما لا قاه أهل بيروت من اهدار دمائهم
وقبابه صبراً لا يقل قضاة عمار وقع في عكا. ولما عد السلطان خليل إلى القاهرة
ريت له المدينة حسن ربه، وافعت فيها الأفراح لاستقباله، فدخلها ومقرراً،
سوى أمامه، عوانا على طرفة، عدداً عظيمين من سري الفرنجة في الألال والإحقاد
وفي ترهم الفتناء تحمون الأعلام المسيحية مكنة، وروس أعدائهم على أسنة
رماحهم، وهكذا حتمت الحروب الصليبية العظيمة، بعد أن مضى عليها قرنين من
الزمن، كانت تستند فيها وطنياً وتنفذ؛ وقد حاد ط طول هذه المدة على كياها
بمسائل صعبة منها تلك التعاصير التي جاء بها رسول السلام، وقد حرم المورج جيوش
تلك العصية المحررة بقوله: «ساد سكان محزون على امتداد دلت الساحل الذي ظل
زماً لاطول به مبدئاً سمع فيه ففقه سيوف نصال العلم».

ولما لم يبق في سورية، سار السلطان خايلا، وحه جيوشه نحو المغول،
ولكنه قبل أن يسرع في السير على الناس في فيه ولده يثير حفيظه الدنيبة للجهاد،
ثم رجف مع جنوده الممصرين من حاس إلى قاعة أروم ففتحها، وحكم السيف في
دول حاميتها من آمن ومومن وسى ساءهم، وكسب إلى جميع ولاه، وهو نجل
لده الصبر، مسورا، به غير سم قلعة أروم باسم «قلعة الماسيين»، وأخذ يعل من
سار عنه ولاه قد قدره أن يتفحص لشرق السلطنة، من مشرق الشمس إلى

(١) وعزى ذلك إلى أن المسلمين لم يدمروا حصن أساموا إلى النساء والأطفال، فأوصد
جنود الصليبيون الأبواب ودعوا المسلمين لقتلهم، (طريق كتاب ولمان جزلة، صبعة ٢٦٥
واقتر كدات كريب وبن، ملاحظة ٤ من ١٨١ - حابة شعبة ١)

(٢) فتر، القضاء ج ٢ صبعة ٢٥

١٢٩٢

ذات إلى إضره . حرب داخله بها كانت نتيجة أن حاصر كتبها الفلقة وقفل الشحاح . وقد صفا الجو لكتبها طمح إلى كرسى السلطنة . فصادق لاجين وسيره من استركوا في المؤامرة على السلطان اساق ايلال بهو وطاره . فأتار ذات غصب ساق بيت فلاوون . لمرح جعلته يتحدرون إلى الحرب الدائر عنه . ووفدوا نار الفتنة . ونهبوا الأسواق ودور الحكومة . وغاثوا فساداً في المدينة يوماً وليلة . فكتب سرجا بهج والدمار . ثم قصص على بعض اعداءه من ساق بيت فلاوون وقطعوا أوصاله ^(١) . وفر عدد كبير من رجالهم . وقد اتخذ كتبها هذا الاضطراب وسيلة يتدرج به إلى الفعل أن تصد مبادئ الأمور في مدخل . ثم مهد سلاء البلاد . فجمع السلطان حصاره ورسل إلى أكرامه من أعمال الشام

ديسمبر
١٢٩٤

ولما استل كتبها . أرسله جيش مصر على هذا الشكل . حتى به ضعفه وقصر طارته . ثم أمر أكرام الحكومة . بأعاده وأدابه . ورفق كثيراً من مملكته إلى مرتبة الأمراء . فحصر ذات عنه فلبت الأمراء . الأفعمين . وكان من سوء حاله كذا ذات أن حب طائفة العم برياة . وهم قبيلة من هرج التار يبلغ عددها (١٨٠٠) طردوا من بلاد فارس . وأزله هو وفنتد في بلاد سور . ومع أنهم دخلوا نديغا في الدين لاسلامي . من الناس بعضهم غلبهم الوثنية وشبهه أكرام لحوم الخيل ^(٢) . وقد أصاب كتبها نفسه نصيب من المرة بالنسبة لهذا الجنس . وقوى مدته نزل بالبلاد قسط . استمر زمناً طويلاً . وأعقبه وباء . ففتح عنها بطيعة الحال يؤس وشقا وخسارة كانت التبعة فيها واقعة على السلطان ^(٣) . ولما أراد أن يسد النقص الذي حدث في إيراد البلاد طاف بجيشه في بلاد سورية وانتزع بالقوة

- (١) ذكر المفريز أن بعض هؤلاء الصبيح قطنت أبيهم وأرجلهم وألثمهم . وعنى بعضهم على أبواب المدينة . وقد جرى ذلك على نحو ثلاثة نسة
- (٢) انظر تاريخ أبي الفداء ص ٢٣ جزء ٤
- (٣) بلغ ثمن البطيعة في هذا القسط مائة درهم . ومات في القاهرة من الوباء في شهر واحد (١٧٥٠٠) نسة . ويقول ابن أبيس أن مجموع الوفيات بلغ (٧٠٠٠٠) نسة . وكانت جثث الموتى المطروحة في كل مكان تلقى في النهر وتنهشها الكلاب التي كانت تفرح وبياكلها المقبر الذين كانوا يتضورون جوعاً

من ولايتها المختلفة ما أمكنه أن يحصل به يد من المال . غير أن سوء معاملته للأمراء . رد في انصرافه عنه وسخطهم عليه . ولذا كان دهموه في " حصص " عند حروجه للصيد . فقتل من أبيهم . وهرب إلى دمشق حيث وجد أن لاجين قد ملك نفسه في البلاد وأعين سقاء عليها . فأدعاه إلى أن يشهد على نفسه بالجمع . ثم حلف بين الطائفة

بوجع لسلطان المثل المتصور حياء للمين لاجين فلما حضر أصحاب الآراء . وكان من ممالك السلطان « أيبك » ثم صار إلى السلطان قلاوون فأعقق رقبته . وأخذ يتدرج في معارج الرقي . حتى أصبح أمير . ثم ولي على سورية . ولما عد هذا السلطان إلى المعهرة قابله الناس بالحفاوة والسرور . وقدره الخليفة سلطنة البلاد وسار في ركابه . فطوف به بالمدينة المزينة . وممر الناس به لأنه لما عد ارجحه إلى البلاد رفع عن عاتقه كل الحريات القادحة التي سببها ذلك القسط ^(١) . غير أن هذا السلطان لم يلبث أن أصبح خضعا لحوذ « ميكوف » أحد مالكيه . ذات أنه لعنه نائماً على البلاد . ورفق به حتى صار هو الحاكم المتصرف في شأنها . فأخذ عامل كل من حوله يبتغي السدة والقبضة مما يمر بالناس السوءاء في البلاد

ولما رأى لاجين لخطير يتهدده من جانب حاسسته . أراد أن يتعامل به بأمان بحالة إلى بلاد زيمية وكانت الأحوال ملائمة وقتد به كان قائماً في تلك البلاد من الخلاف على واثم العرش . فضاف إلى ذلك أن عازان حاكم الفرس وحليف زيمية . كان معول اليبس لاسياكه في حرب مع أعدته في الشرق . وقد أراد ملك زيمية أن يرد هجومه إلى يلك على بلاده مسرولاً بحرية . على أن ذلك لو تم لنقص على مآرب السلطان لاجين من أفضائه عنه ونسبهم بهير الثورة الفس والطياح . ذلك سار الجاس في طريقه على زيمية . وأخطى به التخریب والنهب في البلاد

من " سيب " إلى " طه " . ثم رجع إلى سورية متعللاً بأعمالهم . ثم أرسل السلطان هذا

(١) اعطى سمر الأرذ من الفخ من ١٦٠ درهم إلى ٢٠ درهماً

ديسمبر
١٢٩٦

١٢٩٨

الجيش مرة ثانية ليستولى على معاقل معينة كان من بينها معقل « النجمة » الذى لم يسلم الا بعد حصار دام أربعين يوماً

وفى أول العام التالى يمت السلطان لاجين « قيجاق » أحد كبار امرائه على رأس جيش الى حلب حين سمع بأشاعة زحف المغول على البلاد ؛ ولكنه فى الواقع أرسل أوامر سرية يحتم فيها أن يدس السم لقبجاق وأصحابه أو أن يقضى عليهم بأية وسيلة أخرى ؛ غير أن قجاق أحس الخطر فهرب هو وأمرأوه ومالكيهم الى الفرس وكان عددهم خمسمائة ، فأكرم غازان ملك الفرس مقاتلتهم ؛ ثم أنهم أخذوا بعرونة المجدد على سورة ، وسكن آباء هذا الخزانة فى عهد السلطان التالى

على أن حكم لاجين أو بعبارة أوضح حكم منكوتغر فى البلاد ما فنى ، يثير نار حقد الأمراء وخاصة عندما وقع التقسيم الجديد فى الأملاك العامة^(١) الذى كان من شأنه نقص دخلهم السنوى

ولما بلغ السيل الزبى ، اتهم اثنين من الرعايا ، بعد أن ضاقت ذرعاً باحتلال هذه المقامات ، فرصة حرب الجانش ، وقتلوا السلطان وهو يلعب لشطرنج ليلافى قصره . وفى الحال اقتضا على منكوتغر فأودى بجنايته ، ثم وضعا مقلدات القصور فى يديهما ، ولكن ذنب يدهم عبر الالهة لهم ، إذ رجع بعددها الجيش إلى القاهرة فقتل هذين الزعيمين ؛ واستمر رأى بعد ذلك على استرجاع التاج من الكرك

وفى خلال تلك السنة كان يدير الأمور فى البلاد بحسن مؤيد من مدينة السجستان وكان لاجين جديراً بالثناء والمدح ؛ فإنه كان غودجاً حسنًا للسلم الكامل ؛ بعد تخلى خبر والماسر ، كان صدمه السجستان ثلاثة . وكانت زوجة السلطان الظاهر بيبرس . وكانت أكبر غلظة له ، أنه أفسح المجال لرقى مماليكه ، وتهاون فى سلطته ، حتى أصبح آله فى يد منكوتغر يحركها كيف يشاء . وفيما عدا ذلك كانت أخلاقه تفضل أخلاق كافة السلاطين الماديين^(٢)

(١) وكانت الأراضي مقسمة إلى أربعة وعشرين قباطة أو عشرة منها للأمراء . وعشرة للجيش ، وأربعة للسلطان وحاشيته . غير أن القسم الأخير وقع فى التقسيم الجديد بطريقة أغضبت الأمراء ورجال الجيش (اقرأ التفريرى جزء ٤ من ٣٠)

(٢) مما يدعو إلى العجب أن مؤرخى زمانه من الغربيين يقررون أن لاجين من أصل ألبانى ، ثم اعتنق الإسلام ، وهذا خرافة ، إذ لدينا من المصادر التركية ما يثبت تاريخه من وقت أن اشترى مملوكاً ، وهو على الأرجح فى سن الثامنة . وقد قال بعض المؤرخين أنه من أصل العربى

بتاريخ
١٢٩٩

افضل النبايع

عودة الناصر الى العرش للمرة الثانية

السلطان بيبرس الجاشنكير

(١٢٩٩ - ١٣١٠)

مؤرخ
١٢٩٩

عاد الناصر إلى اعتلاء الأريكة القصرية للمرة الثانية بين هتاف الناس وأفراحهم وما كان وقتئذ بلجاور أربع عشر ربيعاً ، صار به ضرورة فى قبضة ورثته ؛ فكان الأمير سلاط المنصورى نائب سلطته . والأمير بيبرس الجاشنكير رئيس قصره ؛ وكان الأخير منهما ، بحكم مركزه . صاحب النفوذ على الملك البرجية ؛ فى حين أن الأول كان له سلطان على الأمراء المسفاهين . وكان ينافس فى تربية أتباعهما واعتلاء مكائدهم مثل الملك . وقد كاد التناقص بينهما يبلغ مبلغاً عظيماً ، لولا أن سقاهما الخزانة من ناحية المغول ، وتخريبه للبلاد من جديد

وذات من المداوة لتدبيره العهد بين مصر وأواسط آسيا قد أنقضها مهاجمة سلطان لأرمينية ، وأكرام مصر من فراسهم من عضاد المغول ؛ يضاف إلى هذا استعصاف قجاق ، واجتهاد الخديين معه ، المعوم . وصلت أخبار المغول إلى مصر فى حريف ١٢٩٩ م . فرحب السلطان على رأس جيش حرار ، مبايئنا فى سيره ؛ وباد طين له أن حربه فى الطريق لتدبير مؤامرة خطيرة من رعاياه . فبيله لعربانية ، الذين نعم بربا الأمراء الباقون . لانشغال السلطان وورثته . واعدده معهم كتيبة إلى عرش مصر ؛ فكانت هذه المرة ساءة فى أنحر زحف الجيش أيضاً . وقد لقي المؤتمرون حراً فعاثوه . وسار الجانش فى طريقه . ولما علم المصريون أن غازان من سمرقند غراب على رأس جيش معولى يسير عده مائة ألف مقاتل ،

٢٣ ديسمبر

حدوا في دفعه. فاقب الحما عند «سليمه شالي حصن» وكان الجيش المصري نحو ثلث حش لغزو دحر. وولت حدود مدعورين. وقد احتاج الممول باربع من حديتهم نحو أربعة عشر ألفاً من معداتهم، كل شيء معهم. وفي ذلك الحين هجر دمشق كل من فيها من الجند والقادرين على الفرار، وأصبح من يقى فيها في دحر وجزع شديدين. غير أن غازان، لما قارب المدينة، خرج اليه وقد من كبار رجالها، فاستقبلهم استقبالاً حسناً، وطأنهم، وكف أيدي جنده عن ارتكاب البطاع. ثم أعلن الناس عهداً قرئ في جميع الأموى. وهو يكفل حربه الأهلى جميعاً حتى اليهود والنصارى. وبعد بحكمه زده في كل نحو مصر حيث انضم إلى ملك الممول^(١). وكان أبرسه من نخاع دمشق على هذا نحوه. كان ما حوالها، في الواقع جميع بلاد سورية، قد أصبح ما يحزن من سب وتخريب. وقد نصب فيها نائب معلى. وعين فيجبى. على دمشق. مكافأة له. ما فعلتها في تسليم بعد^(٢). وكان الفاهر من سير الأمور وقتئذ أن البلاد السورية أصبحت في قبضة الممول. غير أن ذلك أدى إلى انهيار سريه عمدة في البلاد أن رجعت في عظيم. ثم عاد إلى وطنه مدحبر.

وفي خلال ذلك كانت الحملة المصرية قد أثبتت سلاحها. وحملت ما عليها من الناس مسخرة، وهرب من ساحه قتال. وهي في عهه الإثبات والقوى؛ وقد مرت دمشق في ظريفة في نهضة. وقد وصل السلطان لمصير إليها وهو لا يكاد يلبس معه حديد. حدث. وفي حال مخرج. بعد عدد نحو هذا عار. شجعت الضرائب الفادحة لتجوز ما يلزم^(٣). ولم يعض شيران حتى كان الجيش

(١) ذلك هذا بعد ثلاثين سنة. وفيه كثير من الآيات القرآنية وصف في الحكومة المصرية. وفي تأمينه لليهود والنصارى اقتبس من صفات الأمام على ما مضى؛ إذا دفع أهل الدين ما يدفع عليهم. من جهة كان لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

(٢) ذلك بعد ثلاثين سنة. وفيه كثير من الآيات القرآنية وصف في الحكومة المصرية. وفي تأمينه لليهود والنصارى اقتبس من صفات الأمام على ما مضى؛ إذا دفع أهل الدين ما يدفع عليهم. من جهة كان لهم ما لنا وعليهم ما علينا.

(٣) هذه الرسالة توجد في نسخة من المخطوطات في مكتبة جامعة القاهرة. وقد تراث قبة لبيار من ٢٥٥ م. وفي ١١ دهره ٦٠٠. وكان السعر ثمن عند ٢٠ درهم.

في طريقه لافاذ سور. به من يد اعدو. يد الممول كانوا قد حوا عن البلاد. فدخلت الجيود المصرية دمشق ثانية. وسلمت على كل نحو سورية. من غير حرب ولا قتال؛ وعفا السلطان عن فوجي ومن معه من الفارس. ما دمسق وأحدث معنى ألوس العذاب من ساداته المصريين. ما دمسق آمن تحف فيها من السكان وكانوا يؤادون الممول شرائقهم. وقد استمرت المدينة في فزع ووجل؛ لأن غازان توعدهم بالعود إلى سورية في فصل الحريف، ولأن المصريين ألقوا كأهل البلاد بصادح الضرائب.

على أن غزال لم يبدأ يرحل غرباً على البلاد السورية إلا في قلب الشتاء. وكان البرد فارساً، فخرج أدراجه بعد هجومه على نطاكب؛ وكان إلى هذه اللحظة يؤمل، كما فعل أسلافه من قبله، أن يساعد الدول المسيحية (مع أنه مسلم) في انتزاع سورية من قبضة الميت. وقد عين أوفد المماليك تُرس إلى بلاد الخبارة مايو ١٣٠١ وفارساً حتى عام ١٣٠٢. ولا تزال إلى الآن رساله من سلالته في الخبارة تسكو فيها من لشكوى من تخاصم العرجين عن مؤازرته^(١). ولما ناس حيزاً من مصرية أخرى له. رأى أن يهدد مصر. فبذل وقد يحمل. سالة غاب فيها السلطان لهجومه على مملكة من حيز سبب ثم توعد الانضمام إذا لم يقبل التسويط التي عرضها عليه. فكان رد النصر من حسن رساله انه على ما ارتكبه. وودو حذاده اليونان. ووبخه نخاعه مع دول أور. التي حاد الحليفة ودية. وعلى ارسه مما في ارساله من لبيد ولعيد. قد حمت مصرية تؤكد مهران. انه اذا حلف من علوانه وتزل عن سطرسه فإنه ينجح السلطان على نده الأبهة المبول مصادفته ومصادفته^(٢). وما وصلت هذه رسالة التي لم تزل في كتبهم ابرويه وانقل. إلى

(١) طابع M. Remusat in Mem. de l'Acad. Vol. VII, Page 388. حيث نجد جواب الملك إدوارد المؤرخ ١٢ من مارس عام ١٣٠٢ م. وكانت لا تزال في تلك البلاد روح سلبية؛ وكانت سيدات جنوة متأهيات للاشتراك في المشروع (٢) هذه الرسالة توجد في نسخة من المخطوطات في مكتبة جامعة القاهرة. وقد تراث قبة لبيار وهي مئة في قرأتها. وفيه كثير من الآيات القرآنية الشريفة.

غازان، عقد العزم على اضرام نار الحرب؛ ولكنه رأى في الوقت نفسه أن يمد أجل السلام عاماً آخر

فبراير ١٢٠٢ وقد استغذت مصر من تلك الفترة التي ساد فيها السلام بينها وبين غازان؛ إذ دبرت حملة على البدو الذين قاموا في وجه الحكومة وأقاموا لأنفسهم حكومة مستقلة، وألقوا الصعبدكة، وأدوا سكانه. وقد تولى قيادة الجيش «سلار» و«بيبرس» بأنفسهما، فقدم الجيش إلى ثلاث فرق، أخذت العدو من كل جانب، واعلمت فيه السيف بلا رحمة، فهلك كل مقاتلة الأعراب، وسببت نكاحاً

وفي مايو سببت حملة أخرى لمقاومة الأرمين على ما قاموا به من مساعدة المغول. زحفت هذه الحملة نحو «سرس» عاصمة ملكهم فخرت تلك البلاد النعمة ثانية. وبعد

هذا الحادث برز من بيبرس، جيز السلطان أسطولا وسيروا على الصليبيين الهيكليين الذين كانوا لا يزالون مستوحذين على جزيرة أرواد ففزا الشاطئ واستولى على

الجزيرة. وفي سنة ١٢٠٣ م. زحف المغول على بلاد سورية في جميع التي

من جنود الحرب الصليبية المعاني

وفي عام ١٣٠٣ م. زحف المغول بمجموعهم على بلاد سورية في جميع التي

هددها به. وفي سنة ١٢٠٣ م. زحف المغول على بلاد سورية في جميع التي

من قدر على الفرار^(١) وفي مساء تلك الليلة التي زحفوا فيها التفت مجموعهم بمجموع

المغول في سهل «مرج الصفر» وكان عدد المغول ومن انضم إليهم من الأرمين وجنود

حورنيا مائة ألف مقاتل

(١) كان القهر من غزوهم المغول عظيماً جداً أن بعض الأهليين كانوا يقدمون ٥٠٠

الى ١٠٠٠ دينار ثمناً لاي عطية يتكلم الحرب عليها وقد ترك بعض الناس أسرهم واعتصموا بالقلعة

وفي اليوم التالي دارت رحا الحرب وقد كان يظهر في بادئ الأمر أن الهزيمة ستكون على المصر بين لأن جناح جيشهم الأيمن كسر وولى جنوده لا يلوون على شيء؛ أما سائر الجيش فثبت للصدد واكتسح أمامه جموعه المحتشدة بعد أن أعمل فيهم السيف تقشيراً وتذبيحاً. وفي اليوم التالي ركضوا الى الفرار بعد أن بلغ منهم الجهد وتجهوا نحو الصحراء^(١) متكبدين خيائراً فادحة. وبعد هذا الظفر رجع السامر الى دمشق وأقام بها ثلاثة أشهر وأرسل الى عدائ رسالة تصارح رسالة أظاھر بيبرس الى «يومد» في روعه «فاظ الفخر والتهديد والتوعد» حتى آسبأ من أفضاه الى أفضاه. ولما اعتزم العودة الى القاهرة كان الفرج غاملاً وأقيمت له عرسات على حسب عاد السرق فطرت الطرق بأبسط حتى ان حافر حواد السامر لم يمس دية الأرض وقد دخل العاصمة في محفل ذير منه من قبل^(٢)

١٢٠٣ في بلاد الفرس فكانت الحال على عكس ذلك فقد دام العويل والحزن في «بيبرس» عدة أسابيع ولما أمضى غداً الحزن استمر لعاد ولم يعب عنه مدة ثم عاد خمس حسداً آملاً أن قد ليه نور. بالمساعدة في الهجوم على سورية

بأنه يمكن الميعة لحله قبل أن يخرج مسترغمة الى حير عمل. وقد كان حاكماً حديد السدة بدلاً بفصل كل الدواب (الحايات). وفي مدته بلغت قوة المغول في

الفرس وح ساقطها من أن حال داحية البلاد وحديثة حرب من الاضطراب بعد الفرس من ادخيمات التي كانت توجه ليه من هذه ناحية

وفي حال السنين كنيست عاد المغول و في حوروا الأرمين نفس في عصر ١٢٠٤ - ١٢٠٥

زحمتهم على ما سبقتهم المغول في الحرب الا انهم لم يهتدوا كالمعتاد وسملوا الجند على حصن «الحدود» ووجد ردمهم السيف في مكان من كان فيه

(١) كان من بين أبطال هذه الموقعة «الملك» من الثقات وهما الملك «عبد» في هذا التاريخ

عليهم أبو العلاء والوزير

(٢) الادهة الأبراج «الملك» وبنو «مقر» في أن «موسى» وطول البلاد وعرضها كانت على درجة عظيمة من الآسراف و«يومد» حتى أن «ارسل» كانوا يودون «أسلمهم» «الملك» «يومد» على «يومد»

روح المالك (١٠)

وفي غضون السنوات القليلة التي تلت هذه الحوادث شجر بين حزب السار وحزب عدوه يبيرس خلاف شديد طالما هدد بوقوع حرب عليهما بينهما. وفي أثناء هذه المشاحنات سير السلطان حملة إلى بلاد الهن لامتاعها عن دفع الجزية فاجتهد السار في أن تكون قيادة الحملة بيده، ظاناً أنه ينال بذلك الفوز الأسمى في البلاد، ففطن لذلك يبيرس وأجبت مسعاه فخابت آمال السار. ولم يكن السلطان الناصر وقتئذ محروماً كل سلطة في إدارة شؤون البلاد فقط بل كان في كثير من الأمور يترك سعيه لا عاب حتى يكاد يموت. وتوقع أن حال السلطان وتدهور عودته ساءت أحد الوزراء. فعده له شيئاً من المال هدية لأرواحه فأحس ذلك السار. ورفض على الوزير وعذبه عذاباً شديداً حتى مضى نحوه. على أن السار في خلال كل تلك المدة كان يجمع القناطير المغطاة من المال نفسه؛ ولما خرج مرة إلى الحج، أتى كل ما أحضره من مال عن سحابة هناك ابتغاء انتصهه. ولما قارب الناصر من الرجولة أخذ يحس ما هو فيه من الازدراء؛ فشرع يعمل على التخلص من وظيفته، فقام هو وحاكم القلعة الذي كان يسكنه فيها بالقبض عليهما **غير أن أمرهما كشف قبل تنفيذه**، وأولئك ذلك يكون خطراً على السلطان الفتي، **ولذلك أنقذت مظهره عظيمه لتأييده**. ومع هذا فقد أجبر على أن يتابعه المتصنفين **كثيره كثيرة وأفضحت حاله أسوأ مما كانت عليه**

١٣٠٩ وقد خصه بهذه المبالغة القاسية حولاً آخر، كان فيه أشبه بالبعد منه بالحكم. ولما لم يبق في قوس صبره مخرج توجه تلقاء مكة متظاهراً بأداء فريضة الحج التي لا يمكن أن ينكرها أحد عليه، أو يمنعه منها. وعند ما بلغ أنكره أرسل إلى يبيرس يحتفلوا «بميد الزحف» جهاراً ولا يستمعوا للتواقيع في كنائسهم أو يحاولوا بأية طريقة رد أي مسلم عن دينه. وكذلك أمر عليهم أن يتقدموا بعيداً من المساجد أو أبرسيهم أو يكون في حياتهم شيء ما يوقع غيرة للمسلمين. وإذا دعوا إلى الحفلات الدعوية وجب عليهم أن يلقوا في رقابهم إبراساً. وكان محروماً عليهم نقش كتات عربية أو خوانهم أو شعار الأمم القرآن وكان عليهم أن لا يتخللوا من الدجال المسجون ملائمة. وإذا تمت أي واحدة منهم بأمرأة مسلمة كان جزاؤه القتل.

وم يفتخر هذا الرسول في الكرك ولشرك دوله سائر بلاد الدولة وذلك لثة عدد المسجونين وهما

من زعماء الأورمن الذين كانوا يحمون دماره ولم ينج منهم إلا واحداً اعتنق الاسلام ثم عاد السلام إلى نصابه بعد أن دفع أمير «سيس» كل ما كان متأخراً على البلاد من الجزية. وكذلك سير السلطان حملة على البروز في معقلهم الجبلي في كسرلوان (١) وفي غضون تلك المدة أصدر السلطان قوانين صارمة ضد اليهود والمسيحيين ويزعم صدورهما إلى سبب لم يكن في الحسبان ذلك لأن حكومة أرغون أرسلت وفد إلى سلطان مصر تطلب إليه أن يسمح بفتح بعض كنائس خاصة وبأن أمير مسيحي فأجاب السلطان المنتمس، ولكن حينما كان الوفد عائداً إلى الاسكندرية أبحر منها، في انتظار أن يجد عليه هذا الأمير وأرسل يسد رجعة؛ فلم يكن لأساس يرفض أن يحده معهم أسلحة ليس جاء من ماهرة فأوعر هذا العمل صدورهم فصرحوا على المسيحيين. وأرسلواهم وعلمهم في أسيرة على الزعماء قديمة دولهم. من الاسكندرية على أنه كيف معدتهم عند هذا الحد في مخرجهم نسبة من لا يند. منهم ثلاثة. ولم يكن ذلك بعض الظلم من يبيرس فقط بل سار عليه. معدوم من كل وظائف حكومية وعمله وسدد عليهم في عيشة. كان يبيعهم. كبريت يديهم. وهكذا. سيد من صوامع «يهود» وبيع النصارى منذ ظهور الاسلام؛ وقد كتب مرسوم بذلك ونشر في كل أصقاع الدولة من الفرات إلى التوبة. وقد اشتد بهم الحال وضاعت عليهم الخوض في حوت فل تحده الله محضاً إلى المحنة أو التدخل في اسلاهم. وكثير منهم من مصر. كان من هذه البرية كعادته في دفعه لم يست في صدى دوله. الأهل. من يجره. من صده. غايه كات جدر يهده هولا. أيضاً كين من حين إلى حين (٢)

(١) بين طرابلس ودمشق

(٢) ربما كان من اللبب ذكر الرسوم بإيجاز: كان حشاً على اليهود أن يلبس عامة صفراء. وربما كان عامة زرقاء حتى تمكن من كشفهم. تعدد الظن في ذلك. أما سؤدهم فكان يلبس هذه صفراء. من صده. من يجره. من صده. غايه كات جدر يهده هولا. أيضاً كين من حين إلى حين (٢)

سقف المنازل ، يشاهدوا منها ذلك الموكب الفخم ، ولما أحس « أقوش » نائب دمشق ، أن الناصر قد اقترب من عاصمته ، فرهاًرباً ؛ ولكن الناصر أرسل اليه رسالة بالعمو ، ووثق له فيها الأيمان بصفحة الجليل عنه ، فرجع وقدم للسلطان الهدايا من الجياد والابل والكنوز الثمينة . وقد أخذ الأمراء الآخرون يظهرون ولاءهم كذلك فالتهاط على السلطان الهدايا من كل حذب وصوب من جميع أصقاع دولته أما يبرس فإنه لما رأى أن كل من كان حوله قد نبذوه ، ولما هارباً الى السويس ومنها أرسل الى الناصر يضرع اليه ويطلب منه العفو ؛ فأجاب الناصر ملتمسه ، وزاد بأن وعده بقطيعة في سورية ، لأن الناصر كان لا يزال يخشى أن يلقى معارضة في حاضرة ملكه . ولما علم يبرس بعفو السلطان ووعده الجليل رجع إلى غزة ، غير أنه - كما سيأتي بعد - أودع السجن هناك . وهكذا ختم حكمه الناصر الذي لم يجاوز العام إلا قليلاً

١٣١٠

الفصل الثامن

﴿ عودة الناصر للملك للمرة الثالثة ﴾

(١٣١٠ - ١٣٤١ م)

صار الناصر من ذلك الوقت صاحب السلطة المطلقة في البلاد ، لا يتنازع فيها مارس ١٣١٠ متنازع ؛ ولم يلبث أن ظهرت فيه أقيح الحاصل التي كان يتصف بها قومه ، فظهر ما كان كامناً في حنقه من الحقد والبصوة وسوء الخلق والجنح . ولما ذهب عنه الرجوع واطمأن خطره . بدأ نعيه من قبل الأهلين اليه ، وحجبه له ، في حاضرة ملكه ، أخذ بعض بني الندم . على ما اظهره من الهين والسماع مع يبرس . وأمر أن يؤتى به مصفداً . ولما مثل بين يديه . أتبه على ما كان يعامله به من الشح والتفتير في السنين الماضية ، إذ قال له : « اذكر حين طلبت اليك دت مرة مرة بحجرة فأحببت وماذا يفعل بها » . فبريد أن يمدني عشرين مرز في اليوم . . وعلى الرغم من اعتراف يبرس بكل ما قلى السلطان فاه استرح . ولكن صلت عليه الشياط . وحمل الى حجرة الموت فوضع في وسطه الجبل ، ولما بلغت وجه التراقي أمر السلطان فأت حاشقه . وبعد من اسبغه لوما ونفر ما أمر تخفقه على مسجده مه ؛ والى حنقه في حظيرة . واستولى سلطان على كل أمتعه وورع مما يملك بين الأمراء . ثم سار . فنه على الرجوع من معاصده للسلطان . ومصادفته له . فلما يكن سوء معاصره أقبل من مدبر يبرس . فحاله رحب بالناصر . واستقبله بكل مظاهر مرح . وسور ومباس الهدايا . فبر أن حنقه كان امراً أبست فيه من قبل . وحل لي وقت مناسب . وكان سار . وفنته قد عت . أت على « الله لك » إجابة للمتمسه . وهو مدني بالناصر كيف هذا مه في الحاصل من حرب يبرس الذي كان يخشاه . فأت في قبل الكثيرين منه حل مدخله ومهودة . ولما حل له الجو . وكان قد حل

فصل الخريف. أرسل رسولاً لأخضر سالي. فسمع ناعته بالخبر، وحرصه على
الفرار إلى بلاد اليمن، ولكنه لم يرد. حتى دعوه الساطن. وعلى أثر وصوله إلى
القاهرة، طرح في السجن وجعلوا ينادون حتى مات بعد سبعة عشرين. وكان حاكماً رفيع
الدين. سمعته كريمة. بدلاً من ذلك ثروة التي جمعها. مات على مصر. من
كبره مذهب. ومن الجواهر والعبد. والخل اسمه. في حين أنه لم يجر للبحر
لأنه لم يرد. ساء له لاستيلاء بيده الحالة الأخيرة^(١)

هذا الكتاب يروي قصة حاكم كثير من حوله من الأمور. أصبحت
معدود. وعلى غفلة من تحصيله كنهه. وجدده. تراه قد استعمل
حليته. ساءه. وقدره. حليته في معونه. حرب قوى. تمر على حلقه من العرش.
يخلص من أمة. فممن المؤمنين من مية. عند عن بعضهم. وفي
آخرين. ولم يقتل منهم واحداً. أما « قرة سقر » التي كانت له عنده أيام بضاء.
فما له على عكس ذلك. طامع بما لا يستحق من المجد والكرامه. وقد أراد أن
يخضع على يد ربه في ليلة ساءه. ولكن قره سقر عرف الحق الذي نصب
له. فممنه من ذلك. سمردين إلى بلاد اليمن. ثم مات.
وحرصه على ساءه. على ساءه. وساءه. ساطن مهاب حرج السعد. ساءه
فوجد العدو قد رجع أذواجه. فذهب إلى الكرك. ومن ثم ذهب لمحج البيت الحرام.
وفي غضون السنة أو السنتين التاليتين. أرسل السطان تغلات على بلاد الأرمق.

١٢١٢

١٢١٣

(١) كان سالي رسولاً إلى أخضر سالي. وسمع ناعته بالخبر. وحرصه على
الفرار إلى بلاد اليمن. ولكنه لم يرد. حتى دعوه الساطن. وعلى أثر وصوله إلى
القاهرة. طرح في السجن. وجعلوا ينادون حتى مات بعد سبعة عشرين. وكان
حاكماً رفيع الدين. سمعته كريمة. بدلاً من ذلك ثروة التي جمعها. مات على مصر.
من كبره مذهب. ومن الجواهر والعبد. والخل اسمه. في حين أنه لم يجر للبحر
لأنه لم يرد. ساء له لاستيلاء بيده الحالة الأخيرة.

التعنه. وحضرته عساكره « ماطيه » وعلى الزعم من تسليم المدينة. قال الجنود
أطلقوا فيها يد الحرب وأجبت وسبوا كل من فيها من المسيحيين^(١)

وعلى الزعم من عده استأثرت حنود. وبجانبه مع مصر في حرب فعلية. فله لما
اعتنى مذهب الشيعة وتعامل فيه. عمل على سره في الجهات الغربية. وكان
كأسلافه يطلع في الاستيلاء على سوايه. وقصر به. فأرسل بعثاً إلى النابا
وحكومتها. وور. كما فعل « ع. ن. من قبل. ساءه في الاستيلاء على سوايه.
تأته ومطافيه مصر الزعم. ولكن عونه لم يبق في ور. ولم يسفر عماله عن
« بيحه »^(٢). ثم رجع إلى « أو سعيد » إلى مذهب السنيين. ولما رأى أنه معلول اليدين
في حرب مع قسطنطين الأثينا. وكان يخاف على تقوية بلاده المجاورة لبلاد السورية.
رأى أنه من الحكمة وأمنه أن يرى أن يخطب ود مصر. فصادف ذلك هو في
نفس الناصر. إذ كان لا يريد أن يرى البلاط لمعه إلى مآوى البحر. حين عليه من
« بيحه » فقد صلحاً بينه وبين أبي سعيد. ولقد غطاه من المبادفة
« المصادفة » حتى اعترف كل منهما برأية الآخر في الحق. وبما يدل كذلك على تبادل
الحجة وحسن علائق بين الدولتين. ما تركه ساطن مصر من قبل « طوطش »
أحد حصة العمل وقد استجده قنجره. وسكنه القاهرة مدة. ولما أرسلت رأسه
إلى أبي سعيد. وعدد أرسل قره سقر. وكان الناصر قد حاول قتله من زمن
طه. وماجد من قره سقر. هند مده إلى ساطن رأى أن عليه لم يسف.

(١) كان أبو الفداء يصره هذا الحصار. وقد حاول غشاً عليه الجنود عن ارتكاب القتل.
والليل يقتضيه هدية. وكان أبو الفداء وقتئذ بالحدود مع مصر من أصدقاء. وقد أتى أسيرين
وجدهم صاهراً. فصار « أبي قره سقر » من أجزء. وقد ذكر أبو الفداء أنه اعتقل في
الكرامة. وقد سمع عنه بعد ذلك. فلا بد من أنه لا يزال فيها مبيت.

(٢) وقد ذكره الزعماني. pp. 389 et seq. Mem. de l'acad. des inscript. أن رسالة إلى هات الحيل يرجع تاريخها
تقريباً إلى سنة ١٢١٣. أما الثالث من ذلك إلى أن حلة في سنة ١٢١٤. وقد ذكر في
سنة ١٢١٣. وقد أظهر من ذلك في الأحياء إلى أنه خرج أسير المذاهب. وكذلك حدث
سأله في ذلك. فممنه من أبي الفداء عنه. وقد ثبت رسائل هذا الحصار التي كان
تاريخها المذكور (١١١)

- وقد امتد سلطانه غربا في شمال أفريقيا ؛ كما امتد في غيرها من الجهات الأخرى . ١٣٠٨
- وقد بقي حاكم طرابلس مدة طويلة يعين من قبله ؛ وصارت اليه تونس مدة بوزارة مصر له ، ثم أخرج منها أخيراً . أما في بلاد العرب السعيدة ، فكان السلطان يتدخل بين أمرائها في منازعاتهم ، رجا أن تكون له ضلع في إدارة شئونها الداخلية وفي تجارة الشرق ؛ ولكن جيشه قوبل بمقاولة عنادية ، واضطر الى التفرق في الصحراء ، فكبد المشاق ؛ وحات به الحسائر .
- هذا موجز لسياسة الناصر الخارجية ؛ وما رأيناه فيه من النجاح بوجه عام ، يدل على أن الناصر لم يكن بالقائد الحربي ؛ فكان نبوغه كان في ميدان السياسة لا في ميدان القتال . ولقد كان طموحا الى العلاء ؛ غير أنه لم يسلط في كل أعماله سبيل الأمانة والعدل والاستقامة .
- وكانت تدور بينه وبين الممالك المجاورة له الرسائل والمكاتبات . فقد أرسل ابن طغرلن أمير طور الهند وفدين ، يطلب اليه المساعدة على القول . وكان بين مصر وحكومة بوزنطية علائق سياسية استلزمت أن تكون لثوابتها بينهما وطبق ، فكان تحالف بينهما . حتى قد طرد من مصر . وقد طلب من ابن طغرلن أن يعامل رعاياه النصارى برفق مقابل معاملة المسلمين البارزين في القبرية بثلث ثلثي المعاملة . وجاءت كذلك وفود من فرنسا وغيرها ترضى الى هذا القرض . وقد تقال بعضهم اذ طلب الى السلطان إعادة بيت المقدس الى الصليبيين ، ولما لم يوفق لهم على ثمر ينزل فيه الحجاج ، فرض الناصر هذا الطلب بفضض شديد .
- وكان الناصر يعمل جهده في نصفه المسلمين ، واقامة العدل فيهم ؛ على ان حالتهم وقتئذ ، لم تكن تدعو الى حلد من أو الحقد عليهم . وقد سمى من زمن بعيد في السباح لم يلبس عمامة بيضاء ان أرادوا ذلك ولكن ذهبت مساعيه ادراج الرياح وفي عام ١٣١٤ وقع حادث مشؤم آثار عواطف الذين كانوا متحيزين للوثوب على المسلمين وذلك أن المسلمين استعاروا بسطا ومصاييح من أحد المساجد ١٣١٤

- للاحتفال بعيدهم ، فقام أحد المتعصبين وعصبة له ، وهاجم المسلمين وهم يتعبدون وخرب كنائسهم . فلما علم السلطان بذلك حث على هذا المتعصب ، وهدده بقطع سببه . ثم هدأ حياء سورة عصفه وصرف الجنى بعد من حذر عوده الى مثل ذلك العمل ؛ على أن كان محمود الخولايا النصارى أصبح منهم فوسوسوا فيهم . فاذنوا له بعض نفع حين حتى عمدهم من المصلحة في ارفق الذي كان يعمل به المسيحيون . ومع ما بذل من الجهود في تهدئة ديث اندهر . حثرت النصارى نحو ستين كنيسة . وسب على ترذات حريق في المدينة . ثم اندلع اللهب في كثير من أحيائها . فسطح ديات الأهلين على المسلمين لأنهم طابوا أن يضادواهم مسعروا ثلث ليل . وحدثهم بأعذاب حتى حلوا معهم على الاعتراف بأنهم هم الفاعلون . أما الناصر وورثوه فقد وقفوا موقفا جيدا يذكر لهم . واحصوا الخطار متصيرين للحق ؛ ولكنهم حين أحفوا في صد هذا التيار الحارف لم يروا بدا من تنفيذ القوانين بكل صرامة . وقد ساءت حال المسلمين اذ ذلك ، حتى أنه لم يجسر واحد منهم على خروج من بيته الا اذا ارتدى رداء اليهود الأذقر . وقد هاجم جماعة من المماليك وزير كان اتحل الاسلام حديثا ، طاب أن يموله لم نزل مسيحية وفي هذا طهر الناصر أيضا بمظاهر التباين وأرجع الماسحين الى الفانون . مما يدل على وقوف الناصر موقف المتصنف أنه بعد هذا الحادث يرسم بغير انفس في دمشق أحد ضحوفين المتعصبين على «اموس» (كنيسة مسيحية وقطعة ارض) (١) عند . رأى أحد المماسين يمثل يده ؛ فامر السلطان سبعة وعليقه على باب المدينة غير مثال ضريح النيس وحداسته تجلبسه . وكذلك ابقى السلطان . فأنقضى من ثياب والعمره (٢) . على راحة . فورة حاضرة في الإسكندرية . وقد حدث في دمشق (١) وهذا يرهان عزمي على أن الفوريين اني كانت تتسلم صد المسلمين كانت دائما تترك في زوايا الأهل .
- (٢) وسب ذلك عرب في ناء ؛ سنة أن رسولا من الفسطاطية قال يسبح لفضاض مع جم غفير من الناس . وسيد ذكر الى من في العديري عليه الا هذا الرسول فاه في صامتاء فقد اجمع عند ذلك على كل للمسيحيين ، وعودي في المكان

لاقامة العرس فيها، ولكن كانت دسائس القدر والحياة، في أثناء تلك المدة، قد وجدت مرتعاً خصيباً في قلب السلطان، وشعر تنكير أيضاً بدنو أجله. ولما ساء ظن السلطان ببنائه، وخاف أن يشق عليه عصا الطاعة، سير اليه قوة القبض عليه في دمشق. ولقد كاد يطير فرحاً حينما سمع أن فريسة آتية اليه متكيلة بالسلاسل والاغلال حتى أمر بنشر ذلك الخبر السار. ولما حضر تنكير إلى القاهرة على تلك الحال بدأ وزراء الدولة يحققون معه. فأجاب عن نفسه بما يبيض صحيفته، ودحض كل ما وجه اليه من التهم حتى طلب المحققون إلى السلطان أن يسمح له بقضاء بقية حياته في هدو وسكينة، ولكن طلبهم لم يجد من السلطان أذناً مصغية؛ فأرسل ذلك التمس الذي هو موضع حقه إلى الاسكندرية حيث أذيق أوثاناً من العذاب، كي يعترف بأسماء من يظن أنهم معه من المجرمين، ويظهر ما يخفيه من الكنوز والثقات؛ ثم قتل مع كثيرين من الأمراء الذين كانوا موضع محبته وثقته. وقد كان ما تركه تنكير، والذين قتلوا معه من الأموال عظيماً، مما جعل الناصر يقبل مع الارتياح ما تجاسر به بعضهم من توجيه اللوم اليه على معاملة تنكير القاسية^(١). وكذلك كان يعامل كل أمير ظن به خطر عليه. وبعد في طول البلاد وعرضها، كان تسحق كل هؤلاء الخصال في جمع الأموال ثم ينقض عليهم في الوقت المناسب لأية تهمة أو وشاية قبيحة يروجها. وكان حينئذ يعي مدبره عدد كبير من الخوفاة الذين كان يثق بهم، وكان معهم من محبته، وكان في ذلك لدى تراه فيه موعود.

وقد أزعج عن كاهل الناس الضرائب المرهقة وقضى على اقطاعات الأمراء التي كانت تسمى من دسائس الحكومة. وسحق دأري مصرية. وأعدم نظري مصروفات دواوين الحكومة. فكان كل هذا من الإصلاحات المفيدة في تلك

(١) ذكر ويل القصص مع تطويل بل بلغ نحو إحدى عشر صحيفة ولكنها تفسر أحوال الناس وتبين حالة مصره

الأيام. ولما تكثرت البلاد بخطط شديد حلت ليهي المال من بلاد سورية وحتم على الأغنياء أن يسبقوا في منحهم من حلال ما سحر محدود؛ وهذه طريقتهم سهبت هامة الدس الحصول على قلوبهم بدون سحر كبير. ومن خفت في ذاتها البلاد الاقتصادية

أعمال الناس عامة التي كثرت في طول البلاد وعرضها فأنهم ربما ما اتفق عليها من المذبح الباطل، وما سحر فيها من الأهلين مما أودى بحياة الكثيرين منهم رادب في ذات البلاد وفلاحها وترونها في حسن رؤوس حاضرة الملك وبهتهم وراحة السكان وورعهم. وما يدل على ذلك تلك البرقة السريعة الممتدة من «قوة» إلى الاسكندرية (ترعة الحمودية الآن) فقام فصلا على أنها فحمت طريقاً تجارياً ما بين سحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر فقد صيرت الأراضي الفالحة التي على ضفتيها حرة خضر. أهله بالسكان وواردين ساطباً بالقصور الباذخة. والخدماني نصرة. وكذلك أشطر الطرق في جميع أنحاء البلاد ولا سيما السد الذي قام على لصفه لتجني للبلد. فمما دلل ذلك طرق المواصلات وحي البلاد من طبعين ما. الفيض. وسيد القصور شاهقة خرج لطلعه ود حبيب لأرواه وحطابه. ولولادة نفس يذكر من ذلك العصر لأني سالت المذكر (والعالمه البيضاء) التي سيدة على خط القصر المسمى بهذا الاسم في دمشق وقد حسب اليه المبدسين وانتسب من سورية. وروى بعد تفريح من سالت فقام احتفالاً في أول الأوامر الملكة. ولا يقل ما سدد هذا سلطان العليم من الماسحيد عن ثلاثين عدداً ما قامه من القصر عامه والخدماء والمدارس. ولا يزال اسمه إلى وقت هذا مع ما على بعض أحرار جميع البلاد^(١) وعبره من معنى مديته. وكذلك لا تزال آثاره الجليله باقية من حجر ورجل وحنس عليهم غرس ديميه وكناه حبله وغير ذلك من مقاعد وثبات ديميه وتحب وطراف سيد القصر مدوي الهي في عساعة التي مر فيها

(١) ولا تزال تروى هذا الجاهل إلى الآن من الروايات التي أخذت من كتبها مذكاة تاريخ الخديك (١٢)

المصريون إذ ذاك وبخاصة ما عرفوه من جولهم من الأم فأكسبت الناصر محمد بن قلاوون شيئاً كان به خير من عرف من الحكام في حاضرة البلاد . على أن عنايته لم تكن مقصورة على القاهرة بل تعدتها إلى أمبات المدن السورية ومكة ، وعمل ما يلزم لتزيين المباني العامة وتقدمها . وبما هو جدير بالذكر للدلالة على ما كان يبذل من المال عن سعة وسخاء على المباني ، سواء أكان المال من خزنة الحكومة أم مال الأفراد ، أن أكبر وزيرين للسلطان (ونسمع عنهما كثيراً فيما يلي) ، كانا يتنافسان في سخامة وخماهة ما يبنيان ، التي لا تزال ضايفها حافظة لاستيحاء إلى يوم هذا ^(١) . ولا بد أن يكون هذا البذل والامراف قد زاد في الأعباء التي كان يتنب منها الأهليون قسراً وعمداً ؛ ولست الأمر اقتصر على ذلك بل تعداه إلى ائثال كاهل الناس بما كان يتفق على وليجة الملك من الأموال الكثيرة التي قد يحسبها الانسان حديث خرافة لولا ما رواه المؤرخون في ذلك العصر . فقد روى أن السلطان كانت تعد له في طريقه لاداء فريضة الحج مائة وسط حديقة مصنوعة ، في كل صحراء العرب ، وعليها الفاكهة والزهور . وقد انفتحت إحدى زواجره في سفره نصف مائات الحج نحو مائة ألف دينار . وقد اتفق في زواج كل من بناته نحو ثمانمائة ألف دينار . وكان زواج ابنه في احتفال يدل على أبهة الملك وعظيمة السلطان فأشعل في القصر ثلاثة آلاف مصباح . وقدموا الأشراف ومهمهم بمالكهم

(١) جاء فيها دونه البنة الاثرية الفرنسية ، كثير من الأشياء الشقية من هذه الآثار القديمة ومن المباني التي خلفها الناصر في القلعة . ويمكن الحصول على صور جيدة جداً لهذه المباني والنقوش والنقوش من Tome VI. 4th. Fascicule مثل صور الجامع والديوان وباب القلعة وغيره مما عليه اسم الناصر . وفي صحيفة Tome XIX ٨٦ توجد ثلاثة نقوش على حيطان القلعة من جهة باب صلاح الدين كلها في مدح الناصر ومفاخره . وجاء في Tome III ص ٦٠ و ص ١٠١ ملاحظات شقية منها واحدة من الباب الأخضر : باب الزمرد ، وهو قصر ابنة السلطان التي تزوجها قوصون . وبما هو جدير بالذكر أنه لا تزال بقايا من قصر بيسان الذي اشتره هذا الأمير ومن قصر الجبل وقصر بشتاك وعليه اسم منظره . وهذا هما الوزيران اللذان ذكرنا سابقاً (Troisième Fascicule pp. 60, 100 et seq.) انظر كذلك الصور الجيدة التي في (دليل دار الآثار العربية) تأليف ما كس هرز ، بالقاهرة

يحملون المصديح بأنفسهم وقد استغرق ذلك هرباً من الليل . ثم اجتمع نساء الأمراء في نقاعة الكبيرة وميرت كل منهن أماء اعروس حابه ابرس ومعدمة يده هدية العرس . ثم وقف صفوها (وذلك في نى المؤلف بحاف مألوف في الشرف) وأخذن يرففن ويفرن بالدف وبعض مائة وكان النصر معهما بالحيل وكل أنواع الحيل والقفور في افضائها هي وصفور لصيد مغاير . هظه . والحى أنه كان يبذل من سمه في كل ما كان يروقه ^(٢) . أو تميل إليه نفسه

وكان النصر في وسط تلك الابهة والعظمة لا يميل إلى ابحرف في سمه . وكان قصير القامة ، على عيه نظفه . أعرج لا تثنى الامتوكتنا على عقب أو حده . وقد ترك كل ما يتحلى به المملوك من اللباس أو التزيين ، حتى أصبح مقام المملوك مما يرغب فيه هذه الأنبياء . الكثير للأخص . من ما يملكه ، حتى أصبح مقام المملوك مما يرغب فيه ويسمى اليه إلى حد ما يسمع به في

وكان كان ما يعطيه السلطان لو كانه من لأموال الكثرة ؛ وما كان يصل إلى بلاد تركستان من الحكيمات المنتمية من أحوال الممالك في مصر . باعتباراً كبيراً لكثير منهم على بيع أولادهم وبناتهم ليكملوا في حاشية سادات مصر . على أن أهالي تلك الجهات نفسها كانوا يفدون دوماً إلى أرض الآمال .

وكانت النفقات لباهظة لا يمه حداً بلاط كهذا . وقد رأينا أن جمع هذه الاموال لم يكن يراعى فيه جانب الحق ^(٣) ، بل كانت تذهب القوس بدون مبالاة في سبيل

(١) شترى مرة معاً ، استعبدت عتاقه ديوانتاي ، وهو الآن المتأدي ذاك الحصان الواحد نحو عشرة آلاف دينار . وأما فدان الحيات الأخرى . وقد ذكر المقرري أنه استعصر في روح امه (١٨٠٠) رأساً من السار ورج عشرون ألف رأس من الماشية - وتلك أمانة من الأسر فالتقى الذي كان يعزى اليه

(٢) وقد ذكر ابن ايس في تاريخه الذي يذكر فيه عبارات مخزنة عن اخلاق سيدات ذلك العصر ، أن السلطان فرض سرية دحة على كل النساء من الطبقة العليا ، وعلى ستمهن اللاتي يعمدن في التزيين . وقد عين لذلك صفاة (مرآة) تقفون على قدم بر هذا . وهذه الدرة واحدة من الملاحظات القليلة التي تستفيد بها المؤرخ على حاله النساء الاجنبات

جميعها . ومع كل هذا ترى السلطان تقوده الحكمة والعدل طوال حكمه إذ لم تنقلب عليه أسباب الجشع والانتقام

وقد تلقى السلطان علوم الفقه والقانون في دمشق ونال شهادة فيها ، ولذلك كان يشارك العلماء في كل أمر يفيضون فيه . وكان قد أثار حنق قاضي دمشق تميم قبلي كاتباً خاصاً هالك ، فغضب الناصر لذلك في بادي الأمر ، ولكنه عاد ففتح هذا المنصب ابن القاضي . وكان الناصر يمتق قاضي المذهب الحنفي لعداوتيه للمسيحين . ولاعترضه قرارات السلطان ^(١) عزله عن عمله مدة ؛ وكان يحابي قاضي الشافعية ؛ ولكنه اضطر إلى طرده هو وأسرته إلى دمشق لسوء سيرة ولده الحزبية . وقد قسا السلطان في معاملة الخليفة العباسي إذ اعتقله هو وأفراد أسرته في أحد

أبراج القلعة لما كان يجاهر به من التشيع ليبرس الجاشنكير ؛ وفي عام ١٣٣٧ م أنهمم بعدم الولاء ؛ وفناه إلى صعيد مصر . ويروى أن الناس حزنتوا لذلك حزناً شديداً ، على أن بعد الخليفة عن حاضرة الملك لم يكن يحدث في الواقع فراغاً محسوساً . وكان السلطان يحب العلم والعلماء . فمن ذلك ما أظهره من الرقة ولين الجانب

عنه . فعزل عن عمله على أبي الفداء بتقليده ولاية حماة ثانية ؛ وكان قد قد منها الأيوبيون لاسرته ، فولاه الناصر حكومتها ولقبه بلقب سلطان . وألبسه شارات الملك وحليه ، وأنعم عليه بأعلى القاب الشرف واسماها . وكان يخطب

في مناسباته . وقد تفرغ من كل شأن دنيوي ، واستأنس بالعلماء والعلماء .

كان الناصر يعار على ملكه حتى من أبنائه ، لم يعين ولياً لعهده حتى كاد أن يخلو من بعده . من أحد أكبر أبنائه كان شرمال يحنذي في أقيح . وقد تفرغ والده إلى الكرك بعد أن خابت

أمله . وأصله بفتح أرض موقوفة نظير تسام جزء مساو لها . البديل لا يفره الفروع ، ورفض أن يجول عن قراره .



مئذنة مسجد الناصر بن قلاوون

ولما أصبح «طشتر» صاحب السيادة في البلاد نصب أصدفاه أمراء على ولايات سورية وصار صاحب النفوذ المطلق في حكومة البلاد؛ فساورت الفترة أحد فأخذ مقاليد الأمور في يده وأودع طشتر غياث السجن، وسير إلى «قطر بنما» حاكم دمشق من قبض عليه هناك وكلبه بالحديد. ومع أن هذا الطاغية الخليع قد صار بعد ذلك مطلق التصرف في أمور البلاد لا يسيطر عليه مسيطر كان لا يزال حبه للترك ما كانا عليه قلبه. فترك «آق سقر» أحد كبار الأمراء نائباً عنه في البلاد وتزاي بزى اعرابي .. كك حبيب .. ناس معه سير الناس من الأناس .. وتوجه نقلاً للترك حيث حط رحله، واحتجب عن الناس فكان لا يراه إلا أهل «مردته». أما القاهرة التي تركها السلطان معتم في غرضي وسو - البطاء .. فكسب اليه كبار الأمراء رسالة يرجون منه الرجوع إلى البلاد لحاجة حكومتها اليه، فاجابهم بأنه حاكم سورية ومصر على السواء وأنه سيق حيث شئت أهواؤه. أما طشتر وقلوبه بما قد حلا في الإصفاة إلى الترك وهناك قطع رأسها ثم أرسلت أسرتها إلى دمشق بعد أن جردت أمانى كل ما تمكن، وتركها في حالة محزنة أثارت عواطف أمراء سورية وطلبت حقيقهم فأرسلوا رسالة إلى القاهرة يطلبون فيها خلع هذا الطاغية وتوليغ فيه مولانا حسنة هذه رسالة كبار الأمراء في القاهرة قد عمل صبرهم من «أحمد» الذي كان لا يزال غائباً من مصر. وكان بعد ذلك بعدة أيام قد صدر في القاهرة والترك الفطام

من أربكة مصر وهو في السابعة عشرة من عمره؛ إلا أنه
تبعه سنة ثمان مئالا طليبا يحنى، رفيقا بالعباد في إدارة شؤون الدولة، فكان
ول سلطان من أسرته لم تقلب عليه خصال التسوة والجشع والفرد
رجع إلى قصره المنجور، وقد ... أمور البلاد والأمل في النجاة مل. فؤاده؛
ولكن الحظ عاكسه فلم يستمتع بحكم هادئ، إذ ثار عليه أحد أخوته، ثم لاقى
هامة في الحرب التي نشبت. وكان معظم خوف اسماعيل وقلق بالله، من الدسائس

التي لم يثنأ أخوه أحمد الخوارج يدبرها له ، والتي كان من جرائها محاصرة السلطان
له في الكرك . فمكثت هذه القلعة المحصنة تقاوم مدة عام ثم سلمت ^(١) ، وقتل
أحمد وأرسل رأسه الى القاهرة ، فلما وقع عليها نظر السلطان الفتى ارتعدت فرائضه
وشحب وجهه ، حتى صار كأنه من الأموات . ومن هذه اللحظة لم يذق النوم إلا
غراوا ، ومات بعد عام . وكان السلطان اسماعيل (الملك الصالح علاء الدين)
مشغولاً بنسائه ؛ وقد وله بقية سوداء كانت تشنف أسماعه بنمات أوتار العود حتى
أصبحت أحسن سعادة له في أخريات أيامه . هذا كل ما وصل إلينا عن حياته المنزلية .
ولقد كان لنسائه وحاشيته نفوذ عظيم على ادارته الضعيفة جر الى فساد الحكومة .
ولكن اذا استثنينا حصار الكرك فانا لا نجد شيئاً يستحق الذكر حدث في خلال
ثلاثة الأعوام التي جلس فيها على العرش ، اللهم الا ما كان من بعض مشاغبات
قام بها العرب فيما بينهم ، ومن بعض حروب ليست هامة ، على تقوم سورية . وفي
أيامها انحطت مالية البلاد حتى جعلت السلطان الشاب يقعد عن اداء فريضة الحج
يعمر أن عزم على ادائها

وكانت بلاد اليمن اتخذت اذ ذلك تطلع الى احرار السيادة على هذه البقاع المقيمة - ولكن على الرغم من ذلك كان صيت المالك ذائعاً في الممالك الأخرى حتى إن ملك الهند أرسل للمرة الثانية بشأ يجعل الهدايا والتحف لسلطان مصر كي يجعل منه على أعرف تلك «ابن طغلق» وتبته من الخليفة الذي كان عظيم الاحترام في الأقطار الاسلامية الأخرى، مع أنه لم يكذب يكون له شأن ما في مصر تولى الملك بعده اخوان له آخران «شعبان» ثم «حاجي»، وقد ذبح كل منهما في نحو عام. وكان عصرهما عصر خلاعة وجون وقبيل وفوضى أسوأ مما حدث في البلاد في أي زمن من قبل. ذبح شعبان (الملك الكامل شعبان) اثنين من اخوته خلق أحدهما (كجك السلطان السابق) في فراشه، ثم ازدادت رذائله واشتدت

(۱) ذکر این ایام از الحصار دام ثلاث سنوات می ۱۸۲ ج ۱

الو. لم يبلغ في أي مكان ما بلغه في بلاد سورية، حتى أصبح لا يشغل الأفكار في تلك المدة الأمر هذا الفناء. وليس جديراً بالذكر من حوادث ثلاث السنوات الأولى، التي تربع فيها حسن على عرش مصر، سوى ما كان يأتيه الأعراب من وقت لآخر من الفطام، وما قام بينهم «أرعون شاه» نائب دمشق، «واقبنا» نائب طرابلس، من الشقاق وذبح الثاني الأول.

ولما كان نائب السلطنة «يلغا» غائباً عن البلاد لأداء الحج، انتهن السلطان هذه الفرصة، وقبض على أزمة الأمور بنفسه. وكانت الفطام ترتكب في عهده، إلا أنها كانت أقل شدة مما كانت عليه قبلاً. وقد انتصرت جنوده على جنود اليمين في مكة المكرمة؛ وكذلك كسر جيشه جيوش التركان في غارتهم على «سنجار»، فكان ذلك مازاد في شوكته؛ إلا أن وزراء كانوا لا يزالون يتدخلون في شؤونه فأثمر هو وجماعة بالتبض عليهم، ولكن غي بهم أمر المكيدة، فهاجموه وخلعوه عن عرشه، واعتقلوه في أحد البيوت، بعد أن حكم البلاد أربعة أعوام تقريباً. لم يكن له فيها من الأمر شيء إلا في السنة الأخيرة.

أو أربعين في قبر واحد. أما في حلب فكان عدد من يموت في اليوم عشرين، وفي غرغرينا وبعد ذلك ما لا يحصى. وقد نزل الوباء، وعمر على شكل غزوات صارت المائتين والاربعين فكانت ترى مجاري المياه ملأى بالسلح الميت. وقد كان الوباء يطليح في كل ليلة وأصبح الجميع لا يؤكل له من العيدان. وقد ابتدأ المرض في القاهرة بالنساء والأطفال، ثم تقدم إلى الرجال، فكانت الطرقات ملأى بالجثث التي كان الناس يهاون عليها من أماكنها، لأن مجرد لمسها كان يحدث غزوات. وقد أصبحت حاضرة البلاد غاية على عروشها، إذ فر منها السلطان وكل من أمكنه الفرار. وقد بلغ عدد الموتى فيها نحو تسعمائة ألف. وكانت القنارات تتوارثها سبع وأثنا عشرة واحدة بعد أخرى، وكذلك كانت ترى اللغة ممتلئة بطور حياد الضابط. فأصبحت البلاد قاعاً مفضلاً لا يجدو مجير، لفة الأيدي المالة على زرعيها. وكانت اللال بخسة الإثم، غير أن الطعام كان ينعدم إذ لم يوجد من يدهم. وقد قلت وطأة الوباء تدريجاً إلى ربيع عام ١٣٤٩م ولم يتلبث أن انقطع جثته.

الملك الصالح صلاح الدين صالح

الغسطس
١٣٥١

جلس بعده على عرش مصر الملك الصالح، وهو فتى حدث من أولاد الملك الناصر، وكان في الرابعة عشرة من عمره. وأمه (خوند قتلوملك) بنت الأمير «تكنيز» الذي غدر به الناصر. مكث الصالح على عرش مصر مدة ثلاثة أعوام لم يحدث في خلالها شيء يذكر غير ما كان يقع من المؤامرات وارتكاب بعض المالكين الغفلة ضد بعض. على أن ما كان يتوالى من ظهور الأعداء، معصبه على مضى. وتقدم من أن إلى آن في سورية، وهرهم، واقفاهم، وأقربهم، وليس فيه ما يلد الغار. وكان وزيره (الصاحب علاء الدين بن ديبور) - وهو مسيحي أسلم - جمع ثروة عظيمة فاتهمه أحد نظرائه بأنه لا يزال على المسيحية؛ فلم يكتف السلطان بتعذيب هذا الشقي بل أنزل بأسرته وجميع خدمه أشد العذاب حتى أرسدوا إلى ما كان للأيام من الثروة التي قدرت بنحو ألف دينار، ثم فاه إلى قوس. وقد لاقى المسيحيون الأمر في هذا العصر؛ فقد حسدوا على ما كانوا يكتسبونه بكدم الشريف فقصبت منهم كل أموالهم. وهدمت كنائسهم، وتخذت عليهم تلك الغوايب عدة مائة أخرى. وفي مدة هذا السلطان نبت قتال العرب، التي كانت اعتادت أن تقيم في الأرض هداداً. ولم يحدث في عهده شيء آخر حدير بالذكر. وفي أواخر مدته أصبح له أن يرض على زمام الأمور بنفسه؛ غير أنه مال إلى حياة الخوص. واتهم هو وآخرون بالتبض على بعض الأمراء من حاسيته، الذين كانوا ينفون حجر عثره في طريقه. وما أحسوا الخطر المحقق بهم تقدموا عليه، وسفوا عصا الطاعة، وقيصوا عليه وأعدوا «الناصر حسداً» إلى العرش بدلاً منه.

﴿ عودة الملك الناصر حسن ﴾

أكتوبر
١٣٥٤

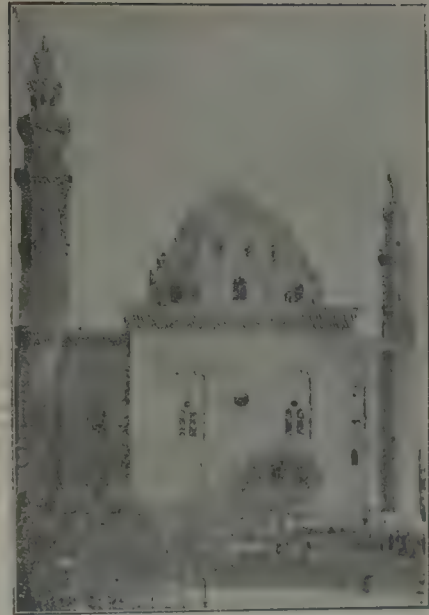
قضى الناصر حسن مدة الحجر عليه في الدرس والعبادة ولم يستند الآ قليلاً . فلما تبوأ العرش ثانية مكث سلطاناً على البلاد نحو ست سنوات خلع فيها المنار (أقرأ المقرئ) ، وترك مقاليد الأمور لأمرائه الذين كانوا فئة من الطغاة الجبارين ، يعقب الواحد منهم الآخر في السيطرة على البلاد ، ويرتكبون من الفظائع ما لا يتصوره العقل ^(١) . وتكاد مدته هذه تكون خالية من الحوادث ، إلا ما كان من هزيمته في مكة ، وغزوة قام بها في بلاد أرمينية حيث استولى المصريون على « طرسوس » و « أطله » و « المصيص » ، ووضعه فيها حامية مصرية . وفي أواخر حكمه أغضب أكبر أمرائه « بليغا » ، وأثار حنقه فهاجمة وتقلب عليه ، ثم أودعه في غيابة السجن ، فلم يبق له أحد على أثر

مارس
١٣٦١

خلفه على العرش اثنان من أحفاد السلطان الناصر ، الواحد تلو الآخر ، فكان الأول « السلطان المنصور محمد بن السلطان المغافر حاجي » ، وكان قتي في الرابعة عشرة من عمره فمكث على رأس حكمه البلاد ما يربو على العامين ، ثم خلع لقله كفايته ، وبقي مسجوناً عليه حتى توفي بعد السلطان برفوق

١٣٦٣

ثم خلفه السلطان « شعبان بن حسين بن الملك الناصر » ، ولقب « بالسلطان الأشرف أبي المظفر زين الدين » ، وكان عمره إذ ذاك يزيد على عشر سنين ؛ ولذلك فضل على والده حسين الذي لم يظفر بعرش البلاد قط . فكانت مدة حكمه نحو الأربعة عشر عاماً ، وهي أطول مدة حكم سلطان من أسرته . غير أن سيرة هذا السلطان



مسجد السلطان حسن بن الناصر ومقبرته
لشدة إلى اليسار الذي هو جزء من البناء الأصلي

(١) يدلك على ذلك ما نقله « شيخو » أكبر أمراء ذلك العصر بأنه بعد أن اطلع في عزل أحد نظرائه ، أمر أن يطفئ في طرقات المدينة . ويرى أنه بعد ذلك أمر بخلق رأس هذا المسكين وتلبس في عدة مواضع . ثم ركب في كل ثلثة حفر سامة ، ثم وضع فوق كل ثغرة قطعة من النحاس المصهور مجعلت تلك الحشرات تنفث داخل رأس هذا البائس حي مات . أما « شيخو » فقد نال ميراثه على وحشته إذ قتل في القصر . ومع كل هذا فإن شيخو كان يند مثالا للورع والتدين ، تبرع بترتيب قراء تلاوة القرآن في أحد المعاهد الدينية ، وعمل بنفسه في بناء الخانات التي تنسب إليه .

تختلف عن سيرة سابقه نوعاً ما، لتوالى سقوط الأمراء الذين كان يدهم الحل والعقد، ولحاجة هذا السلطان الحزينة. والواقع أن الستين الأولى من حكمه لم يحدث فيها شيء يستحق السبق. بخلاف أخريات أيامه فكأن ملأى بالمواسف في داخل البلاد وخارجها كان «يلينا اليعاقوى» في بداية حكم السلطان شعبان صاحب النفوذ في البلاد، وما أتاه من الفظائع، كان أشنع ما ارتكب في هذا العصر^(١)، فأحفظ ذلك الأهلين الذين اتفوا حول السلطان الفتى حيناً ثمرد عليه و أراد أن يجلس على العرش أحد أخوته، هزم هذا الطاغية، وقتل ورفع رأسه فوق مشعلة تحترق. غير أن أتباعه من المالك ما فتوا بعده أصحاب السلطان في البلاد، فأصبحت حاضرة مصر حاصراً من قوتهم الوحشية. ثم تدوا في طغيانهم، وآثروا على حشد السلطان، فهاج ذلك الأجناد والأهالي الذين لم يصبروا على تلك الحالة، فاقفوا أثرهم، حتى فروا من وجوههم، وأغترق بعض زعمائهم، وذقت أعناق بعضهم، ونفى الباقى من البلاد. كان من من في «برقوق» لدى فر إلى دمشق بعد أن است في السجن بضع سنين، وستكمل عنه بعد... ثم استمرت الحال كما كانت عليه من قبل؛ ولم يقع ما سبق ذكره. سيرة بعد هذه السلطان هو روحها، وكان صاحب سيطرة في البلاد إذ ذاك، وطلب أن يربها في متاعها كله، وقررد على السلطان، ثم هزم وفتر هارباً، فسقط بجواده في البر ومات غرقاً.

وقد حدثت بعض حوادث خارج البلاد لا بأس من إيرادها لجمالها، ذكرى أن حاكم بغداد التارى ثمرد على «القان أويس» وثار في وجهه، ثم طلب المونة من سلطان مصر، بعد أن اعترف به سلطاناً على بلاده، وضرب السكة باسمه، فاستقبل السلطان رسله استقبالا حسناً وزودهم بالمدايا النفيسة وبوسامى كل من السلطان والخليفة، فأرسل القان وفداً إلى القاهرة يشكو من سوء صنع السلطان، فأساء السلطان منه مدية... السلطان ضاحك به سلطان من توسيع نطاق مصر.

(١) وكان من فظائمه قطع السنكثير من الناس لا لاسب غير منافعهم له

أسفر عن الحية الثامة، إذ كبر حاكم بغداد المتعرد، فرجعت بغداد إلى دولة الممولى (الأمبراطورية الشرقية)

وفي عهد استبداد «يلينا» دبرت قبرس والبندقية وفرسان رودس حملة صليبية على مصر فرسوا بأسطولهم في مياه الإسكندرية، وأطلقوا يد السلب والنهب في المدينة مدة ثلاثة أيام؛ وقيل أن يصل المدد من القاهرة أقلعت سفنهم حاملة نحو خمسة آلاف من الأسرى فأنقذ «يلينا» ذلك من المسيحيين بأن فرض عليهم الضرائب الفادحة ليجوز بما يجمعهم منهم أسطولاً ويقضى الأسارى. وفي ذلك الوقت أرسل الفرنجة بشكاً سلبياً يظهرون استعدادهم لدفع تعويض عما حدث، ويطلبون فتح «كنيسة القيامة» بيت المقدس ثانية، فجزى ييلينا هذا البعث في القاهرة، ومضى في استعداداته للحرب^(١). ولما لم يجيهم السلطان إلى طلبهم قام أسطول قبرس بغزو السواحل السورية، وهاجم الإسكندرية، ولكنه رد عنها متكبداً الخسائر، وقد قامت المناوشات طول العام، وأخيراً تم الصلح بين الفريقين، وأعيد فتح الكنيسة للحجاج

ولما تلك أيامه، لسوء حظها، من الممالك التي عقدت معها معاهدة الصلح، ١٣٦٩ مسير عليها السلطان كل ما لديه من الجيوش في مصر وسورية، فغزاها نائب حاكم عام ١٣٦٩ م، واستولى على «سيس» حاضرتها، ثم ارتد عنها ثانية. وبعد ذلك بسبع سنين خرجت مصر «كليكيا» من جديد فاقصم الملك «ليو» بمحصنة الجبل، غير أنه اضطر إلى السلب، وأخذ أسيراً إلى القاهرة^(٢)، وصور أحد أمراء الممالك بعد ذلك حاكمياً في «سيس» ومحيث أرمينية النقية من أعداد الممالك المسيحية، بعد أن

(١) طلب هذا البعث رهائى قبل مفادته الإسكندرية، فأرسل معه بلدا حاضراً من الجرمين الخادم عليهم واليهام لهما سراً فأغرا. ولكن يدخل الحية على البركة أرس منهم ماء وأطعلا فاتهم أهلهم وذلك عايدل على نفاق المالكى وعداءهم.

(٢) وقد بنى في الأسر إلى عام ١٣٨٢. حتى توسط له الملك فيه ما الأولى ذلك فتشاة، فأطلق سراحه. وقد أنه حرب عليه المودة إلى بلاده، فصار يتبعول في البلاد الاوربية حتى مات في باريس عام ١٣٩٣ م.

مكنست أجبلا العلوة في يد المايك والعنايين واستبداده. وبعد مضي بضعة سنين (أثنى في عهد السلطان التالي) قام نواب سورية بعزوات مثنائية على أملاك أيت «دى العادر» التركمانى في آسيا الصغرى فردوا على أنعمهم خبرين؛ وكانت حسب على سفا الخطر في هذه الحرب. وبعد هذا الحادث فتحه نصر جديد في علاقته مصر والولايات التركمانية لدمال. وقد قال الميرزى: «ن أنزلت آسيا الصغرى كانوا إلى ذلك العهد حرجا متعبا لمحبة الحدود المصرية، ولكنهم من هذه اللحظة أصبحوا أعداء. حكم الميث. وكانوا في الحقيقة سب في سقوط مصر وخيانت استقلالها.

وفي أوائل سيد السطان "سعين" أرسل حملة هامة بحرية وبرية الى سواكن
 حوّلها لمحاربة حدود الصعيد ولإداسية من غبت قبائل البدو، فكانت
 هذه الحملة الفلاح؛ غير أن فظائع حاكم اسوان الشنيعة أثارت حقد القبائل المجاورة
 فالتفتوا على المصريين وأضرموا دجماً، وتركوا المدينة فريسة للثيران

١٢٧٦
 اننا الآن نقرب من آخر سلالة الناصر . لم تكن الثورة وسوء الحكم العالمين
 لوجهين الدين تراقى البلاد في هذا الوقت . من الفسطاط والمراء ، فشيئا فشيئا فيها
 ثانية . وقد أصاب «طشتمر» كبير الوزراء الطاعون ، فلما كشف الله عنه صفة طشتم
 للخروج الى مكة حاجا شكريا لله ، وقد رافقه السلطان ، والحليفون وغيرهم
 في زينة وأبهة ، ومعهم جم غفيرة من المماليك الذين طلبوا عند وصولهم الى آيلة
 تقودا وثاروا في وجه السلطان ، ففرع منهم وهرب تحت جنح الظلام الى القاهرة
 وفي ذلك ليلة عذبة مؤلمة . ليلة مؤلمة عذبة حتى تفرق الى البيت . وغدوا
 أن السلطان قد قضى نحبه ، وهاجوا أعوانه ونصرائه من الأمراء وذبحوهم ، وعينوا
 «علي ابن السلطان» مكان ابيه . ولما وصل السلطان الحارث الى القاهرة لجأ الى بيت
 فيه حبيب يسف أمره وهولاباس لباس النساء ، قبض عليه وعذب كي يظهر أمواله .
 وفي هذه الأثناء حتمت ملكا كان قد فرغ من امره الى مرة الأمراء . وقد سف الناس

كثيراً ما لم يسمعن لأنه مع ضعفه وتخلله كان دقيق الحاشية معتدلاً بالنسبة الى من
ضعفه من الحكماء

حاجس ثواب، الفاهرة على على العرس وهم طفل في السادسة من عمره، وقد
توَحَّه في الحال حيفة فصبوه لهذا الغرض، فبدأ حكماً اسمر ست سنين
كانت كبا فلاق: «ثم عد الحزب الآخر من» «أيلة» وعلى رأسه طستمر،
وحاولوا اجلاس الحيفة امنى عد معبى على عرش البلاد: فاقبل الرفيق، وبعد
معارك متكررة هزمه «طستمر» واعد على اسلاسل عين حاكمي الدمى. أما حرب
المليك الدين فصبحو ذوى السيادة ولغود فقد ثاروا غلبا على وشكوا سيوفهم
وحصل كل منهم على حسمائة دينار احتلاسا من حزامه مال الأيلة، والحوادث
لثى عقب هذا البست الا صورة غريبة نهوض وسقوط الحاكمين من الممالك،
والهياج والحيثية والاعتصاف والننى والقتل^(١). وفي آخر الأمر صار «برقوق»
و «برخ» لئلا كك، قد نفا من الارض عند سقوط يلعا اليحيواى، صاحي الأمر
ونفى في ففاهه معصده فرا: سورية لم. غير ب الياح ب يقطع وأصحت
الغلبة لهما مسير الخلافة. وقد أقر «برقوق» نالهبض على «برخ»، لكنه
هرب وخرج معه «ساعة الأتراك» واربوا «برقوق» وحرره البركى في معركة
هزم فيها «برخ» وُرسل أسيرا إلى الاسكندرية حيث قتل^(٢)

(١) وبما صدر ذكره هنا حكاية تملح في هذه الحادثة وبما يحاوله بولاية العرش ولدا لروح مظلمة من الناصر كانت قد صرحت بأنها حبلت عند ما لحقت بروحه الثاني ، وعند ذلك أعلن الخليفة بأن سلوك هذه السيدة شائن ومخالف للدين الاسلامي

(٢) والتظاهر ان هذا القتل كان بأمر يرقى ، ولكنه على كل حال اكبر وحمه في دمه الى الاسكندرية ابنى خليل - وهو كاتب عالم - وسماه ان يملك روح مفروسة على صخر حبل قاتم عودا أربا

وكانت طريقة المرض على ظهر الجبل ان يرد ذكرها مودعا ككتابة طريقة يقول عنها المقرئ أنها منظر رهيب اذا كان من بين يديه ولا ع لواح من الخشب تفسد به جماله ودرامه بمرآة الماء الواح على ظهر حبل يغطها به وطرق المدينة . . وهذه صورة مخزنة تيش وحشية

الدمر

وفي العام التالي مات السلطان الصبي خلفه أخوه «حاجي» وعمره ست سنوات؛ ولكن ثوران المماليك بدأ ثانية، وقد حاولوا قتل «برقوق» فجمع في أواخر عام ١٣٨٢ م مجلساً من الأمراء والمشايج في حضرة الخليفة وأعلن أنه يجب أن يكون السلطان رجلاً لا طفلاً ليسود السلم والسعادة في الداخل والخارج، فوافق المجتمعون على هذا وخيَّبه هو باعتباره الحاكم عليهم. ثم أخذ السلطان الصغير وأدخل إلى الحریم وهكذا انتهى بيت قلاوون، وباتهاثير انتهت أسيرة المماليك البحرية أو التركية بعد أن حكمت ١٢٢ سنة. ومن ذلك العهد صارت السلطنة إلى المماليك البرجية أو الجركسية الذين قبضوا عليها كما سنرى ١٣٥ عاماً أي إلى نهاية حكم المماليك

١٣٨١

نوفمبر

١٣٨٢

الجزء الثاني

الأسيرة البرجية أو الجركسية^(١)

١٣٨٢ - ١٥١٧ م

الفصل العاشر

الظاهر سيف الدين برقوق^(٢)

١٣٨٢ - ١٣٩٦ م

يُشعر الأتليان بأنشراح عند ما يقتل من ذكر أمراء وضيعي النشأة أتيج لهم ١٣٨٢
النشود باسم سلاطين من الأطفال، إلى عقد من الملوك الذين صار إليهم الأمر حقاً
فحكوا باسمهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقاً، على الرغم من أنه لم يكند ينال مصر من
هذا التمييز رفعه عليهم.

يدل على هذا برقوق، استراة يلبغا اليجباوى من عشرين عاماً خلعت من
نحاس خوارزمي (هو خواجا نحر الدين عثمان بن مسافر - قال المقرئى والذي
اشتراه هو يلبغا الخاصكى). وقد رأينا فيما سبق أنه طرد حين قتل مولاه. ولما عد
١٣٦٧ ص. شمس ممالك سبعين. وكاتب له بدى الله رفته التي نزلته عن العرش، ثم ارتقى
١٣٧٦ بسرعة إلى مرتبة أمير خاكة في الانقلاب الذي حصل بعد ذلك. ولما تم له القضاء
على منافسه "برج" أصبح صاحب سيادة المطلقة؛ فملوك الأمان اعترف به في

(١) - مات هذه الأسرة سنة ٥٧٨٤ هـ - سنة ٩٢٣ هـ وبعد سلاطينها الشاه ولساطا

(٢) - قال المقرئى هو السلطان الملك الظاهر أو سيده برقوق ابن آسن

السلطان حيث كان يقيم فيها مع الخليفة فاستولى عليها وعاملها بشفقة واحسان، وانضمت اليه بسرعة جنود من كل النواحي.

وقد عاد منطاش من مطاردة أعدائه بعد فوات الوقت. واستمرت المعركة في اليوم التالي ولم تكن مجدية إذ ثارت زوامة اضطرت منطاشاً إلى التفرق نحو دمشق، فأسرع برقوق إلى انتهاز الفرصة فولى وجهه شعار مصر وتقدم نحو القاهرة في قوى كانت دائماً تزيد، ونقل معه حاجي الصغير وعامله بالشفقة والرحمة. فرأى الشاب أن يتنازل عن العرش لبرقوق وأعلن في المعسكر أن برقوقاً أصبح سلطاناً ثانية. وفي تلك الأثناء كانت القاهرة في هياج محزن وخوف وذعر. ولم يكدر يس حيز اقتراب برقوق حتى انتقلت المدينة إلى أفراح عظيمة وأدخلوه إلى قصره وهم جذلون، وأفرد لحاجي الذي ركب بجواره في الاحتفال مسكناً في القلعة فعاش فيه عدة سنين هادئاً راضياً بمحمود السيرة.

ولما رأى برقوق أن الحظ قد أعاده إلى عرشه أخذ يعمل كل ما من شأنه أن يرضى رعاياه فأعندق المهابت على كل من حوله حتى أعدائه الأقدمين، ولم يكن يدفعه إلى هذا مجرد غمزه وسفاهة بل من لأحوال هي التي اضطرته في هذا لإحسانه إذ كان غير مسموح من مذهب سلفه لمحمد. على أن الأمور لم تسر سراً حسناً مع منطاش هذ. فبعد ما كان قد دس يده في مقلعة حده وانحسروا من منطاش، ولكنه لم يمنع حتى جمع جيش آخر دمج فيه بسرعة - عند تمايل بيت قلاوون - التركان والبدو؛ وقد ناجز به بليغا قائد جيوش السلطان في سورية. وثبتت بين الفريقين لدى «سلمية» معركة دموية غير حاسمة انتهت بتمسك الخرج على هذا الوجه حتى شك برقوق في إخلاص بليغا فقصم على الخروج بنفسه إلى الميدان. وقبل أن يبرح القاهرة غلبت عليه طمع الممالك الوحشية فغذب بلا رحمة كل من اشتبه فيه وأودى خاصة بحياة الكثيرين من أصحاب منطاش الذين مثل بعدد كبير منهم أقبج تقييل. (١)

(١) توجد تفاصيل عجيبة لما ساه كسبنا لحافظ القاهرة إذ ذلك من القوانين القريبة مع السيدات فانه يحظر عليهن زيارة الجبال أو الخروج جامات في النيل. وقد برز لبقول زمة في أساع ملايين حتى كانت الكام القيس وبدنه ٧٢ ذراعاً من القماش في عرض ٣ فأمر كسبنا بتقصي هذا القدار إلى ٣٤ ذراعاً. ولما عاد السلطان التي هذا القرار. ويقول القرزي: إنه رأى في زمة بعض السيدات يلبسن ملابس قصيرة ضيقة تسمى «قيس كيدفا»

وقد استقبل برقوق في دمشق استقبلاً عظيماً. لأنه من هذا كان انقضت لحول وفقدت العفو عن كل الناس مما كان دوماً. ثم سار منطاش نحو حلب. وكان منطاش قد ذهب في هذا الوقت إلى البدء. فاستأجر أساطين من بلده. وحلقته معه حتى أتى حين عاد إلى حلب فقبض عليه وعلى كثير من محبيه لأمره. وقتلوه. وهكذا كان بكران السلطان لحيل القائد الذي حصل له في محنته. وقد استشهد كذلك في دمشق. فصار واضحاً عن إسالة العفو. وفي الدهرة بعد عهده إليها كثيرين من الأمراء الذين كان يختصهم ويخصه خدفاً. بله فقبض عليهم وعرضهم على عين الناس فوق الحال ثم قتلهم. أما منطاش فقد استمر في موشاة على الحدود سنين حتى خذه حليفه رئيس لندو. وكان السلطان قد رده - فسله إلى عيون حملوه إلى حلب حيث انتم مع على حياته فعذبوا بالكي حتى فاضت روحه وهو في سدة الأمل، وبعد أن طيف برأسه في كل سورية حتى أتى إلى القاهرة وعلق على باب المدينة أبائاً ثم سار لأزماته لدفنه.

وفي العام التالي اتهم سلفه بترغيب من سلالة سيدا على أنه يترهو والعرب برحوم مصر وسورية إلى سلالة التي. فقبض عليه هو وجدي له كان وعده بمصعب في حكمه الجديدة. وكان أبو بيت باعواهم؛ فغرفاً بأنهما هما المسئولان وحدهما، وزاد على ذلك، بكل جماعة. ثمها قاما بأواحد نحم الكتاب والسنة. ثم قضيا نحبهما في العذاب الأليم. والعجب أن محاولة رجوع السلطان إلى حكم وطنيين كانت فاشة، ففكر فيها السبيون. فكانهم لم يفكروا من قبل في صد عازات تمايلك الأتراك الذين كانوا لا يزالون يتدفقون على البلاد ويختصمون أهلها.

ولما خرج يريد سبنا يسيراً فوق ما تقدمه من سيرة برقوق. فحوالي انتهت حياته حدثت مؤامرة خطيرة فاستقبله من سبيين منها حامى الأمراء القاب والأخطار التي كثير، فبغت عريش هؤلاء السلطان. ذاب أنه قبض على مملوك لرئيس بيت المال أسس على لك وهو يتأمر مع جابه بكتير الأمم. الذي عاف المؤثر فصر به

أرهبته سوط فشكا على بك هذا إلى السلطان ، ولكن السلطان لم يستدع كبير الأمراء ليسانه عما زعمه لنفسه من السلطة ، فتغيط الشاكى كثيراً لهذا الاحتقار وأسرّه في نفسه ثم أخذ يحاول الانتقام باغتيال برقوق غياً فقرأ من المالك في بيته لمباغنة السلطان حين عودته من الاحتفال بفتح الترعسة السنوى (جبر الخليج) ، ولكن برقوقاً قد عرف السر ، فترك موكة خلفه قبل عازاته بيت المؤامرة وركض مسرعاً بمجواده إلى القلعة بدون أن يشعر به أحد ، وجاء بعده على بك فوجد الطريق سدودة فقبض عليه ، وبعد أن نذب ليعترف بشركاته في الجرم قتل خنقاً ، أما أصحابه فمعه أنه لم تكن هناك بيعة عليهم ، قد أمر بالقبض عليهم ، وبعد أن شهرها شهيراً شبيهاً فوق الجبال قطعت رؤوسهم . ومن بين من سمح زوج ابنة برقوق لأنه كان صديقاً لعل بك . ولا رأى برقوق أن سبياً واهياً كهذا السبب لم يكن ينبغي أن ينشأ عنه مثل هذا الخطأ فظهر منه على أنه نهم تحدير ، ووجه له حين نصحت له ألا يجعل كل اعتياده على ممالك الجراكسة ، وكان أجدر به أن يعتمد على من حوله من الممالك الترك واليونان . وقد أثر فيه كثيراً الموقف الخطير الذي تجلج لوه فلم يجرؤ بعد على ترك القلعة

١١٦

في سنة ١١٦٠ هـ من حكم برقوق بدأ برقوق في تهدد السلطنة ذات
التي كانت تحت حكمه على أساس ما كان عليه من قوة فخرج
أحمد بن أويس من بغداد ثم سار شمالاً غربي آسيا الصغرى إلى سواحل البحر
التي كانت تحت حكمه من سنة ١١٦٠ هـ . ومع ذلك لم يزل يتردد في
طريقه ، يشهد بها تلك الأهرام التي أقامها من الروس في همدان . وغزا مرة أخرى
آسيا الصغرى ، وتوغل حتى بحيرة « وان » ، وهناك دحر « بايزيد » زعيم قبيلة
قرويون التركمانية ، ثم استمد تيمور عندئذ لتوجيه العاصفة نحو الدولة المصرية ، ولكنه
عدل عن هذا الرأي لمصاب آخر حدث في الشرق فنجبت بذلك سورية مؤثماً . ومع

(١) ولا يجوز لك عام ١٣٢٦ ميلادية وهو ابن وزير جنكيز خان

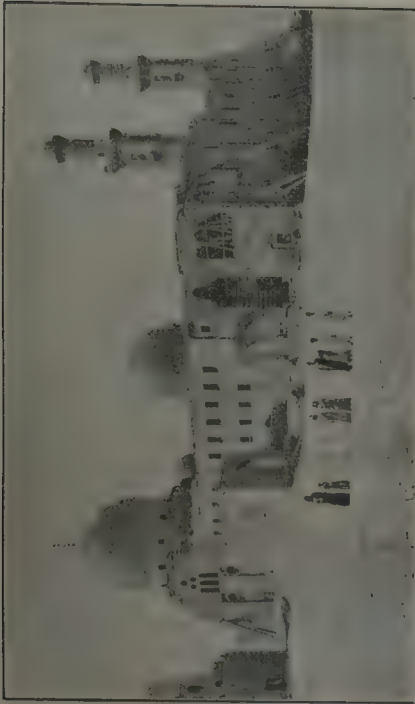
أن خسارة برقوق من تهوركات على الحملة قليلة ، إلا ما كان على حدود أرمينية ، فقد
دارت بين الإثنين مراسلات شديدة ، ولذا أرسل طاعية المغول ، بعد أن استولى على
بغداد رسولاً إلى القاهرة يذكر السلطان بالحروب القديمة التي انتهت بصالح « يوسف »
وقد كانت فارس منذ ذلك الحين ممزقة ، خضعت لسياف الفاتح العظيم . وقد قال
تيمور من رسالة « لتكن منذ الآن العلاقات بيننا ودية » فلم يرد « برقوق » جواباً
وخاف أن يكون الرسول جاسوساً فأمر بقتله . واستقبل برقوق في نفس الوقت
أحمد بن أويس عدو تيمور ، الهارب إذ ذاك من بغداد ، استقبلاً ملكياً ، وأغلق
عليه الهبات الملكية ، وتزوج من ابنة أخيه ، ولكنه كان لا يزال مدسوراً . وبجاء هو
مشتغل بأعداد ما بين سورية من غزو محتمل . وصلته رسالة ثانية من تيمور تشبه
في هجتها رسالة « هولاء » إلى الناصر ، تائب الرسالة الطويلة الخافدة بالآيات القرآنية .
وقد أعلن الفاتح العظيم « الذي أرسله الله لينقم من الظالمين في الأرض » سخطه
على القاتل الشرير الذي قتل برسوله . أما السلطان فقد قال في رده عليه باحتقار :
« رسول الشر الذي لا رحم » . وفي منتصف العام التالي خرج برقوق في جيش
إلى سورية لمساعدة أحمد على استرداد بغداد . واستمر في سيرة من دمشق إلى
حلب ، وهناك استراح بضعة أشهر . ولا جد تيمور سار شمالاً عده إلى القاهرة .
وكان برقوق في أيامه الأخيرة مريضاً بالمرى كرازي ، في مؤامرة على بك ، فكان
اهتمامه بالشئون الخارجية قليلاً . ثم هوى نحوه قبل أن يرجع تيمور نحو العرب ثانية
أصاب برقوق في حريق سنة ١٣٩٨ م مرض الزلازل ابطان واستمر معه حتى أماته .
وفيل مائة في منتصف سنة ١٣٩٩ م « فرج » من أم إفرنجية خليفته له . وحمل
معه كبرى مائة ، هزي « دي » و « طمس » مسجونين . وكان موته في سن
لستين عدداً حكم إحدى وعشرين سنة بين سلطان ومير . وخلف وراءه عدة
ولاد وسب . وقد كان ميل إلى الإسراف . ومع هذا ترك وراءه الأموال

(١) نفري ردى هو والد أن الحاسن المؤرخ

وكان لديه نحو خمسة آلاف من المالك ، وخيول فاخرة ، وكل ما تستلزمه نخامة
قصور ملوك الشرق

وإذا امتدح برقوق باعتباره حاكماً قادراً عاقلاً محسناً - ما لم تغلب عليه شهوة
الغضب أو الانتقام - ومؤسساً لكثير من المعاهد العامة، ومصلحاً ، فهو كذلك يذم
لأنه فقط قاس بحسب لسفك الدماء كما دفعته مقتضيات الأحوال الى الغيرة والحسد^(١)
وقد قضى حياته في تخوف ليس من تيجور فحسب بل من أسرة العثمانيين أعداء
السلطنة المصرية الجدد والقاضين عليها فيما بعد . وإذ كان الجزء الباقي من موضوعنا
يتوقف كثيراً على هذه الأسرة العثمانية أرى أن أورد هنا تاريخ نهوضها إجمالاً ،
وأذكر المكانة التي شغلتها في العصر الذي نتحدث عنه ولهذا سأقصر الفصل الآتي عليها

قبة برقوق



(١) لا يزال القبر الذي بناه لنفسه قائماً خارج القاهرة . ومن أعماله العامة الكثيرة قنطرة
أقامها على نهر الأردن

وعند ذلك طرأت أسباب دعت إلى طلب الصلح فدارت المفاوضات فرفض بايزيد طلباته معصياً، وطلب إلى حاكمه القتال فلافياً قريباً من « أنقرة »، فهزم بايزيد لمُحرب حيوته ونُسِر. وبقي أن تيجوراً حمله معه في فض من الحديد^(١) ولم يكن في مديد، حلفه « محمد الأول » في هذا الوقت الآن يحتفظ فقط بالجزء الشمالي من آسيا الصغرى أما باقي المملكة فقد أرجعه تيجور إلى رؤساء القبائل الصغيرة. ولما ضعفت الدولة الثانية إلى هذا الحد أمنت مصر جانبها مدة، ولكنها لم يمض وقت طويل حتى استردت كل أملاكها بين البحرين، الأبيض المتوسط والأسود؛ وتحدث نعم مصر ذلك لمعهم العدائي الذي كانت تبجته القضاة على سلطة المماليك بهدم مملوكة فخرية فخل أن تستأنف الآن علاقه تيجور بمصر وسورية.

١٢٢٠-١٢٢١-١٢٢٢-١٢٢٣-١٢٢٤

الفصل الثاني عشر

السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج بن برقوق

١٣٩٩ - ١٤١٢ م

ترجع الآن إلى القاهرة. لم يكن يتجاوز فرج بن برقوق الثالثة عشرة من عمره عندئذ، تولى الملك في وقت سيء، مملوء بالزراع في مصر، وبالمغرض والمغال في سورية. وقد دُعي المصريون في دى الأمر لإعادة بايزيد على «مطية» وغيرها من بلدان الحدود ولكنه ارتد عنها قبل أن يرسل إليه جيش لمقاومته. ولما رأى السلطان أن دمشق ومدن سورية حلفت طاعته بحجة أنه فصر، استدعى رجال الشريعة فأقروا بتبتيه في مركزه؛ وعرض أن هذا لم يصبح الأحوال بل صارت الحيات حطيرة، وغلفت أبواب القلعة في وجه نائب السلطان «نعمى بردى». وبعد أن نشبت الحرب بينهما وبين أحد أساطين هرا، وهرا إلى دمشق التي كانت هي وباقي مدن سورية مضطربة منه ومنه، ومعه دغضى. وأخير رُحِف السلطان الصغير في حاش قوى وضرب على يدي أنوار، وأُنادى له إلى تصابه بعض السبي، وعذب حاكم دمشق عدداً طويلاً. ثم دُعيه فأتاه، والحصول على ثروته؛ ثم قتله حشاً. وحررت روس أربعة وعشرين من الحكام المتمردين وعي عن آخرين. وكان من بينهم «نعمى بردى» وداد ثم سبوا والده سلطان له لأنه من صلالة شريفة.

وكان هذا في الوقت الذي وجه فيه تيجور بعد عروته الأولى لآسيا الصغرى - حينما حمله أنعمه سورية (كما ذكره في الفصل السابق) حتى حينما شعرت بذلك ومن شغبين مصر واستصرحها. ولكن كل ما أمكن عمله في تلك اللحظة أن أخبر الحكام أن يندموا جهدهم دواعي نفسها. وقد طلب إليهم تيجور أن يطلقوا سراح

(١) يشير «ويل» في كتابه إلى هذا النفس المعبد إشارة مقولة ويخرج من اشارته إلى نفس النتيجة التي ذكرها جيول (في صحيفة ٩٦ من المجلد الخامس). يقال أن تيجوراً عامل بايزيد مساهمة خاصة إلى أن دُعيه فصر. وهذه قصة حاشية في نص، شته عامة المحققين. حاشية حاشية مثل النص وذلك محافظة عليه.

يونيه
١٣٩٩

أكتوبر

أبريل
١٤٠١

الحرب

فصل الثالث عشر

الخليفة الامام المستعين بالله والسلطان أبو النصر شيخ الحمودى

١٤١٧ - ١٤٢١ م

عقد «شيخ» مجلساً في دمشق (وكان فرج لا يزال بالقلة) فولى «عباس» الخليفة الذى كان مع الجيش سلطاناً على كره منه، لأنه علم أن ليس لغير تركى أن يحكم، وأن هذا ليس إلا تدبيراً غير دائم دعت اليه الحاجة؛ فاشتراط لقبوها أنه ان خلع من السلطنة يجب أن يحتفظ بالخلافة. وكان خبر ارتقاء الخليفة «المستعين بالله عباس» الى أريكة الحكم رنة فرح وسرور في أرجاء دمشق؛ والواقع أن تلك كانت فرصة غريبة لأنها أتاحت لخليفة المسلمين، الذى أهمل أمره من زمن بعيد، أن يتوج (ولو اسمياً) وقد فرح نقابة المسلمين - الذين توقعوا لغرائهم استمرار هذا الحكم - بالاحتفاء بالخلافة وعودة السيطرة اليها كما كانت في الزمن القديم. **السلطان** وسرعان ما تبين لهم خطوهم لأنه لدى عودة الخليفة للسلطان الى القاهرة وصل

كل عامل تابع للحكومة. وفي الواقع سمح في القلعة؛ في حين أن استولى على أعمه الأمور «شيخ» و«نوروز» معاً؛ ولكن سرعان ما أغرى «شيخ» المالك صاحبه أن يطلب الإمامة على «سورية» وبهذا حصل هو على نفوذ مطلق في البلاد. وقد ثار ثائر البدو بعد ذلك بقليل فاتهموها أصحاب شيخ فرصة؛ وقاموا يطلبون وجوب تعيينه سلطاناً على البلاد لصالحه وصالح الحكومة؛ وعلى هذا خلع «عباس» لا من العرش وحده بل من الخلافة أيضاً؛ وأرسل مع أبناء فرج أسيراً الى الاسكندرية، وأقاموا أخاه «داود» خليفة مكانه. وقد بقي في سجنه حتى أخرجه خلف «شيخ» فماش في عزلة

أعلن «شيخ» حينئذ أنه السلطان وتلقب بالسلطان «الملك المؤيد أبو النصر

شيخ الحمودى». وكان برقوق قد اشتراه من نخاس شركى بثلاثة آلاف دينار فارتقى سريعاً من مملوك في القصر الى قائد الحبيج، فأمر على ألف. ثم عين حينذاك حاكماً على طرابلس. وبعد ذلك (كما رأينا) وصل الى العرش بواسطة الثورة والقتل. ولما علم «نوروز» بارتقائه الى السلطنة قام يقود سورية والأمراء الآخرين الذين أقروا الاعتراف بحق الخليفة المقدس، وأعلن حرباً مقدسة على من خلع؛ وقد انحاز «طمرطاش» وابنا أخيه الى جانب «شيخ» وكانوا عوناً له على هؤلاء؛ ولكن «شيخ المؤيد» خاف هؤلاء الثلاثة كثيراً لأنهم كانوا قواداً ظاهرين في الثورات الحديثة، ومكر بهم، منكراً فضيلهم؛ واستدعاهم لسبب كاذب الى القاهرة حيث قتلهم ثم صاح فرحاً قائلاً «اننى الآن سلطان حقيق بعد التخلص من هؤلاء الثلاثة». وبعد أن

تخلص «شيخ» من كل من كان يحشاه في مصر بوسائل السجن وغيرها زحف على دمشق فبهز «نوروز» لدى احتضن بالقعة ثم أتى الى السلم الى شيخ يتوحد فيه سظية ثم سبق عليه؛ وشهد عليه القضاة وكره الموطفين. ولكن بالرغم من هذا لم يلبث بعد ظهوره أن طرح في السجن بحجة غير مناسبة هي أن لغة اعمه لم تكن على حقيقتها، ثم قتل في السجن وعلق رأسه على باب القاهرة فار تايه حالمه هو وحكام سورية الآخرين؛ وكان قائد قلعة دمشق يواباً^(١) ولم يُخذ فعا قوامهم وهزموا. وفي قابل دار السلطان سورية فأمر بدخ الحكم المستعدين على مرأى منه. فكانت نتيجة سدة هذه، وفضحه يد من حديد على ادارة بلاد سورية، اننى أنشئ فيها أن عاد السلام الى انصبة في كل الولاية. وبعد قل «نوروز» دار «شيخ» خلوة الصه فبين السراقه. بين ونهد خلفاء ذكرهم الدينية وفيها نهد، على ما يقال، على حده في نفسه

دلت لأصول استرعى نظره ثانية. ذلك أن «محمد الأول» كان وقتئذ يسترد الأتومر الذى ارتفعه يهود من أبيه. ولكنه كال في ثلاث الآت. مسغولاً بكثير الاهتمام بما وراء البسفور. وكانت المعامل انى على الحدود الأرمينية قد حملت نير الطاعة

(١) في التتاع في أرضه سورية في يد نواد مستعدين من حكم المد

تاريخ الممالك (١٧)

المصرية أثناء الثورة في سورية. ولهذا خرج «شيخ» في ربيع عام ١٤١٨ وبرقته الخليفة^(١) وقاضى القضاة وحزب جيش قوى من حلب. فاسترد «طرسوس» والأقليم الذى تمرد. ثم زار بيت المقدس والأماكن المقدسة (خاصة) موزعاً الصدقات ثم عاد مظفرًا إلى حاضرة مكة.

وفي خريف ذلك العام نفسه، أغار «قره يوسف» على سورية ففرق أهلها ولا يعزب عنك أن هذا الرئيس هو «أحمد بن أويس» لما كانا حيين في سورية أطلقا من بينهما حولي موت تيمور. وقد استرد أحمد بغداد؛ ولكنه لما حلف بجيشه شمالاً هاجمه قره يوسف مدحه. جعل فيه «عبيد الحس» قره يونس. وبال انتصارات باهرة في الكردستان. ثم اشتبك مع قره يلك عند قلعة الروم فغلب عليه واقفى أثره إلى سورية فذعرت، وهجر الناس حلب. وقد وصل الذعر حتى القاهرة. وتقام الخطب فتركه السلطان الأمر الذى كان مهمًا به وهو الحج إلى مكة. وكان تجمع الجيش لصد. فمضت الأخبار أن قره يوسف ارتد على عقبه^(٢). ومع ذلك خرج عن حكم مصر الجزء الشمالى من سورية واستولى تركمان آسيا الصغرى

على الحدود. واستردوا «طرسوس». فأرسل عددًا من إبراهيم أكبر أولاد السلطان لاسترجاع ما فقد؛ فاسترجعه في غزوة عظيمة وقفل في ملاحقته حتى وصل مصر. فاستطاعه الحرية. ثم عاد إلى موطنه حافل إلى مصر. ومع ذلك جمع بينه وبينه من الأتراك. وقد توجه هذه الانتصارات بالعرف حتى أن أباه نظريه نظرة الحسد لم تكن نظارة الخوف وكان موته في العام التالى^(٣).

- (١) نجده الخليفة في هذه الأيام يتبع السلطان في حملاته الحربية هو وكبار ضباط القصر ولكنه ليس له من الأمر شيء. أهم الآن يبارك للجيش.
- (٢) قد أصبحت السلطان في ذلك الوقت تغييراً في النظام الحربي من شأنه أن يبين مركز المالك كمال الجيش يتكون من (١) جنود نظامية تقدم لهم الحكومة و (٢) ممالك الأمراء المحليين. وكان في سنة ١٣١٠ هـ السلطان يأمر «شيخ» فقامت هذه طاعة التجديد وكان الأمراء قد بدؤوا بفنل جنودهم إلى صفوف النظاميين فصدت في القنات. فضلاً هذا أعطى المالك الخبرة في البقاء في خدمة مولاهم الأمراء أولى الانسجام إلى الجيش النظامي.
- (٣) يزعم بعضهم إلى السبعين من أمة. ويتكبر هذا آخرون.

أمانة شقوة؛ لأن مصر هدها ثانية «قره يوسف» الذى طلب ارجاع الحلى العالية التى أخذت منه عندما أتى في غياة السجن. وعلى هذا أرسلت قوة لصد. وفى ذلك الحين لم تحرك هذه الأخبار السارة السلطان إلا قليلاً لأنه كان مريضاً قبل ذلك مدة وعند غروب شمس حياته عين «أحمد» ابنه خليفة له. وكانت

سنة سبعة عشر تمهراً وحل شهر «الطوفيق» الذى كان لا يزال مع الجيش السورى نائباً. وبخافة الهياج شيعت جنازة المني وجر الجمار الأخير بشكل مزججاً فلم يكف صاحب القناطر المنقطرة من الذهب والفضة إلا في عمامة إحدى حواريه. وكان سنة عد وفاته خساً وخمسين سنة حكم فيها ثمانية أعوام ونصفاً. وبمختلف الملاحق في الحكم على خلافه. فالمريرى شديد التكبر عليه وأبو الحسن معتدل^(١) في حكمه. وقبل توليته العرش كان سبباً في حدوث كثير من الرأيا فتله الأفس البرينة وبالدساس والثورة. ولكنه بعد أن جلس على عرش أعاد السلام إلى نصيبه بسنة ونجسته وحسن ادارته. ورد السلام وشيئاً من السعادة إلى ثلاث البلاد المملوكة الصغرى. وهو لم يك ميراً من الحياة. بذلك على ذلك حنة في تيمنه في موضوع جاذبة «توروز». أما القتل فكان في عهده أقل مما كان يرتكب في الأيام الخليفة. ولأنه كانت لا تزال تئن تحت انصراف الرفعة. واست تهورا الأمثال التى فيها من اس في وجه طالبيه. فأبدوا لأهلهما الحق وذلك بموجب قانون استثنائى سنة. وكانت المعهود كبير. ويتلاعب بعينها. فإذا دخل الحراية مال تدع حمله لأحد. فأمن سعر الدق. وإذا خرج هذا المال الدوايت أو سد القضاة جعلت فيه على. وأدت بقل من بريد. وبخه

- (١) وأبو الحسن بنى قنرى كان يحياى «الباط» وهذا لا يرب له أثر في الحكم على السلطان. وهو يقول أنه سنة ١٣٤٠ هـ «أبو يوسف» دخل إلى السلطان يوماً من الأيام وسأله شيئاً يأمر «شيخ» فقامت هذه طاعة التجديد أعطى لها أو دجها أو فاكهة أو حدى. فمر السلطان بغير وعظائم تيمنه ديار ووصل له وأما جاريها. وحياة (الباط) التى تلت هذا ردت إلى «أخارى» مع صاح «شيخ» وعلمه أقل مما تومر في «أخارى» إلى «أخارى» لا يرب.

ولئن استحق السلطان الثناء عليه لماضته الطلاب ولأنه كان شاعراً موسيقياً
هو جدير بمضاعفة الثناء لورعه وتقواه . واللقب الملكي الذي اشتهر به هو المؤيد^(١) .
ولما أصاب مصر الطاعون لبس السلطان لباس الدراويش وخرج يتبعه الخليفة
والقضاة وأمامهم الشيوخ وهم رافعون المصاحف، واليهود والنصارى يحملون التوراة
والإنجيل الى ضريح بقوق ثم يسجد على التراب ويسجد الناس معه . وبعد هذا وزع
الطعام الكثير على الفقراء . وشيئ بعد هذا أنه صام ثلاثة أيام ويسجد لله متوسلاً اليه أن
يرسل الى البلاد ماء النيل ، وذلك في وقت عم فيه القحط والجحاجة . ولما دعا له
أحد الناس بالبركة قال له : (لا تطلب معونة الله لي فاني هنا لست الا واحداً
من عبيدك)^(٢)

وفي خلال حكم هذا السلطان جدد الفرقة الفارة ثانياً على الاسكندرية وعادوا
بأسرى كثيرين وغنائم ؛ ولعل هذا بعض الأسباب التي فطنت من أجلها على
اليهود والنصارى إذ ذاك قوانين هي غاية في الصرامة^(٣) ولم يكن ينتظر غير هذا
من مثل يسوع عليه دينه . وقد كان من أعماله بناء مدرسة ومستوصف ؛ هذا الى انه
هو الذي جعل سجن الذي اقي في غيخته سناً الى مسجد مكي

١ -

(١) هذا اللقب يلقب عليه ويعرف به . وبه سمي المسجد الذي أسسه والذي لا يزال باقياً
بالقاهرة الى يومنا هذا . وقد بنى القبط اسمها جامعة حمايكه وأتباعه الذين سلبهم عنهم دائماً في
التزاع التالي

(٢) ذكر هذا الفرزدق عبارة متأراً فقال (إن رجلاً كهذا كان في مقدوره أن يأتي بما
هو أفضل من ذلك إذا كان راضع الاخلاص والامانة)

(٣) مع تلك النظم القاسية قد حظر على اليهود والنصارى حينذاك أن يستخدموا المسلمين
في أعمالهم

فصل الرابع عشر

أحمد - ططر - محمد - بوسباي الأشرف

١٤٢١ - ١٤٣٨ م

حمل لطف أحمد بعد موت أبيه من الحريم وهو يصرح . ووضع على ظهر حواد
ثم سار حشالاً الى قاعة الاحتجاج حيث جلي باسلطة^(١) ولم تكن سنه تبلغ السنه ونصف
السنه . وفي عيب لطوبه . ططر هو أمير آحر كان يسميه « سيج » بأنه نائب وقت
واستولى على أرمه الأمور ، واستأهل الجيش الى جابه باغد في الحياه عليه من الكنوز
التي جمعها « سيج » . وبوئيه واحدة أرسل كل من كان ينفذ مقيدين بالأغلال الى
الاسكندرية ؛ ثم أخذ بيد الطفل الصغير ليوقع بها برأه بابه عنه في الحكم ؛ وبذا
اعترف به الخليفة وأولو الأمر في القاهرة بأنه نائب السلطان . فقامت ثورة ضده في
سورية ؛ واضم اليها « الطوبه » الذي كان بعد نفسه النائب الخفيق ؛ ولكنه في
آخر الأمر حصه لطار . وانقلب على حاكه دمشق التائر فجعله يفر أمامه ؛ وكان يوالى
ططر بخبر انتصاره في حيه . ولم سافر ططر الى سورية رجب به بلب « نائب »
عند دخوله دمشق . ومن غريب تكرار ططر الجميل أنه فبه وقتله مع أمراء آخرين
كثيرين كان ينفذ . وبعد زيارته حبس عاد الى دمشق فارتكب فيها القتل تأيماً .
وكذلك فعل في القاهرة ؛ وذلك له أمر بان يقتل كل من كانوا لا يراون يسمعون
الى أسرة « سيج » . ولم من هذا الأمر المبالغ بالدماء المتفاوته حاله الطاهر أحمد

(١) وانه اناب هؤلاء الأبطال لصلاحهم . يستلزم الانسان من الطفل الذي يمن
بصدده ترف به « ملك ططر » . ولدى مده وهو ولد في سن المائنه « ملك الطاهر سيف
لرس » وقد امتعت فهدا من تحمل هذه الصيغة بالانساب الجوده . أعطى لسلطان الاطفال
مما يث الامس عكم على الامه في الترف

واستولى هو على السلطنة. وفي الشهر الثاني عاد الى القاهرة فاستقبل فيها بأفراح ظاهرة. وبعد ذلك بقليل مرض فميت ابنه محمداً « وهو طفل في العاشرة من عمره » خليفة له وجعل الوصي عليه « برسبای » الجركسي مثله، وجعل النائب عنه « جاني بك »، وقد مات بعد أن حكم ثلاثة أشهر^(١)

وقد منى الأمير محمد علي من كان مستظراً من برسبای المنسولي على جمعة من علي، حتى مات، وعلى أمهاته الآخرين، ونجده الذين يرثون في مصر، وجمعهم جميعاً في الاسكندرية ثم انفيهم عن مصر الى العرش بعد نصف سنة من موت « الظاهر ». وبعد أحمد محمد من الحرب المدومة وفي مصره آخر من لاس. فميت هذا مدعوماً من صبي صغير فقد روج وسمح له بحكم في مصر^(٢). على حين قطع كل هذه العتدة التي كانت تعدو على ممالك السلاطين. ومما حجب « برسبای » إلى الناس اصداره مرسومات جديدة ضد اليهود والمسيحيين، والسماح لكل من يقرب منه بتقيل يده أو تقيل يده

توبة بدلاً من تقيل الأرض كالتبة المتبة من قبل^(٣) وقد انتشرت السكينة في أرجاء الأمبراطورية في خلال العلم ونصفت العلم للفتح تلا ذلك، حتى وافق خريف سنة ١٤٢٣. وفيه حدثت ضجة بسبب هزيمة

الجن الذين أوقفهما بالناس؛ وبقى مجهولاً أمره مدة طويلة - ولكننا نسلمع الكثير عنه فيما بعد. كانت سورية في هذا الوقت أقرب الى الولا منها في الماضي.

(١) كان ططر مثل برسبای ملوكاً جركسياً ينفرون وقد فكك رقبته وادخله فرج الى الجيش ثم اتى به الأمير أن جده « شيخ » أميراً وكان تحاسة عليه الفقه والقانون لاداء المالك البارزين بالآداب أو الدين أو الفلسفة أو الصناعة كانوا يهاجرون بأمان عالية.

(٢) كانت أسر وبناء السلاطين البارزين الى ذلك العهد يعطون مكنتاً في القلعة ولكنهم من ذلك التاريخ طردوا منها وسكنوا المدينة بعد

(٣) الى هذا الأمر ولكن بدلاً من تقيل الأرض كانت الحال فلا سمح لأى انسان من السلاطين أن يمس الأرض يده أولاً ثم يهبها

والحق أن حاكم « صفد » قد ثار عند خلع ابن ططر ولكنه أرسل اليه السلطان وعداً كتابياً أقسم فيه أن يعطيه ولاية طرابلس فاستسلم. ولم يلبث الأمير المخدوع حين لبس ملابس الشرف وسلم القلعة حتى قبض عليه وقتل^(١). وفي العام التالي أصاب حاكم دمشق الثأراً ما أصاب هذا

ولم كانت سورية هادئة في هذا الوقت وحده « برسبای » التفاته الى قرمان البحر الذين بدأوا يزعمون عداوتهم سواطى سورية ومصر، وقد أخرجت عدة مراكب مسلحة، يعوددها مخاطر من ذهب الانتقام، الى قبرس قبضوا « ليماسول » وأخرقوها، وعدوا بالأسرى والعنائم الكثيرة. فشنج هذا السلطان حتى جهز في قبل أسطولاً بالجدد الكثيرين ففزلوا على « فياغوستا » فحرقوا العدو ونهبوا « لارافه » و « ليماسول » وعدوا حافرين الى القاهرة ومعهم ألف أسير^(٢) وغنائم شتى ولم يكن يقصد السلطان الى سن عدة من هذا النوع بل كان يرمى الى فتح

لجيرية؛ ونفذاً لهذا الغرض أرسل وقتند قوة لا تقهر، تقدمت بعد استيلائها على « ليماسول » نحو « لارافه » وحدث الملك « جانوس » أسيراً. بعد أن هزمت الجيوش العفرسية، وعادوا الى القاهرة ومعهم كثير من الأسرى والعنائم المختلفة فدخلوا نغمته على « بوسه » لويه العفر؛ وكان ذلك في حاضرة العاشية وسفروا الأنجاب. وكانت العنائم محملة على الجمال ومعها تاج ملك « قبرس » وجواده، والأعلاء التي استولوا عليها في الحرب. والأسارى من الرجال وبنات والأطفال، وبناتهم جميع، الملت الذين قتل - وهو برسف في الأغللال الأرض لدى أقدام السلطان، ثم خرج مشياً عليه - تحمل الى معامه. وفي بهية الأمير در ففضل « البدقية » وسواه من القاصل فداء الملك الأسير فأطلق سراحه وأمنه عليه. وبمكى جميل

(١) قتل سنة من رجال الخديوة وقطعت أيدي ثلاثين، وقد مثال عجز لالوشية

(٢) تبع الأسرى بهم. وأكل مما ذكر ردهاً ساعطاً على رجة برسبای أنه حرم بيع

الأطفال أو القرابة القريبة بدون أن يسع معهم. أعادهم من يوفهم

عطش
١٤٢٤

الحرب
١٤٢٥

١٤٢٦

١٤٢٢

١٤٢٣

١٤٢٧ وجود، وسمح له بالعودة الى قبرس فكان من ذلك العهد تابعاً لسلطان مصر^(١)

١٤٢٨ وقبل ذلك بضع سنين كان شريف مكة قد خرج على الدولة فأرسل اليه

جيش أعاد نفوذ مصر على مكة ومينائها «جدة»، مما زاد في سرعة الاهتمام بتجارة

المشرق، وكانت «عدن» من زمن بعيد الميناء التجاري العظمى، غير أنه قد لجأ

اليها زعيم موع بالمخاطر دخل الى البحر الأحمر في هذا الوقت وضيق على موانئ

مختلفة وراى مجار باب المندب. وهذا الرجل اسمه ابراهيم بن هالى «فليوط»

وكان لتجار هذبنا يقرون من هذه الموانئ لما يلقونه فيها من العنف، فصار

«حدة» تجسس معاملة المراكب المتحدر، وبذلك لعنف في «عدن» الميناء المعترف

به، وصررت مكة المكرمة لسوق العظمى للتجارة الشرقية^(٢). والحق أن السلطان حذر

كثيراً في اتخاذ جميع الوسائل لمنع تحول الامكنة المقدسة الى مخازن تجارية، غير

أن الأمور اتى على عكس ذلك إذ أنه - كما يقول المقرئ - قضت مسالك التجارة

- مع أن رغبة الناس جميعاً في أن تكون مصر طريق المتاجر كلها مطاً عرفى في

سبيل من المخاطر - بأن تكون كدالك مع ما فيه من تعرض مع حرمة التعمية وفداسهم

وقد صدر في ذلك الوقت قرار مؤداة أنه يجب ان تحمل التجارة القادمة من

أى جهة عن طريق بلاد العرب أو سورية أو العراق أولاً الى الاسكندرية يستقر

١٤٢٨ القاهرة، وفيها تفرض عليها الضرائب. وقد احتكرت الحكومة التوابل الشرقية

وخاصة الفلفل، فلما ذلك دول أوروبا الى الشكوى والانتقام. وقد أثقل كاهل

الناس عبء آخر وخاصة في زمن الوباء وهو التضيق على صناعة السكر بل على

زراعة القصب^(٣)؛ والحقيقة أن الحكومة دخلت في كل شيء من فروع التجارة.

(١) كانت الدية ثلثة ألف دينار وجزية سنوية مقدارها عشر ألأ. كان أبو الحسن

للأوخ شاهدة هذا، ورغم تصبه امتدح ذكاء الملك وعله وزاد على ذلك انه كان يعرف الرمية

(٢) أن ما كان يؤخذ من الرسوم على حولة أسطول مكون من أربعين سفينة يبلغ

٧٠ ألف دينار

(٣) كان السكر في زمن الطاعون يوصف دواء للمرض أو وقاية منه

وكانت تراقب الأسواق - حتى أسواق اللحم والقمح - مراقبة أدت الى أن

هجرها الناس أحياناً هجراً نجم عنه الهياج والثورة. وأسوأ من هذا كله مظالم المالك

الباغين الطغاة الذين أوردوا الناس موارد الارهاق حتى كانت النساء قلما يجرؤن

على الخروج من البيوت. وعلى الجملة كان الارهاق بالغا مبلغه في كل الجهات؛ فمن

ذلك أن خيل الفلاحين كانت تؤخذ منهم قسراً الى الجيش. وفي الحقيقة انتشرت

اللعيب والأعباء في أنحاء البلاد كافة حينذاك في أوفاء السلم وراى وطنها على

ما كانت عليه في زمن الحرب

١٤٢٨ وفي الجزء الأخير من حكم «رسبى» توترت العلاقات وكثرت الحروب بينه

وبين دول المشرق ولشمال؛ وأغرى على الحدود لسورية «قرويلك» زعيم التركان

الذى كافأه «تيجور» على خدماته بمنحه «سيواس». وفارست مصر جيشاً ليعيد

النظام الى نصابه فحاصر «ارها» التى سماها ابن «قرويلك» على شرطه أن

لن يخرج منها مسلماً؛ غير أن جيوش المائيت فتحوا الأبواب بهيجية وأطلقوا يد

التخريب والنهب وبين أيديهم الاضطراب والقتل، فكانت مخير المدينة

محزنة اذ حمل النساء المكابن، اللاتي داسن شرفهن، مع أطفالهن ليؤمن مع

«رفيق في حب». وكاب أعجب شئ أن يرى نصراني في أرمينية أوفى تلك

الجهات مطلقاً

وقد أثبت هذا الهجوم على كل حال الى مدته، لأن الحدود في تعاليم الوحشية

لم يربحوا شيئاً، ووقع بينهم الارتباك فقرروا وتدو ادراجهم الى سورية كأنهم

قارئون؛ فقام «قرويلك» ينتقم ويخصم منه من أبدى المصريين. فأغار على

مدن الحدود وخربها ثانية. ولما كان يعاضده «لشاه روح» بن «تيجور» دمر أهل

القاهرة. غير أن الوباء والقحط وقف تلك الحروب وبمما سترارها في ذلك الحين

وفي السنوات التالية جرت مكاتبات غير ودية مع «التياد روح» الذى كان

يطالب بأن يكون له الحق في تقديم الحكومة لأكمة، فحاجه السلطان على ذلك

تزوج ابنته (١٨)

كانوا يسمونه (١) كبيراً، ويهدد مرض فتح أبواب السجون على مصاريهم «طريقة عجيبة للتوبة» فرض المدينة بهذا العبث المحرمين والصوص. ثم دخل الطاعون القلعة فأصاب الطبقتين، العليا والسفلى جميعاً من أميرات الى جوار، الى خصيان، الى مماليك. وكان السلطان نفسه، مع أنه نجاً من الطاعون، يشكو مرضاً آخر ولم يشف طيباءه الشر. بفان المحترمان أمر بهما قطع رأسهما في محضر شيوخ المدينة، ولم يقبل فيهما شفاعتة حاشيته لها. وبعد أسابيع، عندما شعر بدنو منيته، نصب ابنه «يوسف» خلفاً له، وجعل الأمير «جقمق» وصياً عليه، ثم استدعى اليه وجوه المماليك ووجههم طويلاً باللغة التركية على قسوتهم وانفاسهم في الشهوات، وأمرهم أن يخلصوا الولد؛ ثم لفظ الحياة

وصفقه المقرئ ذاماً بأنه ما كرقاس جشم غشوم. وقد رأينا أنه لم يتردد لدى كل فرصة في أن يخلص من أعدائه بدعوى الخيانة. وكل ما يمكن أن يقال خيراً فيه، أنه مع ما تقدم، لم يك سيئاً مثل كثيرين ممن سبقوه (٢)

أول يونيو
١٤٣٨



صورة برج السرايا

(١) كانت الفرائض الثقلية على اليهود والنصارى قبل ذلك الوقت يقوم بالنظر فيها موظفون كبار متدينون، ولكن عهد بها حينئذ الى أحد سقاة الناصر فامتص دماء النصارى المساكين بدون استحياء (٢) لم يلق المقرئ النشيع من البلاط في حكم هذا السلطان، وأمل هذا من الاسباب التي جعلته يقسو في حكمه عليه. «ما أبو الحسن الذي كان محبوباً هناك فهو بالطبع أكثر اعتدالاً في حكمه. والمؤرخون الآخرون يقولون أن صلاحه وصيابه لم يكونا الا نفاقاً

فصل الخامس عشر

يوسف بن برسباى - الملك الظاهر جقمق

١٤٣٨ - ١٤٥٣ م

أول يونيه
١٤٣٨

مع أن «يوسف» كان في سن الخامسة عشرة تقريباً فإن مصيره كان قصير سافه الطفل، فإنه بينما كان «جقمق» يظهر، دعاه لوليه استولى على إمامه وضم إليه الجبهة تدريجاً حرب الاسرفيين المخلصين أبت السلطان^(١) السابق. ولما عاد الجيش بعد هيل من حملته الاسبوية حلف قائده «فرقيس» إذا أصبح أن «جقمق» يحول أن يحصل له على التاج. ولم أوعز إلى هذا القائد المحدث، أن يقترح في اجتماع المجلس اسم «جقمق» للسلطنة، فعلمه. وكان دهنه عظيماً عنده، وافق الأمراء بالإجماع على إفراحه وأدوا في الحال بتدفعه سلطاناً، وهذا صنع «يوسف» بعد أن حكم ثلاثة أشهر أو أربعة، ثم سجن في القلعة

و «جقمق» هذا، مملوك چركمى من مملك «برقوق» وكانت سنة أذاك خساً وثلاثين سنة. وقد ارتقى مثل أسلافه من مملوك في القصر إلى أكبر مناصب الحكومه. وقد اضطر إلى طاعة الأميرين. إلى أن أصبح جميعاً هدف كبر لم يحميها قاصرة على عياليه كما كان متبعاً إلى هذا الحين. فلما رأى «فرقيش» تفوق «جقمق» عليه، جمع حوله الاسرفيين، وحاصر القلعة فقلب وقبض عليه

(١) بدأت الحرب المماليك في ذلك الوقت تسمى بأذن السلاطين الذين يتناول اليهم أو الذين كانوا متدين لهم قبلها : فطائفة الاسرفية تالت اسمها من اسم يرباس الاسرفيه . والطائفة سيرة اسمها سنة في برقوق لدى دانه ، وأب جقمق أحد الظاهر . والمؤيدة اخذوا اسمهم من «شيخ» وايضاً «احمد المؤيد» - هذه هي أهم الاغزاب التي جعلت القاهرة وقتئذ في هياج مستمر . وكانت هناك اغزاب اخرى كالناصرية اى توابع السلطان الناصر وكان الاسرفيون والظاهر يول يتقدمون ايضاً إلى حزب قديم وحزب جديد

وأرسل في السلاسل إلى الاسكندرية فبقى فيها بضعة أشهر حتى حكم عليه بالقتل همل عراً في المدينة، وقطع رأسه على مرمى من الناس، وقد وقع الأذى والقصاص على جل الاسرفيين وقتئذ، وعذب الاسكندريون منهم، ودخلوا، وفي الباقين إلى الجهات الباقية. ثم بعد هذا هدأت المأوئة في العاصمة في تلك الفترة

أما الحال في سورية فكانت على العكس من ذلك. ولو أن «جقمق» طلبه للسلطنة حتى ينال ارضه، هلك كما علم له لعل على حكمته وبعد نظره. وقد انهم حاكم حلب إلى الثائرين، بعد أن تظاهر بالطاعة عدة أشهر، وأعلن إعادة «يوسف» إلى السلطنة، وشن الغارة. وفي تلك الفترة هرب يوسف من القلعة في رى طاهر مساعدة خصيه ومرضعه وجارته، ولكنه لما لم يجد المعونة الكافية رجع واستخفى فبضيق «جقمق» لهذا كثيراً، ولكنه بعد أن عذب الحفى والمرضع وآخرين. كسفت امر الشاب وجي به بين يدي السلطان الذى أحسن معاملته (وكان «جقمق» في هذا حيراً من معظم بني حسنة) فان يوسف أرسل إلى الاسكندرية وعش في راحته تحت المراقبة. على أن يظهر يوسف في ذلك الوقت كان مسعر النار الفتنة في سورية فوقع قتال كبير في كل أرجائها. ولكن التوار هزموا في حلب ودمشق. أما رحمة الثورة، وهم كدهم المملك المحدث الشاة. فبعد أن عذبوا لكي يعترفوا بدلبهم من الثروة، فلما بلا رحمة وكثيرون من اتباعه. وقد أقيمت الأفراح في القاهرة عندما عرش رأس حاكم «حلب» في الطرقات ثم علق أخيراً على باب المدينة. أما جنود الاسرفيين الذين كانوا مستعفي في الوجه القبلى فنداهة البدو فقد انضموا إلى الثائرين ولكن كان مصيرهم في آخر الأمر قصير المتربين في سورية ولما قصت الثورة، وزع الأمراء الكنديون الذين كانوا لا يزالون سجيناً في الاسكندرية على الأرجاء المختلفة البعيدة من الامبراطورية سواء الأمن من أن يعتنق به. وهذا لم يتصف العام حتى أعيدت السكينة إلى مصرها.

ولما رأى جقمق في ذلك الوقت أنه أصبح مملاً مطعوناً في البلاد، وحه حيوته

مراير
١٤٣٨

مايو

الفصل السادس عشر

عثمان بن جقمق الأشرف اينال^(١)

١٤٥٣ - ١٤٦١ م

فبراير
١٤٥٣

عُثْمَانُ بْنُ جَقْمَقٍ مَعَ لَهْ كَانِ فِي الثَّمَنَةِ عَشْرَةَ مِنْ عَهْدِ لَمْ يَكُنْ
حَبِراً مِنْ أَبْنَاءِ السَّلَاطِينِ السَّالِفِينَ الَّذِينَ ارْتَقَوْا عَرْشَ السُّلْطَنَةِ . وَعَلَى قُسُوتِهِ وَغُرُورِهِ
وَجَشَعِهِ خَضَعَ لِنُفُوزِ مَمْلُوكِهِ ؛ وَلَكِنْ رَفِضِي أَطْلَاعِهِمُ الْأَعْيُنِيَّةَ خَلَعَ وَزِيرَهُ الْأَكْبَرُ
ثُمَّ أَمَرَ بِجَلْدِهِ وَتَضْيِيقِهِ . فَأَثَارَتْ هَذِهِ الْمَعَامَلَةُ الْحَزَنِيَّةَ غَضَبَ كُلِّ الْأَحْزَابِ الَّتِي حَوْلَهُ
وَهَؤُلَاءِ كَالِهَمِ ، بَعْدَ مُوَافَقَةِ الْخَلِيفَةِ ، انْتَمَرُوا بِجُلُوعِ الشَّابِّ الطَّاعِيَةِ الَّتِي انْفَضَّ كُلُّ
بَشَرٍ مِنْ حَوْلِهِ لَمْ يَسْكُنْ لِحَدَثِهِ ، عَلَى أَنْ يَرْجِعَهُ إِلَى عَرْشِ مَكَّةَ «اَيْنال» قَائِدَ
الْأَسْطُولِ عَلَى «رُودَس» ، ثُمَّ هَوَّجَتْ الْقُلُوبُ وَبَعْدَ حِصَارٍ دَامَ أَسْبُوعاً دَخَلَ عَلَيْهِ
بَشَرٌ مِنْ بَنِي السُّلْطَنِ الْمُتَحَرِّينَ^(٢) قَرِيبَ عَشْرَةِ أَلْفٍ مِنْ حُرِّهِ ، فَتَمَرَّدُوا بَعْدَ
سَبْعَةِ أَيَّامٍ وَأَسْلَمَ سَيِّدُ بَنِي الْأَسْكَدِيَّةِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ سِرَاحَهُ فِي السَّوَادِ الْمَلَابِيَةِ .
لَمْ يَزَلْ بَشَرٌ مِنْ بَنِي السُّلْطَنِ يَدْعُوهُ بِكَرَمِهِ ، فَكَانَ جَهَالاً إِلَى حُدُودِهِ لَمْ يَسْتَطِعْ
كَدَمُهُ تَحْدِيدَهُ ، وَكَانَ مِنْ أَسْلَافِهِ تَحَاكُمُوهُ مِنْ تَحْتِهِ عِلَالَةً حُرَّةً . ثُمَّ قَاتَلَ رَجُلُهُ
وَفِي سَنَتِهِ حَتَّى صَارَ مُدْعَاً بِحَدَثِهِ وَبَحْرِهِ . وَبَعْدَ حَقْبِهِ لَمْ يَكُنْ لِحُسْنِ
حَالِهِ أَيْنَ عَرِيكَتِهِ ؛ وَمَرْضَاهُ لَمْ يَجْعَلْ لَمْ فَرُوضاً عَلَى الْخِزَانَةِ حَتَّى أَفْقَرَهَا إِلَى حَدِّ
بَشَرٍ مِنْ بَنِي السُّلْطَنِ . وَكَانَ مِنْ بَنِي السُّلْطَنِ بَعْضُهُ يَدْعُوهُ بِكَرَمِهِ .
أَمَرَ بِاتِّقَامِ جَمْعَةٍ عَلَى الدَّلَاةِ طَلَبِ حَرَاكَةِ السُّلْطَانِ ، بِكُلِّ وَاقَاعَةٍ ، جَالاً أَكْثَرُ ؛ وَلَمْ يَلَمْ
(١) كَالِدُ كُلِّ مِنْ اَيْنَالِ وَجَقْمَقٍ يَمْسَى «الْبَلَالِي» لِأَنَّهُمَا اشْتَرَا مِنْ تَاجِرٍ اسْمُهُ عَلِيٌّ وَكَانَ ذَلِكَ
بِسَيَانِ (الظَاهِر) نَسَبَةً إِلَى الْحَرْبِ الَّتِي جَاءَهُ مِنْهُ
(٢) طَلَبُ الْبَلَالِي

يوليو
١٤٥٥

تَقَطَّطَ لَمْ تَأْرَوْا حَوْلَ الْقَلْعَةِ ، فَأَنْفَضَ إِلَيْهِمُ الظَّاهِرُونَ الَّذِينَ أَنْغَرُوا الْخَلِيفَةَ أَيْضاً
بِالْإِسْلَامِ إِلَيْهِمْ ، وَأَنْ يَقْتَرَحَ رَجُوعَهُ إِلَى حَقْمَقٍ إِلَى الْعَرْشِ . فَكَانَ هَذَا مَسْبِغاً إِلَى
مَمَالِيكِ السُّلْطَانِ فَشَلَّتِ الثَّوْرَةُ فِي آخِرِ الْأَمْرِ وَأُرْسِلَ الْخَلِيفَةُ حَبِيباً إِلَى الْأَسْكَدَرِيَّةِ^(١) .
وَمِنْ ذَلِكَ الْحِينِ طَرَدَ كُلُّ الْمَمَالِكِ مِنَ الْقَلْعَةِ عَدَا مَمَالِيكَ ، كَالِ السَّافِلِ . وَكَانَتْ
يَدُ اَيْنَالِ الضَّعِيفَةِ غَيْرَ قَادِرَةٍ عَلَى دَوْعِ الْمَمَالِكِ ذَوِي الدَّعَاةِ الَّذِينَ كَانُوا يَتَهَافَتُونَ
عَلَى خِدْمَةِ الْأَمْرَاءِ . وَكَانَ عَسَافِيٍّ وَحِدُهُ ، طَوَالَ هَذَا الْحِكْمِ يَقْصُرُ عَنْهُ الْوَصْفُ ،
فِيهِ لَمْ يَقْصُرُوا عَلَى تَخْرِيبِ الْبِلَادِ وَنَهْبِهَا ، بَلْ هَدَمُوا كِبَارَ الْأَمْرَاءِ وَسَلَبُوا قُصُورَهُمْ .
وَكَانَ السُّلْطَانُ نَسَمَةً يَخَافُ مَمَالِيكَ الْحَاكِمِ حَتَّى لَمْ يَبْعُدْ بَرْدُ الطَّعَامِ فِي عِيدِ
الْأَصْحَى عِلَالِيَّةَ حَنِينَةِ اعْتَدَتْهُ عَلَيْهِ ، وَاضْطَرَّ إِلَى أَنْ يَنْزِلَ بِبَنِي حُدْرَانَ قُصُورِهِ .
وَفَكَدَتْ^(٢) الْخِزَانَةَ وَانْتَبِزَ عَرُوشَ الْحَدَاةِ فِي الْخَوَانِسَاتِ وَهَجَرَتْ الْأَسْوَاقَ ،
وَوَهَّشَتْ الْإِصْلَاحَاتِ التَّحَرُّيَّةَ وَالْإِلَامِيَّةَ مِنْ حُرَّاءِ هِيَاجِ هَوْلَاءِ الْمَمَالِكِ التَّائِرِينَ . وَكَانَ
الْأَمْرَاءُ لَا يَسْتَطِيعُونَ دَفْعَهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ . وَحَدَّثَ مَرَّةً أَنَّ فَتْحِي ثَمَرَ السُّلْطَانِ فِي
مَمْلُوكَةٍ تَهْدِيهِ هَاجَ فِي الْقَلْعَةِ وَبَشَرُ الْحُجَارَةِ حَتَّى هَرَبَ بِصُعُوبَةٍ جَارِيَةٍ إِلَى الْحَزِيمِ
حَافِياً - وَفِي آخِرِ الْأَمْرِ اضْطَرَّ إِلَى إِجَاعَةِ طَائِفَةٍ الْفَاحِشَةِ تَهْدِيهِ هَاجَ ، فَقَتَلُوا أَمُوراً ،
وَبَشَرُ الْمَمَالِكِ . وَهَبَّوْهُ كَأَيِّهِمْ . وَفَضَحَ الْكَوْنُ بِطُلُوعِ الْبُغْضَةِ مِنْ
بَشَرٍ ، لَمْ يَكُنْ لِمَنْ يَدْعُوهُ كَأَيِّهِمْ دُونَ الْبَشَرِ ، وَبَعْضُهُمْ غَدَّ حَتَّى بَالَ الطَّلَابُ مُرَادَهُ
وَلَا يَنْهَوْنَهُ إِلَى الْحَالِ .

١٤٥٨

وَكَانَتْ لِبَشَرِ عَرِيكَتِهِ هَاجَ سَنَتُهُ حَتَّى فِي خَمَاسَةِ حَمَرٍ ، وَلَمْ يَحْصُرِ السُّلْطَانُ عَلَى
دَوْعِ الْأَدَى حَمَرٍ . وَبَعْدَ ذَلِكَ الْبِلَادِ طُلُوعِ مَمَرٍ ، وَبَشَرُ طَائِفَةِ السُّبُودَةِ لَمْ تَحُلْ
دَوْعَ طَائِفَةٍ هَذِهِ ، وَفِي سَنَتِهِ لَمْ يَلْتَمِمْ أَمْرَ رَحْمَةِ الْمَمَالِكِ فِي طَرِيقِهَا لَمْ يَهْوِ أَمَالُهَا

(١) بِدَرْيَا . لِأَنَّهَا بَعْدَ الْعُرُودِ بِبَشَرٍ مِنْ حَرِّهِ الْأَكْبَرِ مِنْ قَبْلِ غَضَبِ
بَشَرِهِ فَكَانَ مَمَالِكُ الْبَشَرِ كَمَا كَانَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ عَمِلَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَكُنْ مَمَالِكُ الْبَشَرِ ، فَكَانَ لَهُ
فِي حَمَرٍ بَشَرَاتُ

(٢) فَكَدَتْ بِبَشَرَاتِ حَمَرٍ مِنْ كَرَمَاتِ بَشَرٍ فِي الْمَمَالِكِ وَأَسَادُوا مَمَالِكَهُمْ وَهَاجَ ذَلِكَ
مِنْ بَشَرِ الْبَشَرِ وَبَشَرِهِ عَلَى مَمَالِكِهِمْ مِنْ ذَلِكَ دَرْيَا

الموق واشتوا بضائعهم - وأخيراً وصل الواب إلى القلعة فاقتال مجاهير كثيرة من الفالطين المبتضين داخلها وخارجها . وهذا قصاص لأعمالهم المردولة وأمان وقفي للسكان^(١)

١٤٥٩

ولم يك نفوذ الممالك مقصوراً على الشؤون الداخلية بل تخطت طلباتهم الموجهة إلى الشؤون الخارجية ، ولدنيا مثال في قبرص التي كانت خاضعة إذ ذاك لمصر ، فإن «جيمس» الثاني رئيس أساقفة نيقوسيا والابن غير الشرعي للملك المتوفى ثار على الملكة شارلوت ثم هرب إلى مصر فاستقبل فيها بمفاوة . وكان السلطان في أول الأمر يميل إلى معاضدته ، ولكن بعد أن برهنت الملكة على حقها وعرضت أن

١٤٦٠

تريد في الجزية عدل عن رأيه وأصدر مرسوماً بتثبيتها على الملك ، فاستاء الممالك^(٢) وتجمع الزعاع حول رسالها ، وهاجوا هياجاً خطراً حتى رأى إينال حين لم يستطع المقاومة أن يهجر أسطولاً ليجلس جيمس على العرش فكان نجاحه في هذا قليلاً لأن البابا

١٤٦١

وولاية سافوي ساعدا شارلوت . وفي أثناء تهيؤ حملة أخرى مالت الباطلان^(٣) وفي آخر الأمر احتفظت الملكة بعرضها وفيت الأحوال كما كانت من قبل تقريباً . وكانت علاقه ببال بالدول الإسلامية التي حوله حبة جداً وخاصة مع مراء آسيا

الصغرى وحدود أرمينيا . وقد وصل رسول من قبل «الوير الأبيض» ينسب نفسه على «الوير الأسود» الذي كان رئيسه قد أساء إلى مصر إذ أكرم حاكمه عصباً لها . وكانت هذه هي العزوة الوحيدة في خلال هذا الحكم - عدا عزوة قبرص وعدة معاقبة

١٤٥٧

عصابات البدو الذين أغاروا على مصر السفلى - ضد رئيس كومان الذي اعتدى على حدود سورية واستولى على أطنه وطرسوس ، وعلى هذا أرسل جيش إلى آسيا الصغرى لخناصر قونية وقيسارية وخرب أرضهما ، ولم يبق على مسجد أو مدرسة ، فسلمت كومان من غير قتال وأعيد الجبل إلى نصابه في العام التالي

(١) ذكر هذا أبو الحسن هاجباً

(٢) ضلوا هذا لظنهم أن جيمس ابن شرعي للملك باعتباره ابن جايوت والدن الإسلامي
بشر حق ابن الجارية

٢٩ مايو
١٤٥٣

وفي أثناء ذلك كانت قد سقطت القسطنطينية وصارت عاصمة الحكومة التركية ، فكان خبر سقوطها والنجاح الذي ناله العثمانيون عقب سقوطها في الصرب باعثاً على الفرح الشديد في القاهرة ، واحتفل له الناس عدة أيام حفلات فخمة ، ولم يدروا أن سيكون الأتراك في القريب العاجل أعدائهم . وقد سارت الوفود بين الدولتين تحمل الهدايا عدة مرات . ورف إينال إلى محمد الثاني . فمره البورطانيين ، التها في قصيدة ملكية ، ومعها رسالة متممة

وكان حكم إينال يمد فشلاً جزئياً في داخل البلاد أكثره عنف الممالك الذي لا جامع له . وما لاشك فيه أن الظلم والتعذيب والقتل قد قل على يد السلطان وعما له عما كان عليه قبل ، ولكن لم يأمن أحد على نفسه من الممالك . وكان النصوص الحفيقيون والسارقون ينزبون بزيمهم كي يتمكنهم أن يسرقوا ما ساءوا وهم آمنون ، فنتشأ عن ذلك لأول مرة أن بدأ الأغنياء والفقراء يحافظون على أمتعتهم وأموالهم ببحر الخنادق و«بيت» الأسوار حولها . وقد ذم شعراء العصر حكم إينال وبالقوا لأنه لم يكن شجاعاً فحسب بل كان أمياً جاهلاً . وقد ترك أسرة من روج واحدة ، (وهذا) استاءه قريب في هذا العهد ، لم يكن لها أي منافع . ويجب أن يسدل القناع على حياة السلطان وغائبته من الوجوه الأخرى لأنها مخزاة لا تنظرها الأتلام

١٤٦١

وحسن سمر إينال بدو منته استدعى الخليفة والعلماء ، ولما لم يستطع الكلام عنهم بالتركية مشيراً إلى أن ولده أحمد الصالح السن يجب أن يكون حليفته . وعلى ذلك قدمت له الطاعة في الحال في فاعة الاحتفاء . وهكذا قضى إينال نخبه وهو في سن الخمسين بعد أن حكم ثمان سنوات

✽ خاتمة الجزء الثاني ✽

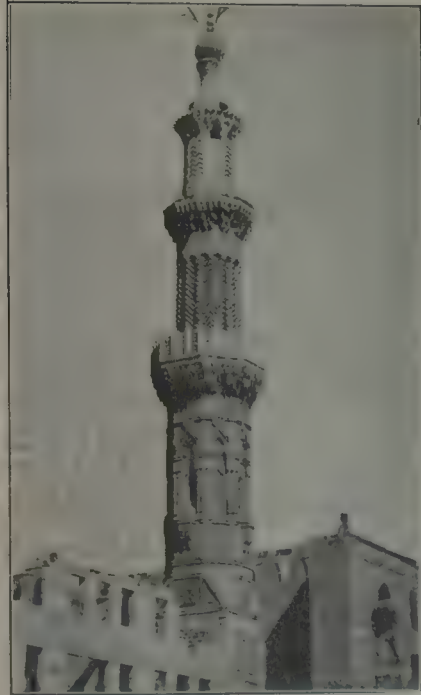
الفصل السابع عشر

احمد بن اينال الظاهر خشقدم

(١٤٦١ - ١٤٦٧ م)

مراي
١٤٦١

كان صعود احمد، الملقب بالمؤيد، على العرش مقبولا في كل مكان، ومبشرا
بمستقبل حسن. كانت سنة ثلاثين سنة؛ واذا قرناه بغيره من سلاطين مصر نجده
مستقبيا فاضلا. ومع هذا كان حكمه قصيرا كثير الارتباك. وقد يستطيع الانسان
أن يقول إن فضائله الحق، في عصر ساد فيه المنكر، لم تعمل شيئا غير استعجال
المصائب. ولما كان همه الاصلاح رفض، لدى توليته الحكم، طلبات الشطط التي طلبها
الاشرك من قبله، فثار ثأرهم لهذا ونسوا عندها تناقض أحزابهم، وانضموا الى الأحزاب
الآخرى في الآفاق نحو سلطانهم. وكان الأشرفيون يميلون كثيرا الى أن يكون
«جنم» نائب سورية وحاكم دمشق السلطان الجديد؛ وقد فصل الظاهريون
«خشقدم» نائب القصر. ولما كانت الأخبار لا تصل الى أحمد الأقبلا، بقي
لا يجرأ على كتابة بحري. وقد تدبجوا مائة عاصته له. ولما قلق أخيرا استدعاه
إليه وكنتم حاقوا ما يرقى إليه، وبدلاً من الحضور عنده اجتمعوا في بيت «خشقدم»،
ولما نضج ما يبتوا هاجوا القلعة؛ وعند ذلك استقال أحمد بعد أن حكم أربعة أشهر؛
فأرسل الى الاسكندرية حيث بقي فيها مصفداً، ولكنه أطلق سراحه في آخر الأمر،
فعاث في عزلة عدة سنوات عيشة فاضلة؛ وبينما كانت القلعة محاصرة أغرى «جاني بك»
أحد الأمراء النابيين، حزب الأشرفيين من شعبة «جاني» أن يملئوا تعيين «خشقدم»
سلطاناً، ووجهه الى الشام في تلك الأثناء. وخبرهم أنه لدى وصول «جاني» يسلم
اليه العرش في سلام.



القلعة من فوق القاهرة

وبهذا انتخب « خشمدم » سلطاناً باسم « الفاهر » . وأصله مملوك السلطان « شيخ » اشتراه من خسين سنة خلت ، فجعله غلاماً له ؛ وارتقى تدريجاً حتى صار حاكم دمشق وقائد الحملة على « كرمان » . ولما كان أحد بكرمه باعتباره رئيس بلاطه لم يشترك مطلقاً في الأتار ، ثم نال مركز سيده المنفى . وهو أول سلطان لا يتعارف الشك إلى اغريقية أصله . وقد كان الجراكسة قد مضى عليهم وهم على العرش أكثر من ثمانين عاماً^(١) . ولقد سبب هذا الخبر هياجاً كبيراً في دمشق وانحازت الغالبية إلى جانب السلطان الجديد ؛ غير أن « جام » الذي وثق من استدعاء أصحابه الأشرافيين ، سافر إلى القاهرة ، فذعر لذلك « خشمدم » ووقفه في الطريق . ولما رأى جام أن الوقت قد فات ، خضع للسلطان الجديد الذي تبعه في ولاية دمشق رضية للأشرفيين ، ولكنه منعة نيابة سورية . وبما أنه كان لا يزال يخشى الأشرافه ضيق عليهم ، فكان هذا العمل سبباً في قيام ثورة لمصلحة أمير قوي هو « أتايك » ، وبمساعدة القاهرة تلب على الخطر ولكنه هاج السلطان لدرجة أنه جمع « جام » ، خشي هذا من منزلته مرة أخرى فنجأ إلى « أورو حن » صاحب الدير الأبيض . ولما توسط هذا الأمير في العفو عنه ولم يفلح ، انحاز إلى جانبه ، وأغار على حدود سورية . ولما كان السلطان يخشى عودة جام جبراً فوقعه في الأسر ، ولكن في تلك الأثناء كانت أخبار وفاته سبباً في وقف الحملة التي لم تقبل ضرورة^(٢) .

١١٦٣

وقد رأينا أن خشمدم كان مديناً بقرية لمصاحبه جاني بك الذي تفوق بمهارة على أنصار جام . ولما كان هذا الأمير قد شغل مركزاً سامياً في « جدة » فإنه كان محترماً (١) يقال أن « لاجين » كان أفرغياً . ولكن فريقاً يشكك في هذا . وقد رأينا أن عدة سلاطين كانوا من أمهات اغريقيات ؛ ولكن ليس غير السلطان الحال أحد جي . به مفيداً مملوكاً من بلاد اليونان . أما اسمه فارسي معناه « حسن المظ » (٢) حاول أبو الحسن ، وقد رأينا أنه كان عيباً إلى البلاط ، أن يعطى السلطان عند ما أفرغه غير هذا الهجوم فأخبره بأنه إذا كان عرشه مثل أثينا ما هو عليه إذ ذاك قال جام أو غيره لا يمكنه مهاجمته ، فهم بالأحرى لا يمكنهم أن يقوموا بذلك الآن

عند أمراء بلاد العرب بل أمراء الهند أيضاً . ولعلله وكرمه ومباحته كان ذا مكانة عظيمة . ولما تقاضى الناس في محبة كانت كلته قاتوناً في كل شئون القاهرة الداخلية . وكان كلما خرج رآكياً احتشد حوله جمع كبير من أصحابه الفاهريين وأتباعه المصبيين به ؛ غير أن هذا لم يقد إلا في إفسار نار كراهية المالك السلطانية له ، وغيره السدم منه . وقد قلب الآن خشمدم ظهر الجمل لصالحه الذي كان مديناً له بالعرش ؛ ففي ذات يوم عند دخوله القلعة اقتض عليه مالك السلطان وضربوه على رأسه ، وطعنوه في ظهره ، ولما كانت لا تزال فيه بقية من الحياة سحبوه من رجله إلى القصر (البلاط) وهشمت دماغه بالحجارة الكبيرة ، ثم تبعوا رفيقه حاكم المدينة وذبحوه بنفس هذه الوحشية ؛ وكان خشمدم جالساً في البهو الأعلى وعالماً بما يجري . ولما سأل عن الخبر كان الجواب : كل شيء على ما يرام ، فقال : لنزل الآن . وعند ما نزلوا أمر باحضار درجين فقط وأمر أن تقش الجثتان وتدفنا ، فلم ينس الناس قسوة هذه ؛ لأن جاني بك على احسانه كان يقيم ولائم لا تقل فخامة عما كان يفيضه عرون الرستيد من الألائم ، مما حبه إلى الناس في أرجاء المدينة ولم يتحسن مركز خشمدم بعد التحلل من صديقه فلم يلبث حتى رأى عاقبة أعماله السيئة فان الفاهريين غضبوا بموت زعيمهم ، وعلى هذا قبض عليهم ، وغربوا وحبسوا في الاسكندرية . وقد حدث ما لم يكن يتوقعه السلطان . ذلك أن الحزب الآخر من الأشرافيين والايانيين الذين كان يقان أنه يرضيهم باضطهاد أعدائهم الفاهريين - اتهموا بقتله ، ليعينوا واحداً منهم مكانه . فلما تبين له خرق خطته أرسل إلى « قايتباي » زعيم الفاهريين ، فجاءه بحرسه عدد كبير من حزه ، فاستقبله السلطان بكل كرم واحتراف وعاطفة ورجاه أن يتناسى الماضي ، واعداء الملعون جميع من أزيهوا إلى السجون . فكان هذا العمل مسيئاً إلى الأشرافيين الذين سرهم من قبل سقوط الظاهريين ، والذين لم يساموا « جام » . وكانت هذه فرصة مفيدة لخشمدم استخدمها في صرب حرب بحر وصارت سياسته بعد ترمي إلى تكثير أحزاب نارح المالك (٢٠)

أما العدل فكانت حرمته متحركة وكان المتهمون كثيراً ما يباعون ويسلمون إلى المدعين. ولدنيا مثال على ذلك أن وزيراً سلم لأعدائه، في مقابل دفع سبعين ألف دينار، فمذروه حتى مات. وليس لنا أن نوجب من أن إدارة أساسها حب جمع المال، ومكروهة كهذه، سببت التدمير العام وأدت إلى ثورات كثيرة قام بها الناس عن طيب خاطر

سبتمبر ١٤٦٧ وحوالي ختام حكمه سببت جيوش البدو ذعراً وسوء نظام، ليس في مصر فغضب إلى في سورية وبلاد العرب أيضاً، حيث هبوا كل منى حتى فوافل الحجاج. وقد ذهب الجيش لمقاومة «سيوار» فجمع جيش غنمه في الوقت الذي أصيب فيه السلطان بإتلاق البطن، وانحطت صحته إلى حد أنه كان يفقد الرشداً أحياناً. ولما سمع بأن أخبار موته انتشرت في الحجاج، كان على وشك معاينة ممالكه لأنصارين اثنين منهم - مصبيان - فذكره الموت في اليوم التالي، فسيده إلى القبر. عدد قليل من حبيته. ولم يكن محباً إلى نى طبقة من الناس وخاصة طلبة ممالكه من لا «دفع» لهم. ولحكمته المشهورة زبوسة وغصب المال والفساد. ولم يكن يتردد مصلحه. فحسبوا على عزمه في التعذيب لخنجر أو السم. وقد ظلت ذكرى «جنى م». «فيه من حبيته. وقد نزلت حسده وتبين لا سمع عنهما» سدا

مكتبة

الفصل الثامن عشر

بلبلى - تمر بغا - الأشرف قايتباى

١٤٦٧ - ١٤٩٦ م^(١)

أكتوبر ١٤٦٧ ظلت القاهرة في خلال الشهرين التاليين لموت السلطان مسرحاً للدسائس الدافعة بين الأحزاب المتنازعة. وقد جلس على العرش أولاً «بلبلى» الجركسى ثم «تمر بغا» الأغرقي، وكلاهما نشأ بالطريقة العادية، ثم ارتقى إلى مقام السلطنة بنفوذ حزب الظاهريين. وخلع الأول بعد شهرين، وأرسل أسيراً إلى القلعة. والثانى الذى أعقبه كان من بيئة أرق؛ ولو ملك الوسائل التى يرضى بها الأحزاب السيئة الكثيرة التى حوله لاحتفظ بمركره؛ لكن الحزاة كانت خاوية؛ وإذا لم يرش المايث كان قيام المؤامرات محتوماً. وقد نادى المؤيدون بواحد منهم سلطاناً وهو السلطان «خيربك»، ولكن الظاهريين ظهروا عليهم، وأحادوا على كرسى السلطنة «قايتباى». «وقد رسل» «حيربك» في الأصقار إلى الاسكندرية؛ في حين أن «تمر بغا» الذى حكم شهرين أكره ومنح مسكناً لائقاً به في دمياط

يناير ١٤٦٨ كان «قايتباى» الذى افتتح دولة طوبله. من أصل جركسى؛ وهو مولى السلطان حقيق ستره غلاماً لمحمد بن ديناراً. ولما كان فارساً متماراً قرب في البلاط وقد ارتقى إلى عرش السلطنة من وظيفة نائب. وبصفته حاكماً شجاعاً قادراً حافظ على حياته بحاسة كبيرة حذر من المايث الخلفيين له. وبهم استطاع أن يعامل «حزب المايث» كيف أراد. وكانت تناب البلاد من حين إلى آخر الثورات المعتادة؛ ولكن الأحزاب كانت منكفئة فحقت حكمه؛ وكان الداء العصال مسألة المالية.

(١) في حكم قايتباى مات المؤرخ أبو المحاسن سنة ١٤٧٠. وبموته نفق معدن مصادر المعلومات فلهذا ذكره. ونقل التفاصيل ويذكرها النفس. ومن ذلك الحين يصير ابن أبى - صدرنا - أمضى؛ وقد عاش حتى شهد سقوط أسرة المايث وبى سده سقوطها نحو ثمانى أو تسع سنوات

ومع أن قايتباي منع إعطاء الهبات المتأدية التي كانت توزع عند التوقيع كانت الحكومة في حاجة ماسة إلى المال من بادية الأمر لصد غارات البدو، ولتقابلة الأخطار المهددة لآسيا الصغرى. وكانت طريقة جمعه مقدمة لما كان سيقع بعد؛ فرتب الحكومة المتبرع مسئولاً، اغضب منه كل ما يملك، ثم فرض عليه مبلغ، فلما أظهر عجزه عن دفعه جُلِدَ في حضرة السلطان. ولما لم يجز هذا نقماً، أخذ السلطان بنفسه العصفار يده، وما زال يضرب الأمير التمس حتى تطاير دمه على الواقفين. ولما رضى الوزير المبرح به الضرب بدفع مائتي ألف دينار، أطلق سراحه، وخلع عليه خلمة الشرف. وهكذا كانت وحشية رجال «قايتباي» المقلبة

كانت مصر حينذاك في حرب مع «سيوار» صاحب «ابليتين» وخليفة «أصلان» الذي قتل - كما رأينا - يد السلطان السابق. وبمساعدة الباب العالي له استطاع أن يطرد الجيوش المصرية، وغزا أراضي الحدود حتى بلغ «أنطاكية» و«طرسوس» ثم رتب «سيوار» بعد ذلك في الصلح؛ فأرسل إلى القاهرة جميع الأسرى المصريين مع مئة حتى ولكن السلطان، الذي غضب فزيته حده، دلاً من محمد صالح، وأرسل حشداً آخر إلى «عينب» فاستدريج إلى بحر سيب، ثم هزمه مرة بحرية، وبذلك إلى حب. وبذلك سبى الدرع على وياي لجنا إلى طرق قاسية منكفة في جمع الأموال لأعداد حملة أخرى^(١). وبعد جهد جيد ومدة طويلة أرسل جيشاً ثالثاً فلم يك حظه بأحسن من سابقه؛ وقد بدأ سيوار يظهر بظهور الملوك، وسمى نفسه سيد سورية. فلما أحس قايتباي خروج مركزه لجأ إلى الباب العالي الذي قطع معونه عن سيوار بناء على رجاء السلطان. فلما رأى سيوار يغفل خلفائه عنه تراجع إلى مقعده في «ابليتين»، وهناك عرض أن يسلم كتابه للسلطان. وحين وعد الأمان ذهب إلى المعسكر المصري فقبول باحترام؛ ولكن كان برأى يطمع عليه خلمة الشرف، طوق عنقه بالسلال بدلاً من الخلمة.

(١) مثال ذلك أنه حلف قاضي القضاء نفسه وعذب الوزير حتى حصل على المال المطلوب

أتباعه ففريق قتل، وفريق سبى معه أسارى إلى مصر. وعند دخولهم القاهرة تبعهم، في موكب غخم، المغنون والمغنيات وأصوات السخرية، وأخذ هذا الأمير الذي نظير عليه حمة العز، قابس سخرية منه لباساً ملكياً وأركب جواداً، إلى حضرة قايتباي، فقبله بترحيب مزيج بالسخرية، وأمر بتزيق ما عليه من الملابس الملكية، ثم عرى رأسه هو وأقاربه، ووضعت السلاسل في أعناقهم، ثم حلوا على الجبال إلى باب المدينة حيث شقوا وبقيت جثثهم معروضة للجمهور يومين. وقد انتحل السلطان، لحياته الفظيعة علة واهية، وهي أن «سيوار» عامل زعيماً سورياً هذه العاملة. وهكذا كان خُلُق هذا العصر الوحشي

- وكانت مصر لا تزال تخشى الشر من هذه الجهة، وذلك للنجاح العظيم الذي أحرزه «أوزون حسن» في كل الشرق، وأرسل الوفود تلو الوفود، تظاهراً بالخضوع لمصر، ومع فهدا رأس زعيم «قره قيون» وكان قد انتصر عليه نصراً ميئاً. ١٢٦٧ - ١٢٦٩
ولما مد فتوحه في بلاد الفرس حتى أواسط آسيا، أرسل إلى القاهرة رأس ملك سمرقند، الذي عتدماً رآه قايتباي، أمر أن يتمل وتدفن بكل احترام، بدلاً من أن يعلقوا كافي الروس على أبواب المدينة. ولما عاد أوزون حسن في ذلك الوقت إلى آسيا الصغرى، غامر مع الجيوش الثمانية فاستولى على «توقات» وغزا «كرمان» التي قرأ زعيمها إلى الباب العالي، فقام «محمد الثاني» عند ذلك على رأس جيش فوّى وأمكنه، بوساطة مدعيته، وكانت معروفة قليلاً في الشرق إلى ذلك العهد، أن يوقع الهزيمة الفادحة بأوزون، ففرح السلطان لهذا لأن جيوش «أوزون» المشتتة، والتي كانت في حرب مع الجنود المصرية، ما أنشئت تنزل التخريب بالحدود السورية. مات أوزون بعد ذلك بقليل، غير أن ابنه وقف موقف المعادي، وضرب الجيش المصري عند محاولته الاستيلاء على «الرها» وشهر برأس قائده في كل ولايات الحدود إشارة إلى ظفزه؛ فجيز «قايتباي»، له ولعه وريع، جيشاً آخر لحاية حلب، ولكن لم يمض وقت طويل حتى رجع السلم إلى نصابه.

فرح السلطان بهذا لأن الحرب بينه وبين الباب العالي لاح وميضها في الشمال، وكانت أسباب تور العلاتن بين الدولتين متوافرة، وقد نشأت من نزاع دويلات آسيا العدة بعضها مع بعض واستصراخ الواحدة منها مصر والأخرى تركيا. وفي هذه اللحظة وقع ما أسع نار الخلاف بين الدولتين، فانه عند جلوس «بايزيد الثاني» على العرش نازعه فيه أخوه الأمير «جم»، ولما هزم فرؤ ووجد لدى قايتباي كرماً يليق بالأمراء وصيروه حاجاً الى مكة بعد أن ترك أسرته في رعاية السلطان

وقد سعى بمساعدة كرمان له، مرة أخرى في الاستيلاء على العرش العثماني. ولما هزم ثانية نزل ضيقاً على رئيس فرسان رودس (المولى الأعظم) الذي اضطره بايزيد والبابا وقايتباي، كل لغرض في نفسه، الى تسليمه اليه؛ وأخيراً رجع الى «روما» حيث استقبله البابا استقبالاً فخماً لأنه كان يتوقع حرباً صليبية جديدة. وقد أراد قايتباي ثانية أن يكون هو رده الأمير جم، ورغب أن يسترده الى مصر فأظهر استمداه للتنازل عن كثير للبابا حتى - كما يقال - عرض تسليم بيت المقدس ولكن

الذي رده على، والذي يس من قيام حرب صليبية احتفد «بجم»

في روما وأبقاه فيها حتى مات مسموماً
وكان احتفاء مصر بالأمير «جم» سبباً في زيادة شعور بايزيد بالكرهية لها، بسبب أن ذلك أسبب أخرى مثل تعطيل فتيان اصلاح بحري الما في دروب مكة، ومنهت هت هدى كان يعمل حجر من المنس القبس هدية الى بايزيد. وهذا قد فسد خنجر مناس كدات هذا، ورساله وده، ولكن رسوله نسي

سبعة من ذلك خبره. هذا، فمتم على خدمه السيرة مداد، سبق. واستولوا على «طرسوس» و«أطنه» وغيرهما من المدن، وتلت هذه حرب شمال. وفي آخر الأمر أحرزت مصر النصر في موقعة دموية قريباً من «أطنه» وحمل المصريون عدداً كبيراً من الأسرى، ودخلوا القاهرة ظافرين يحملون رهوس القتل. وبعد ذلك بقليل بدأت الحرب ثانية، وعند ذلك وقع الخلاف في ولاية

«ذى القادر» بين زعيمها وأخيه، فعاقد قايتباي الزعيم وعاهد الباب العالي أخاه، وعند هذا دخل جيش مصرى قوى آسيا الصغرى وأنزل بالأثرية هزيمة ساحقة لدى «قيسارية»، ثم عاد بعدها الى القاهرة، ودخلها بالفرح والسرور، حاملاً أعلام الأعداء منكسة، ووراء صف (طايور) طويل من الأسرى في السلاسل، ومع هذا كان قايتباي لا يزال خائفاً جداً الخوف لئلا يفتنه بمبايزيد. ولما كانت حرانته خافية جداً، والمهابيك يطبلون مطالب ناهلة، هددهم ذات مرة بأنه يسفيل وقد استمر كذلك انقطع. ابدي راده نندد عسف الباب العالي في فرضه الصرايب على مرور الحاصلات والمنسوجات، وكذلك المهابيك، من الحدود السورية. وفي ذلك بذت المحاربات بين الباباين، وحف غضب بايزيد لوصول وفد إليه ومعه أسرى الحرب والهدايا الملكية، فعجل بالاصباح، لأنه كان في ذلك الوقت يتطلع الى فتح بلغراد، وبهذا تأخرت الحرب القاضيه قليلاً

كان «قايتباي» مثل بيرس، مولعاً بالسفر، وكان يصرف كثيراً من وقته في نحو مصر المختلفة؛ وسافر الى حلب والى نهر الفرات. وأقام مدة في دمشق ولكنه لم يجد جده مطعماً، وقد كان على وسك الفياض نذات مرة. وعلى أنه كان ساجداً في الداخل قد بدد موارد الدولة على لأمكنه المقدسة في الخارج، وعلى مدارسه في أمبات مدن الأقاليم. وقد سعى عده معه بتدبير مسجد المدينة بالبرق وحرق على غمارته من حديد مائة ألف دينار. وكان يعاقب كثيراً على عرب سبب، وقد ادس سجنهم هم فيه من حجار، فزسل رهبان «كنيسة القيامة» كوفد الى فردريد يهدده بأنه اذا لم يس على غرامة. فالت كاس الشرف نهدم. والحجيج الى الأرض المقدسة عطل. وفي نحو هذا الوقت خرج «فايندي» حاماً الى مكة في موكب ضخم. واسفل لدى عودته لأفراح ملكيه، ثم راد بعد ذلك خليل لأمكن المقدسة في «حبرون» وبيت المقدس حيث فتح مدرسة. وهذا سبب استعلاء ملكه، عند عودته الى المدينة حين افتتح قلعة المساة «قلعة

قائبي « في الإسكندرية ، فترشت الطرقات بالبسط واستقبلت السالطة زوجها
الآن بفرش الطريق من باب القلعة الى عتبة القصر بالحجر الموشى بالذهب -
وفي هذا تناقض محزن لما فيه الناس من تمس شامل .

أما الأيام الأخيرة لقائبي فيقع أنها كانت سلفاً في الخارج كانت أيام يؤس
في الداخل ؛ فالطاعون ، شحا مصر ، نزل بالقاهرة بشكل مروع ، حتى مات
بسببه في يوم وليلة اثنا عشر ألفاً ، وقد السلطان المسكين زوجه الوحيدة وابنته
أيضاً في يوم واحد ، وقد قضى على ثلث المالكين وارتجت المدينة لهوله ، وبعد عامين
من هذا أهلك الطاعون قطمان الإيل التي هي قوام الإمبراطورية . وكان أشد
موت في تلك في سبب الأخيرة من حكم « قايبي » التزم التبريد الذي
١١٩٥ - ١١٩٥ نشأ بين المالكين بقيادة قائد من متعديين هما قانصوه «خمسة» وأكردي . وكانت
القلعة مشهداً دائماً للقتال والهياج واستولى أكردي على أزمة الحكم ، ولكنه لما غلب
على أمره أخيراً ، فرجحاته إلى غرة ، فأخذ مكانه قانصوه ولما رأى قايبي ظلام

استعاض . وكان قد وقع سادسة وخمسين من مائة يوم فترسه ، وبعد في ذلك
بعد محمد ، وهو سبب في هزيمة عشرين من مائة ، ثم مات
بعد ذلك من حكم سبع وعشرين سنة . وهي أصول مدة بعد يوم الناصر

وهو مدين بسلطنته الطويلة الأمد لسرعة جوابه ، ولجأته في الإكثار من المالكين
المخلصين حوله ؛ وقد قديتهم بساحته مصالحهم الخاصة . ولقد أركب قساوة وحشية
في معاملاته ؛ مثال ذلك أنه جلد بنفسه قائد قواته وسجنه في سجن ضيق بالقلعة حتى
مات . ولم يجرّد اليهود والنصارى من أموالهم فحسب ، بل تناول الأغنياء من أهل
دولته بذلك . وكان أيضاً يأخذ من مال الأوقاف لد حاجة الدولة ؛ وقد حاول
اصلاح ذلك بفعل الخيرات في جهات أخرى . وبالانحصار كان سلطاناً عظيماً ومع أنه
كان يفسو ويظلم أحياناً ، فهو على العموم مثال السليم الورع . وكانت له زوج واحدة
وكثيرات من الجوارى . وقد كانت أم ولده الذي خلفه على العرش جارية جركسية

الفصل التاسع عشر

الناصر محمد الثاني - قانصوه الأشرفي - قانصوه جنبلط -

العاذل طومان باي

١٤٩٦ - ١٥٠١ م

نذكر الآن صحيفة كثيرة الاضطراب ، لأنه في مدى خمسة الأعوام التالية لتولى
على العرش خمسة سلاطين ، حكم منها محمد الثاني ابن السلطان المتوفى عامين . وكان
قساقسياً خليماً ؛ وقانصوه خمسة^(١) (اشترى خصماته دينار) بعد أن ألجأ خصمه
« أكردي » على الفرار كما رأيت كان . باعتباره آنذاك ، هو الحاكم الحقيقي . ولكن
يخص من مدفوعه أعين العفو فصدفه الناس ودحجوا إليه ؛ فأمر بالقبض على الرعا
وأغرقهم في النيل

ولما تخلص يثقل هذه الوسيلة وغيرها من حرب « أكردي » كله ، نطلع بعد
أشهر قليلة إلى العرش ويحمل نفسه سلطاناً ؛ ولكنه لما حاول الاستيلاء على القلعة
ردته عنها المقلدات من فوق أسوارها وجرح ؛ ولما قتل كذلك في هجوم آخر
فر هو وأتباعه إلى فلسطين فقال له « أكردي » عند غرة ، وكان قد استدعى إذ
رأى أني التهرؤ ؛ وبعد قتال شديد بينهما كان النصر أولاً في جانب « قانصوه »
وكي ما مات « أكردي » بعد مساعدة السورين له حتى نعلت عليه . ففر ولم
يعد يرضى وقيل أنه قتل . ولكن لما لم يجر على حثته خالت القاهرة بضعة سنين
منه بريد حذر حذر ، هذا الطغيان مستطير . ولما خشي أكردي ثابت المركز ،

دخل إلى القاهرة في وسط الأفراح العظيمة ؛ ولكنها أفراح لم تدم طويلاً . لأن
(١) عدد الأمراء الذين تسود بهذا الاسم بعدو الشيء من الارتباك . هذا الذي يحسن
بصدده يسمى المحسوس ثم يليه قانصوه الآخر وسد قبل بدم السلطان قانصوه القوي .
وهناك آخر اسمه قانصوه الثاني الذي ساعد خمسة بوي في مهاجمة القلعة . وهذا عدة غيرهم لأن
الاسم كان محبوباً في ذلك الوقت .

اغسطس
١٤٩٦

فبراير

تكن شيئاً مذكوراً بجانب غامة « بلاط » ذلك المملوك الذي اشترى بالأمس من النحاس، وبذخه وجهه

وقد ظل هذا البلاط على أحسن ما يكون غامة وأبهة في الأثاث والرياش والحيل وكل ما يحيط به. وقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس في مائدة السلطان فحسب بل في كل أرجاء القصر - وكما يقال - حتى المطبخ. أما لباس السلطان وأداة زينته فقد جعلت بكل ما غلا ثمنه وجعل هذا إلى الثراء والمفنين والموسيقيين والقصاصين الذين احتشدوا في البلاط ونعموا على حساب الثأني والفقراء^(١)

وليس هناك شيء كثير جدير بالذكر عن السنوات الأولى من حكمه؛ ولا بد أن تكون مقامات ماليك السلطان قد أصبحت لا تحتل، لأنه حدث مرتين أنه عند ١٥٥٥ - ١٥٥٢ ما حلف له أمراؤه بين الطاعة، أقسم قانصوه نفسه على مصحف عثمان بأنه لا يسمح بوجه بدنيته. وكذلك عرض عليه طس أمه وفتح. فكان العقب عليه بفوق وحشية وقسوة كل ما سبق من أنواع الجزاء^(٢). ولم يحدث شيء كثير لمن القتال في عهد محمد بن طاهر، بل أن لبده قدمه بعد أنهم اعتدوا، فهاجوا بالمرءة. ثم بعد ذلك، وبسبب من كان أمرا « سهر » دهم على اعتقابه. وقد ١٥٢٠ دلت على ملكه وبيع. ثم قس لاحرب بغيره إلى أحد الأهل المعاه الحكم وإعادة النظام. وقد بذل السلطان اهتماماً كبيراً في إحياء أسطول لحماية البحار الشرقية من غارات البرتغاليين

ذلك هو الوقت الذي عبر « فاسكو دا جاما » بعد أن كشف في عام ١٤٩٧ الطريق حول « رأس الرجاء الصالح » وحصل على ملاحين من ساحل

(١) هكذا يقول ابن إيس الذي شاهد نفسه، وعلى هذا يمكن الإضمار عليها مع ما عمله يكون فيها من بعض التبالفة

(٢) قد مات أحد الضحايا تحت التعذيب الآليم الذي أوقع به كى يعترف بأشياء أكثر مما اعترف بها. وقد لب أسج مقصور في السجن حول أسايه وأمرق؛ وقد عصبت جبهة بشدة حتى جعلت عيناها، وعلم جرا

« رنجبار ». المحيط الهندى إلى سواطى. « مابدر » و « فالقووط » وهاجه الأساطيل التي كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند إلى البحر الأحمر. وأوقع العرب في قلوب حكام تلك الجهات. وهناك طلب أمراء « جوريرات » والذين المساعدة من مصر، فجهر السلطان أسطولا عدد وحداته خمسون. بقيادة أمير البحر « حسين الكردى ». وقد سحر الناس في تخمين « حمدة » تكون ملجأ من البرتغاليين، وحى بلاد العرب السعيدة والبحر الأحمر. ولكن بقيت الأساطيل التي كانت في المحيط تحت رحمة العدو. وقد وقعت معارك مختلفة. أخذ في إحداها البرتغاليون

سفينة مصرية تحبس قانصوه. كما أخذوا في العام التالى أسطولا مكوناً من سبع عشرة سفينة بعد معركة هائلة، واستولوا على حوتهم. ودبحوا التجار والحجاج، وأحرقوا السفن. وقد استاء السلاطون وغضب لمهاجمتهم البحر الأحمر، وضاع المتاجر والقصر الب، وتعرض مكة ومينائها للعناء، وفوق كل هذا لما أصاب سفينته، ونذر أن يتم من البرتغال نمر انتقام. ولكنه في بدلة الأمر هدد البابا بواسطة رئيس كنيسة بيت المقدس بأنه إذا لم يفت « فردينند » وماو يل عن اعتدائهم على البحار الهندية فإنه يدمر كل أمانه المدةسة. ويعامل المسيحيين كما يعاملون هم المسلمين.

١٥٠٨ وقد فشل في طلبه هذا فلم بالاستعداد بشروع بحري بكل همه ونشاط، فبجح بعض التجار إذ أنه في إحدى المراكب على « لورنزو الألبدي » وفل؛ ولكن في العام ١٥٠٩ التالى أمر البرتغاليون هزيمتهم من أسطول المصريين انتقاماً مروعا. وبعد بضع سنين أخذ « الفوسو البورك » عدن « وحاف المصائب الجيوش المصرية في اليمن؛ وعند ذلك أعد « قانصوه » أسطولا حديداً لمقابلة الأعداء ولحماية التجارة الهندية؛ ولكن قبل أن تعم نتيجه هذا الاستعداد صعدت مصر سيادتها وصارت « مكة » والبحر الأحمر وجميع مصايف البلاد العربية إلى أيدي الغنبيين

وكان نجم السلطان حينذاك أدماً ما عا نأقول. ولم يكن هناك، بمجرد ذكره عن الباب العالي. ومع هذا كانت القصر الهندية قريبة حد

انتهت الحرب الأخيرة (١٤٩٠) كما رأينا بهزيمة الجيوش العثمانية؛ ثم رجع السلم بين الدولتين، واستأنف إرسال الوفود بالهدايا الغالية، ومع هذا كانت أسباب الغور مندرة؛ لأن قريياً وإن بعيداً، يحظر عقد بسبب مساعدة هذه الحكومة أو تلك للأشراء المتنافسين في آسيا الصغرى وعلى حدود سورية. وبما كان «بازيد الثاني» لا يزال مشتغلاً في أوروبا، إذ ظهر سبب جديد لمعاداة مصر - نشأ هذا السبب من علاقات الدولتين بالأسرة «الصفوية» في الشرق - ويجب علينا أن نخرج عليها الآن :

كان السبب المباشر في قطع العلائق هو «الشاه اسماعيل الصفوي» وهو من سلالة صفى الدين، وإليه ينسب، ومنه أخذ الاسم، وهو صوفي بلدة «اردبيل» المشهور. وقد انتشرت تعاليمه الصفوية خاصة في القرن الرابع عشر في أذربيجان. وقد نال ينه بسرعة نفوذاً كبيراً. ولما طاردهم أهل قبائل «الوير الأسود» - قره قيون «التركيانيون» أعانهم أهل «الوير الأبيض» - آق قيون «أي الشاة البيضاء» - التركيانيون أيضاً الذين ارتبطوا معهم برابطة الزواج حتى أن اسماعيل الشاه كان سبط «أوزون حسن» - زعيم «آق قيون».. ولما بدت المعاداة قتل والدا اسماعيل في معركة مع «الوير الأبيض» وكان اسماعيل إذ ذاك لا يزال طفلاً فعمل مع الأسرى إلى «اصطغر» - ومنعياً هرب إلى «الجبال» حيث بنى مستعصياً بين قريته، ونشر قلبه مذهب أجداده فاعتنقه بغيرة حماسية حتى صار رئيساً لطائفة الصوفيين، ثم تجمع حوله خلق كثير على الانتماء من قلة أبيه، فقاتل زعيم «الوير الأبيض» (١) وهزمه، ثم استمر في فتوحه وصار ذا سطوة عظيمة في فارس وخراسان، وكذلك في بلاد ما وراء النهرين. ولما عاد إلى أذربيجان صار خطراً يهدد الدولة العلية، ليس بفتوحه على حدودها بل بتغالي شيعته في معتقدهم. وكان «بازيد» قد قبض على كثير من الصوفيين في

(١) يمكن أن يستخلص التعصب الشديد في مذهب اسماعيل من قصة مؤداه أن جثة أحد أعدائه حرت (شويت) وأكلها أبناعه. ويقال أيضاً أنه أمر بترية فخر سياه «بازيد» وهو أكبر اختصار عند المسلمين

إلاده وسجنهم أو فاضلهم لأنهم كانوا خطراً على حكمه. وقد انفس الشاه اسماعيل من بازيد أن يسمح لشعبه بالصور من البسفور إلى أوروبا بدل قناته وفيهم، فرفض بازيد هذا المتلسم رفضاً باتاً؛ فأرسل «اسماعيل» بشاً إلى البنادقة يدعوم إلى مشاركة جيوشه في استرداد الأقاليم التي أخذتها منهم الدولة العلية. وقد غضب بازيد من السلطان واطهر مر السكوى من أنه سمح لذلك البعث بلمرور من سورية. فأراد «قنصوه» أن يترشده فسجن البنادقة الذين كانوا إذ ذاك في مصر وسورية. ومع أنه أطلق سراحه بعد سه لحوقه من انتقام البندقية، بقيت العلائق بين مصر والدولة العلية سلبية حينما

ولما جلس سليم (العثماني) على العرش تغيرت الحالة. وأخذت تجري آخر، إذ كان موقف اسماعيل مهدداً جداً، وكان سلبه فيه فارساً معماً محباً للحرب أكثر من أبيه، يضاف إلى ذلك أن قام «اسماعيل» الذي حاول عبثاً أن يستميل «قنصوه» لموازنته، بعهد «أحمد» الذي ادعى العرش بعد أن انتمى بسليم أخيه. وزيادة على ذلك خاف «سليم» رعياه الشيعة الذين كانوا يميلون إلى متعصبى الصوفيين. وعندهم خطر على العرش فقبض عليهم وقتلهم. وقد رأى اسماعيل أن في قتل شيعته معرة له فأخذ ينتقم لهم، وصار لا مناص من الحرب؛ فخرج إليه سليم وداره في معركة «قرب تبريز»؛ وقد أبدى الشيعة المتعصبون بأساً شديداً وساركمهم سائهم في الحرب؛ ولكن لم يجددهم ذلك شيئاً أمام فرسان الأتراك ومدافعهم، وسدده بطشهم. فهزم رئيسهم اسماعيل هزيمة مخزية وهرب. أما سليم فقد أعوزته الميرة ففعل راجع نحو الغرب وأتقى في «أساسية». وفي الزبيع عاد إلى الميدان وهاجم صاحب «ذى القادر» الذي وقف على الحياد لأنه تابع لمصر، فضله ورأس رأسه مع أخبار انتصاده إلى قنصوه. ثم انصرف «سليم» عن الشاه الذي كان قد عد أدراجه إلى «تبريز» وحاول عبثاً أن يعقد الصلح، واكتسح «ديار بكر» و«الجزيرة» وأخذ «الرها» و«اصبين» و«الموصل» وغيرها من المدن

ولما كان سليم الآن يأمن من «إسماعيل شاه» فكر في الإقدام على مشروع عظيم هو فتح مصر، ورأى وجوب البدء بغزو سورية. وبما أنه لم يكن هناك ما يشغله من جهة الشمال، رأى أنه من المستطاع أن يتقدم آمناً؛ ولذلك جزم لهذا الغرض جيشاً عظيماً منطلقاً في ربيع عام ١٥١٦ م. وأراد أن يخدع مصر فظاهر بأن ما يقوم به من الاستعداد إنما هو لإتمام القضاء على «إسماعيل». وكان الواجب على «قانسوه» أن يتيقظ للخطر من قبل، لأن أسباب التوتر العلائق بين تركيا ومصر زادت كثيراً؛ ذلك لأن أخاً آخر لسليم خرج عليه ثم التجأ إلى مصر فقبلته، ولأنه بعد وفاة أحمد أمده السوربون ابنه الصغير ومعه حاشيته الخارجون بما يلزمهم، ولأن الأمراء التابعين لمصر كانوا قد أخروا ورود المدد للجيوش العثمانية في حروبهم مع الفرس؛ وفوق هذا قد تم الاتفاق سراً بين سلطان مصر وبين إسماعيل وإن لم يكن في معاهدة علنية. لم ينتبه قانسوه بل أضاع على نفسه الفرصة، لأنه لو ساعد الأمير الصوفي بسيفه من أول الأمر لكان خبره له ولجأت النتيجة على عكس ماوقع بعد؛ ولكنه من غير شك لم يكن يرد بذلك الاتفاق الذي عقده مع إسماعيل لأنه يشجع المذهب الذي يكرهه كل العالم الإسلامي. وقد كان قانسوه قد أرسل واستنجد على الأزمات المحيطة به فلم يكن بأى حال قادراً على الحرب

لأنه لم يقدّر أن الخطر الذي يهدده، فعلى سنة ١٥١٥ م. ربيع عام ١٥١٦ في أعداد جيش قصد أن يسير به إلى أطراف آسيا الصغرى التاترة، وبذا أصبح متاهباً لكل الطوارئ. ولما كان على وشك الخروج بجيشه جاهز وقد من لفتن «سليم» يده بشكل ودى، أنه يسمح له أن يعين حاكماً مصرياً لولاية «ذى القادر»، وأن يتأمن فتح الحدود كما كانت لمرور التجارة والماليات وقد خرج «قانسوه» من القاهرة بجيشه الكبير المجهز بجميع المعدات عدا المدافع في حارة الصيف - بعد أن ترك «طوبان باي» حاكماً على المدينة - في أبهة، تقدمه الموسيقى والأغاني والأفراح، وتبعه خمسة عشر أميراً ألف، عدا كثير

من الأمراء الذين هم أقل مقاماً من هؤلاء، وخسعة آلاف من مماليكه مع عامة الجيش وكان ينضم إلى هذا كله أنساء مسير فوق كثيرة من الدو والسوربين، وعلى هذا لم يكن الجيش في حاجة إلى المزيد من الجند^(١)، وكذلك خرج في موكبه وزراء الدولة والخليفة والمشايخ ورجال الحاشية ومعهم المؤذنون والأطباء والموسيقيون.

وقد ضم إليه في الطريق ابن «نجد» العثماني المطالب بالعرش المتوفى واحتفل به. على أمل أن يستميل لمحبين له من الحبيس العثماني. وتقدم على موكب ودخل دمشق في أبهة. وقد فرست في طريقه البساط في حين أن التجار الأتوريين بشروا الذهاب على المحتشدين حوله. وبعد أن أقام أياماً تقدم نحو حلب متباطئاً واستقبل في «حصص» و «جاء» بظاهر السورور. وجاء في تلك الأثناء رسول آخر من معسكر العثمانيين، وقد علم له، على سبيل التفرير به، هبت عاتية له وللخليفة أيضاً والكبير الوزراء. ثم عرض أن «سليماً» يطلب شيئاً من السكر المصري والخلوى. ثم أسر من طرف خفي إلى أن الذي لجأ «سليماً» إلى الاستعداد للحرب ثانية والبرول إلى ميدان القتال هو صدور فتاوى شرعية ضد «إسماعيل» المرتد، فأرسل قانسوه ويرد «معاهدات» في وقد بهادياً في مقابل تلك، ولكن في اللحظة التي وصل فيها إلى المعسكر العثماني كان «سليم» قد حلق رداء السلم وأعلن غرضه الحقيقي؛ ولما أراد أن يظفر احتقاره لمصريين عامل الوفدة معاملة مشينة، ورد الوزراء منصوص السمر، محلول البهجة، راكبا حيواناً عرج يتبعاه والباقيين سائرين على الأقدام. وفاته في «حلب» «حبر بك» الحاكم معاهله حقه حد لأنه أراد أن يخفي حياته وهي اضطراره إلى الباب العالي؛ ومع أن السلطان وصله بأن هذا من حاكم «دمشق» لم يقصده. أما الأهول فقد غضبوا كثيراً من المهابيل لم أتوه في

(١) وتقدم قوة جيش مصرى العادى نحو ٢٦ ألفاً معاهله عدا مماليكه أمراء الدولة وأمراء المقصرة. وبما أن قصود شتى ثلاثة عشر ألفاً من الممالك، ترك منهم في القاهرة العيين لجبهة الفتنة

في مدينتهم من المغالمة. عاد « مغلّة بك » في حالة مشتمّة وأخبر السلطان بموقف « سليم » العدائي، وباقترب الجيوش التركية سريعاً؛ فزال عندئذ كل شك في موقف العثمانيين. واستحلف قاصصو الأمراء وكبار القضاة والماليك السلطانية على الطاعة من جديد، ووزع عليهم الهدايا أيضاً فاستاء جسد الاستياء الماليك الآخرون الذين لم يطمعوا شيئاً. ثم حُزِرَ السلطان ثانية من خروج « خير بك » عليه وأراد أن يقتله بسد أن واقفه أتباعه، ولكن صرفه عن هذا العزم « جان بردى »

١٩ أغسطس

قائلاً له إن هذا العمل في هذا الوقت خطر جداً، فلم ينفذ عزمه^(١). تقدم عند ذلك الجيش وعسكر في اليوم العشرين من شهر أغسطس في سهل « مرج دابق » على مسيرة يوم شمالي « حلب » وانتظر قدوم العدو. وفي ذلك السهل كان سيقطر مصير الأمبراطورية المصرية. وقد قاتل المصريون قتال الأبطال، عدا

٢٤ أغسطس

الماليك السلطانية الذين أراد السلطان أن ينجيهم من هول ذلك اليوم بتأخيرهم عن الصفوف الأولى. وقد تخرج كثير في وقت ما موقف الترك حتى إنهم سلبوا « فكرى شهبير ». لكن تمكن العثمانيين في لعدد والمدافع بالوا المصرية آخر الأمر؛ وقد سجل يهد مصر بغير تفكير. حدثت بحسنه فولى المصريون الأمداء نحو دمشق لأن « حلب » قد وضعت في حوزهم. في الحديقة وبعض كبار الأمراء قد تحمّلوا العدو. فعدوا في هذه المعركة. حمل رأسه إلى المائحة^(٢)

وقد دخل « سليم » إلى « حلب » ظافراً، فرحب به الناس باعتباره منقذاً لهم من مغالمة الماليك وعسفهم. وقد أكرم مشي الخليفة؛ ولكنه وجّه القضاة - الحنفية وحدهم الذين فروا - لمدام امكانهم وقف فوضى الماليك. ثم أخذ

(١) مع انه قتل بعض الأمراء الذين خدموا « سليماً » على كره منهم ثم فروا من جيشه عندما اكتسبهم الفرصة. وقد كان موقف « خير بك » خطراً جداً

(٢) تختلف الروايات في هذا: فقد ادّعى « خير بك » خير موته ليزيد في فرار المصريين وقيل ان السلطان وجه حياً في الميدان فقطع رأسه ودفن مقتلاً فوقعه في يد العدو. ورواية الثنائيين التي نطع رأسه ترك فأراد سلبه ان يقتله ولكنه عاد ضفا عنه

معه « خير بك » وضابطاً مصريين آخرين وتقدم نحو القلعة التي قد هرب منها فاندھا واللاحقون اليها؛ وها « براد » يطار احتفاره رجال حاميتها فأرسل أمامه جندياً أخرج ومعه عصا فتفتحت له الأبواب في الحال

وقد وجد في القلعة نفائس كثيرة كان قد وضعها السلطان والأمراء خوفاً عليها، فأصبحت لا حارس لها^(١)، ثم سار « سليم » وسط أفراح واحتفال إلى المسجد الكبير فدعى له فيه في الصلاة. ثم سار مغلفاً من حلب إلى دمشق حيث استمرت أسد حالات الذعر بين الناس الذين لم يحاولوا عمل شيء لمقاومة العدو ولحماية المدينة أكثر من إرسال الماء في السهل الذي حولها. وقد نال أسرى أعظمهم ثمار الأمراء فيما بينهم، كما هو ذنب أمراء الماليك. وقد فكر بعضهم في تولية « جان بردى » عرش السلطنة، وفكر آخرون في إحلاس « ابن قنصوه ». ولكن عند اقتراب العثمانيين ذهب فريق اليهم وفر فريق إلى مصر، ودخل « سليم » المدينة حوالي منتصف أكتوبر؛ وقد اغتبط به السكان من عظيمهم لخصمهم اغتباطاً لا يحيط به الوصف. وخصصوا بسرعة الفاتح العثماني تحفا من عسف الماليك

حكم قنصود ما يزيد قليلاً على خمس عشرة سنة. ولما عرف الكبير عن حياته الخصوصية وإدارته الداخلية، لأن عدما وصل إلى الأبناء الأخيرة للسلطنة المصرية قل لديها التفاصيل بدرجة لا يصبغ الحكم بوجوبها. وما يقال في غير مصلحته قل حدّ مما يقال عن أكبر سلاطين السابقين. وذلك رغم قسوته واعتصده الأموال كما رأينا

مصر في عهد محمد علي

(١) المنع المطب الذي يذكره هو مائة مائة نقطة من الذهب

الفصل الحادى والعشرون الأشرف طومان باى

١٥١٦ - ١٥١٧ م

سبتمبر واكتوبر
١٥١٦

وصلت أخبار الهزيمة وموت « قانصوه » الى القاهرة في أوائل سبتمبر ؛ غير أن النتيجة الهزمية التي كانت قريبة لم يدركها الحكماء أو الأهليون إلا بعد وقوعها ، وعندما قُتل لم يفلح « طومان باى » الأمير الحاكم بمصر بمصعوبة كبيرة في إيقاف المماليك وتوجيههم الى الخطر المحدق بالإمبراطورية ، حتى بإرشادهم كي يقوموا بواجب الدفاع عنها . وهذا يدل على فقدان الوطنية في هؤلاء المماليك . وقد استلخ شهر قبل أن تتخذ الاجراءات لانتخاب خلف لقانصوه ، وذلك لانتظار عودة أمراء سورية ؛ وأخيراً توقفت الخيرة على « طومان باى » فرفض هذا المنصب مدق طوقه ثم أقبله وجرت عليه سيج من مكان ممينا غرب المدينة . بعد أن جعل كل الأمير بمصر له على طاعة بهر من له الخصم . طومان باى . مثل سلافه . كان في مبعده سبعة مائة في قصر « ... » في مدنيجا الى مبرماته ثم الى ديرة الورود . في يوم من ايام حروب مصر . بعد حرب مبرماته ، القاهرة وحكم مصر . وان كل خمسة نصف مع سبعة مائة على اسلحه « ... » ولكن بدون احمس . أو أى مظهر من مظاهر الأبهة ، لأن الخاتم الملكي قد فقد في المعركة . وقد كان منصباً مطلقاً لا يستحق الشكر هذا الذى ناله طومان باى وهو في سن الأربعين ؛ لأن سورية قد ضاعت ، ولأن الجيوش تفرقت ، والأمراء شتتوا ، والمماليك كانوا بعد على وكان محبوباً في البلاد جميعاً

(١) وبما انه كان مملوك السلطان التولى فقد سمي بابن قانصوه

وعلى تولى الأيام وصل الى القاهرة من « دمشق » الأمراء المديون ومعهم « جان بردي » ومضى شهر آخر قبل أن يتم شل الجيش المنتدب وفي تلك الأثناء سقطت في أيدي الأعداء « طراس » و « صفد » وغيرها من المعاقل السورية ؛ وقد حان أول ديسمبر ولم تحضر المقاتلة العدو القوة التي حمت في القاهرة بقيادة « جان بردي » كي تعذر عزرة . وكان قد أخرج مبرمته عوذاً . وعرض عده « طرابلس » الخسعة اتى عليها المماليك . وبما أن أهل هذه الحملة الى حيث قصدت كانت « عزرة » قد سقطت ورد اجس على غطاه مبروما . وفي حلال عيب « جان بردي » وصل وقد من فل « سيم » طلب الى اسباط أن يعترف بأن تكون « ... » المضروبة باسمه وبالذات له في الصلاة . وقد فعل ذلك معتزلاً بمعنى الخائفة به . و « ... » لفضافة العود الذين انحازوا اليه - وقد قال على لسان وفده « أهل هذا البلد مصر . و لم تفعل فتنى لأربك أنت وممايكات معك من وجه الدنيا » . ومع أن هذا الموقف في سحرية وانتهى في المدينة . كان السلطان يميل الى اجابة طلب الدولة العسا : « ... » على حكمنا مرأوه لمليونون ، فضل رجال الوفد . وبعد ذلك عيب حيار المنصب الوحدة بعد الأخرى . وتعمل المدينة العبرج « ... » والياس . وقد كانت حانة « حيرك » وكثير من الأمراء الآخرين سبوا في حمل المذهب حراً ، فقاموا . وقد جاء سكان « عزرة » بأكادب بقضاء نصر من . فاجحه الحماية التركية فمر سام بدفع كثير منهم . وقد زاد الظلام جيلوك حير الحيازة اتى لربكها « جان بردي » ، وسأول هذا كله أنه « سيد مله » . غير انه تم الى كثرة الأعداء . وإلى حين رجاله المدرسين في حين بدأت في هذه الحملة تتجلى المشوكات لحيطه مبرمه . وبعد ذلك عند السلطان العزم على أن يخرج نفسه الى « الصحلية » بدلاً الأتراك الذين أنهمكهم سيرهم في الصحراء . وفي آخر الأمر حتمع رأي مبرمته الذين رؤوا أن يتخذوا عهد « الربدانيه » التي بعد من المدينة مبرلا

وفي هذا الوقت وحل الثعالبون الى العريش وتقدموا عن طريق الصحلية ولبس الى «الحفافة» من غير أن يلقوا مقاومة. وفي اليوم العشرين من شهر يناير واصلوا الى «بركة الحج» وهي على مسافة ساعات قليلة من العاصمة. وبعد يومين

۲۲ منابر

من ذلك اعترضت صلب الجيش الخنادق المصرية ، في حين إن فرقة من العثمانيين جاوزت نالال العظيم واكتفت المصريين قنشت معركة قاتل فيها طومان باي قتال الأبطال ، وقد فذف بنفسه هو وبعض المحضين من رجاله وسط صفوف الأتراك ، وبلغوا خيمة السلطان ؛ ولكن في آخر الأمر بوغت المصريون ، وحزحوا من مواضع قفروا مسافة ميلين نحو الجنوب إزاء النهر ؛ فدخل العثمانيون المدينة من

غير أن بلقاء مقاومة، واستولوا على القلعة وذهبوا رجال الحامية الحركس جميعاً
في حين أن كل الشوارع كانت مسرحاً للهاج الفزع. وقد احتل «سم» عدة

اليه ، وهددوا الناس بالموت اذا لم يدفعوا لهم فداء . كبرياءه قد اضطهد الجراكسة

۴۶ شمار

فلما نحية، وذبحوا بدون رحمة، وعلقت رؤوسهم حول ميدان القتال. وبعد أيام دخل « سليم » المدينة ومعها الحظيفة الذي بدأ حينئذ تأثيرة بظلمة إذ وقفت بمساعيه المظلمة الوحشية، وبدأ السكان يشيرون ببعض الطائفة

227

وفي الليلة التالية ظهر « طومان باي » واستولى هو وحلفاؤه من العرب على المدينة التي لم تكن محصنة تحصيناً تاماً ، وطردوا المغنايين في رابعة النهار بعد أن كبدوهم خسائر عظيمة . وقد كانت الحفادق محفورة عند الطرق المؤدية الى المدينة .

(۱) فد اور ابن ابیس دعاء الخلیفہ ومؤدہ ما علی : یا اللہ! احفظ السلطان مکہ العربی
والبحرین وحازہ الحبشہ ومکہ المراقبہ وحامی حرمین «القرینین» المولی الاعظم
«سلیم شہ» وآتہم ممونک وعصرک یا اللہ دنیا والآخرة یا من له ملکوت السماء والأرض

وفي يوم الجمعة دعي في الخطبة باسم سلطان مصر ثانية. ولما جن الليل وكاد ينتصف عاد العدو في جموع كثيرة وشتت شمل المالكات حتى انزروا في مخابئهم؛ فهرب السلطان عبر النهر الى الحيزة ووجد له ملجأ في صعيد مصر.

ولما قنع سليم بهذا القافر عاد الى جزيرته ، ووقع فوق خيمته راية حمراء ،
بعضها ، اشار الى القوم من الناس جميعاً الى المراكب ، وقد تم ، فقاموا ثم ، وتصدر
علا ، يذروا به يقتل كل من يؤويهم اليه ، فكتشف هذه الموسية عن قناته حرب
رومييه . وقد عني عن كثير من أهل المدينة شحنة الخيفة لهم ، وكان مركزه
الآن هم من مركز كل حليف في عهد اسطوخودوسية . وقد استعمل " سليم " ^(١)
من فاضلوه استمالة ممتازة ، ومنحه المدية التي ساء أولئك له مسكنه . وبعد
ذلك قليل وسع نفوذ الأمراء المسخفين : فما ظهورهم ونجهم ثم وروعه على غرف
سجن القاعة ، ولم يستعمل من لمايك جداً ، إكراهه استعمل " جان بردي " الذي
وأن يستعمل في معركة " الريدينية " ، والذي ارعى الآن على فداء سليم ، ثم جعل
له القيادة في مقاتلة العدو ^(٢) . ثم حصن سليم اعلمه واتخذ مسكنه له بعد أن جعل
على مدحا بابا الأكبر فصلا من الجند حاميها

وقد وقف ثاية " طومان ناي " موقف المباحة ، وأصبح موقفه مبدأ خطراً
فصل مؤامرة المائات والبدو له ، وقطع ورود المدد والبخار من الوجه القبلي
إلى العثمانيين . وفي آخر الأمر حين ملّ طول النزاع عرض على " سليم " وغشته
في الاعتراف بسيادة الباب العالي إذا حلا النزاع عن الدمار المصرية ؛ وعلى ذلك
وقد إليه " سليم " خليفة وأرغمه من التبعة مع مندوب تركي . الاتفاق معه على
-- بوط : ولكن الخليفة كره لعبه هذا الأمر ، وأرسله أنه دلاعه . ولم يسمع
طومان ناي . التمسط المعروفة عليه ظهر ضروره ورغته في قبولها ، ولكن

(١) بعد من خلاف شهر بين المؤرخين ، من عدمه ، حاشي بردي ، إلى النهاية غلابة
الأمم ، ضد الله لاصطدامه معهم ، والمهم هو من خلفنا حتى معركة الريدانية ، ولما رأى أن
الفتح واقع ، دبر بين ذلك ، ثور أن حاشي أم ، حاشي حاشي شهر ، باني

ثم رده اليه لم ينمو معه د سليم يعود على رايه ، وذهبوا انصاع الوفد الأتراك
ووجدوا من العدة^(١) ، ووجهوا بحرقه ، فنجحت ، وعند ذلك انفق سليم
لنفسه بارتكاب عمل وحشي كهذا وهو قتل الأمراء المسجونين في القلعة البالغ
عدددهم سبعة وخمسين

مارس

عاد السلطان بعد ذلك الى الجزيرة ومعه كثير من الاتباع فأراد سليم الذهاب
اليه ، ولكنه وجد صعوبة كبرى في عبور جنوده النهر الى الجزيرة فاضطر لينا
قطرة من السفن في عرض النيل^(٢) ، وجمع « طومان باي » جموعه عند الأهرام
فالتقى الجيشان هناك حوالى ختام شهر مارس ، ونشبت معركة استبسل فيها الفريقان
محمية يومين ، غلب في نهايتهما طومان باي ، على الرغم من امداد قائده « شادي بك »
اياه امداداً حسناً ، وفر « طومان باي » الى أحد مشايخ البدو ، وكان قد أحسن اليه في
بتخليصه من الموت ؛ ولكن البدوي نسي ذلك الجليل ونفر ذمة اللاحق اليه بتسليمه
الى الأتراك^(٣) فخلوه الى سليم في الأصفاد فوجئه على إصراره على معاداته ، وبلى
قتله رسله . فوقف السلطان الأسير موقفاً مشرفاً وانكر ذل القتل الشنيع ، فتكلم
في غير وجل عن عدالة حقه في القتال لأن الواجب يحتمه عليه بحكم منصبه واحتياجه
بشرف أهل البلاد واستقلالهم ؛ قال سليم الى عدم قتله وأراد أن يأخذه معه الى
القسطنطينية ، غير أن الحاش « خير بك » بل أيضاً « جان بردي » ألما على سليم
في قتله بقولها إن حكم العثمانيين في هذه البلاد سيظل محفوظاً بالخطر ما عاش
طومان باي ؛ فكانت حجتهم قاطنة . وعلى ذلك زج السلطان الذي الحظ في السجن ،

(١) كان هذا القاضي اتهم أحد المالكين بتهمة لدى سليم فنفى عليه بالوث

(٢) يقال ان « سليا » سنة النزاع فأرسل ثانية أحد الأمراء ، على يرفق الى شروطة حسنة
وأكرم قائدة ذلك الأمير مع القائد « شادي بك » كانت سيرة القاضية ، إذ نشبت بينهما
معركة بدلاً من الاتفاق ، وفي هذه المعركة جرح الأمير وفر هو واتباعه ، وعلى كل حال فإن
الأمير لم يذكر هذه الحادثة غير المختل وقوعها

(٣) وقد كوفي الموي (حسن بن مرعي) على خيائه ، ولكنه بعد ذلك قتل فشرط
المراكسة من دمه ؛ وعند ما علق رأسه في المدينة أقام اصحاب السلطان السابق مقام الزينة

ثم سبق بعد قليل عند باب المدية^(١) « عتياده مستبنا » ، وعبت حثته معاقبة ثلاثة أيام ، ١٥ بريل
ثم دفنت . وقد أصاب من الحينة « شادي بك » أيضاً فقتل في الوقت نفسه .
وقد وُثِّق موت طومان باي المحزن ، سمعوا عن واحد حتى حاول أحد الأمراء وطائفة
من أتباعه المخاضين دبح « سليم » عذبه في الليل ، غير أن حرس القصر كانوا
حذرين ، ولم يلا ذلك ثم هذا المرسوم الخطير

وقد سمع طومان باي من العمز وبين حجه ، لم يحكمهم غير ثلاثة منبر وصف
منبر ، ولم يخلف وراءه ، وقد عذت روحه ، ابه « أكبردي » ، من أجل موالحا .
وقد برهن طومان باي في كل من عهده نيابته عن فاصوه وسلطنته ، أنه سحاب كريم
عدل . وقد سمل لحزن لموت كل البلاد المصرية ، وهو حسن رجاى هذه الأميرة
مع أنه آخره . وهكذا انتهت اميرة الى ملك اتها ، محزنة موت طومان باي



(١) هو باب زويلة . وقد زعم البعض أنه رأى

معايد الأمور في أيدي ودياته ومعطفه، وحرف وقته في سلاطمة الادارية.
وقد أفاة بجزيرة الروضة، ونسب له بها بحاح القبس في طرف الجزيرة الجبلية
حوسق من الحشت. فأقامه فيه مدة الإيماء بسير أقامه بسبب الأنسوف
« قايقي » المثل على تركه الفيل

أما بن « حمد » الطالب من السور على فمد كان محب في القاهرة مد
هزيمة « فاصم » ولد أنجل سليم، ثم عاهه من يده، فقص عليه « حيرت »
لكنه خشي قتله مخافة هاج محبه، فبعد بالأمد، ودفعه إلى العاهه منكرأ.
فتنق فيها. وقد كان « حيرت » في أول الأمر غير محب لي لأمر، ولم يأت.
ولكنه مع تولى الأية صادفها، فاستطاع بموتها أن يكبح حرج الانزال
الأكثارية الذين عوا في الأرض صداداً. وقد سنده أباب العالي مرة ومرتين
لحاسبته على ما فعل، مع أنه لم يكن يستحق هذه المعاملة، ثم أخذ انه إلى
الفسطاطية رهينة. وقد كانت إدارة حيرت حسه عدله « حجه تسوج
الاطراء. وقد تواض « چان بردى »، وكان لا يزال حاكماً في الساء، وحاف
« حيرت » ورعى أباب العالي ثورة « حجة » الحجة والتسلل على نفسه بمعه.
وقد بقيت سورية « حكاكات » ممسكة إلى حكومات مفصلة. أما مصر التي
ملت ولاية وحدة فكان المولى فيها يسند له سيرة من قبل الفسطاطية سه
مده سه. وكانت المسئولية على إقامه هه قائد الجيوس؛ ولم يتدخل في شأنه
بلاد لا وف الأرمب بعد مشورة « دوز » مؤلف من القضاة وسير من
« ممد » ويمكن في تميز الحكام نجة ليس من الأرمب والعلم اللبس ذاق الناس
مرادهم من قبل. والحق أن البلاد ساء حالاً عما كانت عليه في الماضي لأن
حيرت الأرض ونمراد حمود الفلاح صارت يؤخذ من أي. كغيره إلى السور على
السامية بعد أن كانت ستهلك داخل البلاد

١١) الفصل الثاني والستون

سليم والخليفة المتوكل

مكث السلطان سليم في القاهرة بعد موت « طومان باي » مدة لم يفعل في خلالها
شيئاً غير زيارته للأهرام وذهابه إلى مدينة الإسكندرية؛ وقد حل فصل الخريف
قبل أن يرجع إلى الفسطاطية؛ وقد منح « خير بك » حكومة مصر جزءاً ما قدمه
من صالح الخدمات، ومنح « جان بردى » ولاية سورية، غير أن القلعة التي هي
مفتاح القاهرة استندت قيادتها إلى الباشا التركي (الوالي) وكان شديد الحذر

ولما أزمع السلطان سليم الخروج من الديار المصرية استصحب معه الخليفة وجماعاً
غفيراً من الناس كان من مجتمهم كثير من أبناء السلاطين والعلماء والفقهاء والأمرأه
والجال لحكومة ووزراء. لصعدت المهرين والفضة السبعين لم ولم يقتصر على
ذلك بل عد إلى تجريد المدينة من نقالها فانتزع أنواع الرخام الذي كان بالقصر
وكذاب أحد كثر من المباح الفضية ودوات الخزف والسبع الفضية فكان
كل ذلك حمولة الف بعير؛ هذا إلى ما سلبه رجاله الكثيرين من باشوات وضباط
وجنود من البلاد فقد حرموها خيراتها وبركتها إذ لم يبقوا على شيء من جيادها
وباطها وحيروها، ولم يدروا نفيسة من نقالها.

انحطت القاهرة إلى درجة مدينة عادية تابعة، بعد أن كانت مدينة ملكية
سائدة، وقد شعر الناس بعد خروج « سليم » من البلاد بتكشف غمة عنهم، لأنه
في غضون ثمانية الأشهر التي أقامها في مصر أصاب الناس الجهد. وقد ترك

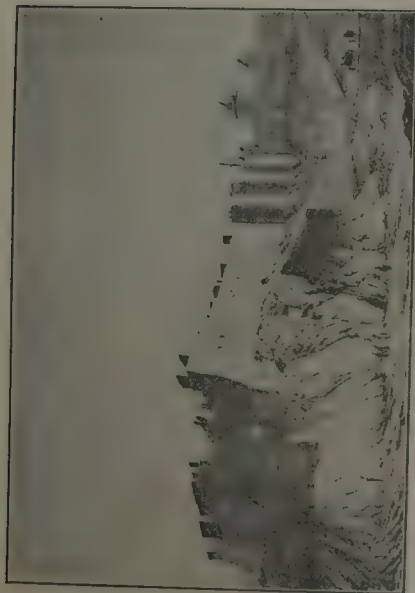
ذكرنا أن الخليفة « المتوكل » آخر الخلفاء ذهب الى القسطنطينية في حاشية سلم وقد عامله في أول الأمر باحترام كثير ولكن هذا الاحترام لم يلبث أن تغير وانقلب الى امتهان ؛ ذلك لأن سليماً اتهمه بأنه لم يحرص كل الحرص على أموال النياى والأرازل التى عهد بها اليه اثناء الهجوم على القاهرة ، وسجنه فى حصن « القلاع السبع » ظاهر القسطنطينية ، فبقى فيه حتى مات سليم . ولما ولي السلطنة « سليمان » اذن له فى العودة الى القسطنطينية ، حيث بقى مدة عائشاً على وظيفة يومية مقدارها ستون درهماً ، ولما تنازل فى آخر الأمر عن لقبه ووظيفته الى العثمانيين سمح له بالعودة الى القاهرة ؛ ولم تعد نسمع عنه شيئاً سوى اشتراكه فى ثورة قامت فى مصر . وقد قضى نحبه عام ١٥٣٨^(١)

منذ تنازل الخليفة « المتوكل » عن الخلافة صار سلاطين العثمانيين هم الخلفاء ، واتخذوا لأنفسهم جميع حقوق الخلافة الاسلامية ، ولا تزال فيهم الى اليوم

١٥٣٨

١٥٣٨

(١) لم يذكر ابن ابيس فى تاريخه عودة الخليفة الى مصر مع أنه بقى فيها حتى رأى بيبايه كثيرى يهودون من القسطنطينية ، وعلى ذلك لابد من أن عودة الخليفة كانت بعد عام ١٥٣٧ م وهو العام الذى يأتى فيه تاريخ « ابن ابيس »



١
مسجد جامع من قبل

افضل الثالث: امشرون

طائفة الممالك

أوردُ هنا ملاحظات ختامية لا بد من ذكرها يائاً لمركز الممالك الاستثنائي وحكمهم مصر زماناً طويلاً: لا نجد في تاريخ العالم نظيراً لعصر الممالك - فطالما سمعنا بأن العبيد والأرقاء في ثورتهم يسودون مواليهم سيادة لا تلبث أن تنقشع عنهم؛ ولكننا نسمع مطلقاً، ولا كاد نصدق لأول وهلة، أن طائفة من الأرواح المشرقة بالأموال من أسواق آسيا يكثر عددهم ويؤويهم أرقاء مثلهم ثم يحكمون قسراً غنياً كهم، ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر، ويصبح مملوك يدهم حاكمه. ولكن مدينت مصر بطول هذا المثال في عصور الفراعنة الرابع عشر والخامس عشر

مصر في عصر لأم من عهد سوسن أن نهض هذه الطائفة لم يكن إلا لما سار عليه الحلفاء العباسيون من استدلتهم قبائل هجيرة من التركان إلى مصاديق تساعدهم، فسوا بذلك سنة سيئة نتجائحهم فيها الفاطميون في مصر، وقتر على أثر هذا سلاح من إلى الممالك عرب النوبة الأيوبية. على أن القياس على حالة بغداد قياس لا أساس له، لأن القبائل المهيمنة التي نزلت هناك اختلطت بالناس وأصبحت جزءاً منهم. أما الحالة في مصر فكانت على قبيض ذلك، وهذا هو موضع العجب؛ فممالك مصر لم يحتفظوا بأهلها بل ظفروا بجزل عنهم محتفظين بجنسياتهم وعاداتهم، فكانت حكومتهم «أوليفية» على رأسها الأمير أو السلطان، في حين أن باقي الممالك كان لهم سلطان نافذ لا ينازعهم فيه أحد؛ وإذا اقتناهم لم عذراً في ابتعادهم عن الأقباط لخالفهم إياهم في الدين فانا

لا نجد سبباً يبرر ابتعادهم عن المسلمين في جميع أنحاء الامبراطورية سواء في مصر أو سورية أو حدود أرمينية وآسيا الصغرى. وهذه المرأة والترف انفرد بهما الممالك حتى كانا يعدان ميزة لهم وفارقاً بينهم وبين غيرهم؛ ولعلهما كانا من الأسباب التي دعت إلى طول مدة حكمهم

وليس لدينا ما نستدل منه على عادات الممالك وحياتهم المنزلية غير مصادر تافهة سقيمة؛ ولم يعرف عن ذلك شيء أكثر من اسم ملكة من زوجاتهم أو أجنبية من حواريهم. وما لا شك فيه أن الحواري كن يؤتى بهم من آسيا أو بلاد اليونان - وذكر هذا قليل كذلك - وكان النساء اللاتي يسيبن في الحروب يؤتى بهن إلى مصر فيحتفظ بهن الممالك أو يبيعهن. ولم يكن هؤلاء السبايا مع بناتهن كافيات لأن يكن زوجات للممالك لكثرة عددهم. والممالك على كل حال لم يتزوجوا من نساء مصر إلا قليلاً جداً فتروج بعضهم من بنات القضاة وكبراء المسلمين في القاهرة ولم يتزوجوا من المسيحيات مع أن الاسلام يبيح التزوج منهن. ولكن زواجهم هذا لم يغير من عادة المرأة فيهم ولم يدعهم إلى الاختلاط بهيرهم. وقد يستطع المرء أن يذكر الصعوبة دون شرحها أو تفسيرها. ومع ما كان من ابتعاد الممالك عن الناس ومع ما استمر عنهم من الانقسام في داخليتهم كان مجانبهم كل من عداهم ومن انتهر ما انفرد به الممالك - على رغم ابتعادهم وترفعهم عن الناس - التقسيم إلى أحزاب وتبع لكل حزب منها رعيه؛ وكان المملوك شديد التمسك بالسلطان أو الأمير الذي ابتاعه فكان عظيم النفوذ بحره وبأمرته حتى بعد وفاته، بل بعد أجيال عدة؛ والدليل على ذلك الأشرفيون والظاهرية والمؤيدون وغيرهم ممن تسموا بأسماء سلاطينهم وموادهم

وقد كان التراء والخلاف الذي يقع بين الأحزاب المختلفة سبباً في تعكير صفو دولة الحكومة؛ وكما في الوقت نفسه ولد في الممالك روحاً مستقلة أظهرت به لشجرة وسدة الناس مخافهم الناس

وعما يجب ذكره أن المالكيات كانوا يتلون في الغالب قسماً كبيراً من التعليم ، فكانوا يربون في مدارس الحرب ومعاهد السلم ، فكانوا في حداثته ستمهم يتبنون أحياناً في الفلسفة والفقه والعلم وفي الفروسية واستعمال الأسلحة فيصبرون جذرين بالوظائف السامية وولاية الأمور . على أن الحال لم تكن دائماً كما ذكرنا فقد ظهر من بين السلاطين من لم يستطع كتابة اسمه ؛ ومن بين هؤلاء من استتمك باستعمال لغته التركية أو الحركة

وهناك صفة أخرى اخص بها المالك وهي عدم عنايتهم بالوراثة فكان المالك المحبوب يخلف سيده على العرش وأحياناً يسمى نفسه « ابن سيده ». وفي أغلب الأحوال كان يرث التاج ابن السلطان وهو طفل لم يبلغ الحلم ، فلا يلبث أن يحمله « أتاكبه » أو أمير آخر يكون قد تأمر عليه . ولم تر واحداً فيمن مر بنا ذكرهم قد استمر التاج في بيت سوي « الناصر » ، إذ حكم بعده أبناؤه وأحفاده ستين عدة . وكان التاج في الغالب يؤول إلى أقوى الأمراء نفوذاً وأسوأهم مكانة وأعظمهم احتمالاً ، إلى حين ، إلى فحم و كبرهم سدود عن انخاف . واعتبر المريد ان ح وقفاً عليهم . وملكا لهم يتوارثونه ، فأدى استثمارهم به ، بدون شيك إلى إفوام الحكومة الأوليغرافية . ومن أكبر أسباب تعاقبهم بالولاهم الثروة الكثيرة التي استحوذ عليها الأمراء انزعاجاً من أبدي الناس ، والأفظاعيات العظيمة التي وهبتها لهم الحكومة ، انتمسوا بالنفذة التي قاموا على أنفسهم ، وإن غيب هذه الآفة كما هي فيهم مدة فهو بقائه ليس له ثبوت إذ ربما عصفت عليها عواصف ثورات تلك الأيام فأخرجتها من أبدي مالكيها

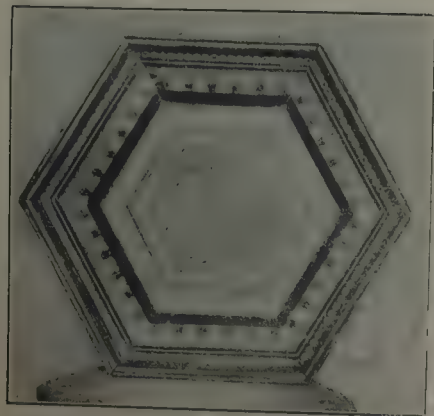
و باعتبار طائفة المالك أمة نجد أن ما كن في نفوسها من الحياة لا يحس في
شئ من ذلك . من ظهر من بين هؤلاء معتدل حاله من محسنين ، يتقربون بالعرف
من الجوع . و من طمع من ليس و معص على نفسه ، انجد منهم من حبس الأموال
على حرب ، و من فيه الادب ، و من في نفسه و الكتاب يعد الناس فيها علوم

العلم والفلسفة والفنون والعلوم الرياضية والطبيعية؛ وبني ملاجي الأيتام، ومنهم من خلف وراءه آثاراً من عصرهم في المباني الجميلة التي لا تزال تزدهر بها هذه العاصمة، وإن كانت قد امتدت إليها أيدي العثمانيين عند فتحهم البلاد كما امتدت إليها بالسوء أيدي بعض المالكات الذين كان من دأبهم مناصرة اليهود والنصارى. ولكن الغالبية الكبرى من المالكات، وخاصة في أيامهم الأخيرة، كانت عسوة كثيرة الخيانة كثيرة المظالم لا ترقب في إهراق دماء الناس الأثام، ولا ملاجي الأيتام، ولا يذنبونهم بالجلد والكي، ويدسون لهم السم، كل هذا رغبة في التخلص من شرورهم أو للحصول على أموالهم بدون جرم أتوه.

و خلاصة القول اتناجب أشد العجب من أن نيرا أجنبا يشغل كاهل الناس
 ويخوفهم طويلا ثم هم لا يحاولون القضاء عليه قبل اشتداد وطأته . والحق أني لم استمع
 منهم السب في استعراء هذا الحكم ، اللهم لا اذا كانت حالة الاقباط السيئة إذ ذاك
 هي التي ساعدت عليه ، لأن الاقباط وحدهم كانوا هم القوة القادرة على مناهضة
 لما نيت ووقف تيار سيدهم . بل الخيفة كان لعمري في بيدهم ، وكان رؤسا
 لهم مع امهم القابضون على المناصب العلمية شرعية كانت أو غير شرعية -
 خاضعون . وكان يمددهم ، يسهل الى عدد الاقباط فبالا لا يسي لمع به تعليم مناوة
 لما نيت ومعداتهم . ولا يستطيع احد عليل مثل القبطيين من هل في كبريين
 تحت الخلافة قسوة في الإسكندرية أو القاهرة أو فلسطين

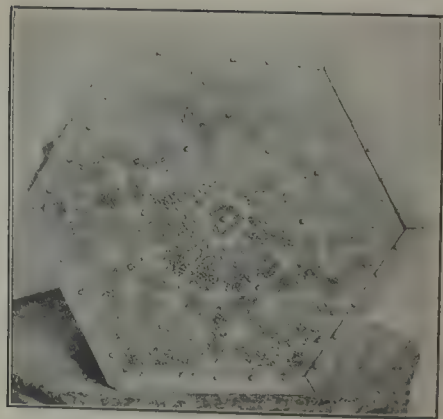
وكذلك من العسير أن نجد سبباً لخضوع سورية خضوعاً تاماً ولكن لكونها «ميدان حروب العالم» لم تكن تستطيع أن تصير على خطة سياسية مستقلة متحدة؛ إذ كانت حمايات المالك مستحوذة على القلاع، وكان حكام من المالك يحكمون البلاد. ولم يفكر أحد منهم في جعل هذا الحكم في أيدي وطنيين. ولم يملك شك فيه أن البدو كانوا أمة مستقلة ولكن عاداتهم البدوية، عادات الظاهر والترحال، لم تجعلهم يتحدون لهم مستعزاً ومدمراً في أي صراع من الأرض. ولأنهم ينسكروا

طويلاً اشتراكاً فعلياً في أمر واحد ، يمسك ما كان عليه المالك فانهم - على رغم كراهية بعض أجزائهم لبعض ، ومع حروبهم وأحقادهم الداخلية - كانوا متحدين اتحاداً تاماً بالنسبة الى من عداهم ، الخارجين عن بلادهم . ومع أنهم لم يكن أصلهم ثابتاً في البلاد كما لو كانوا في بلادهم الأصلية . ملكوا على مر الأيام كل شيء ، فليس فيها ، ولم يترددوا مرة في إشباع خزانهم على حساب معاشيهم من أهل البلاد . ولما كان غناهم وقوتهم وخزيمهم مساعداً لهم على استعباد الناس استعباداً لا نزاع فيه وكل هذه الاعتبارات المتقدمة تساعدنا الى حد ما في فهم السبب الذي جعل سيادة الممالك على مصر طويلاً ؛ على أن هذه السيادة لن تزال ظاهرة من الظواهر الغريبة التي تجعل عن الاستقرار في هذه البلاد الكثيرة العجائب



سطح كرنى مربع ، بنفسه وحده في مسجد سعيان بن الناصر
ومحفوظ بدار الآثار العربية بالقاهرة





كُتِبَ عَلَى هَذِهِ الْحِجَابَةِ مَوْشَى بِالْفُصَّةِ وَجَدَ فِي مَسْجِدِ النَّاصِرِينَ قَلَاوُونَ
وَيُظْهِرُ أَنَّهُ صُنِعَ فِي زَمَنِهِ وَهُوَ مَحْفُوظٌ بِدَارِ الْأَثَارِ الْعَرَبِيَّةِ بِالْقَاهِرَةِ



أُثِرَ بِهَذِهِ الْحِجَابَةِ فِي مَسْجِدِ النَّاصِرِينَ

المحرم الأول

نظرة مختصرة في الممالك

تحت حكم العثمانيين

١٥١٧ - ١٨١١ م

ظل المالك واضعين أيديهم على مصر طوال الحكم العثماني إذ أنه كلما كان ينقلص يجد الباب العالي من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولايته في مصر فيزيد نفوذ البيكوات المالك تبعاً لذلك . بقي المالك على عهد العثمانيين - كما كانوا من أجيال عدة - طائفة مفصلة لا تختلط مع من يسكنونهم الديار . ولم يزالوا يكتفون من عدهم بشراء ممالك جدد كانوا ينفذون على مصر من سبيلها بلاد الحبش . وجاورها من البلدان . وما . رؤساء الممالك سموّن باسم « شيخ البلد » . وكانوا كثيراً ما يتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذا اللقب . فتلو ذلك حاجبهم البلاد جميعاً . وكان « الشيخ » إذا عضده الأمراء يستغل أمره فينزل الباب العالي وواليه في مصر على إرادته ، فكانت هي الحاكم الفعلي للبلاد

ولما كان الباب العالي مشتتاً مجزأ مع الرؤساء في الجزيرة الأخيرة من القرن الثامن عشر ، نه ذكر شيخ البلد على بك الكبير ، واستطاع كسر شوكة الانكشارية الذين كانوا عدة العثمانيين إذ ذاك في مصر وأخذ يزيد في عدد المالك في بلاطه حتى بلغوا ستة آلاف . وعندئذ اتخذ موقف المتسلط وطرد والي العثماني إلى القسطنطينية ، ثم توجه بجيشه إلى سورية فأخضعها وأخضع البدو كذلك ، فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة ، ومنحه لقب سلطان . وبعد أن حكم حكماً زاهراً أثمره جماعة وذبحوه غيلة في سورية

١٧٩٨ - ١٨٠٠

كان إبراهيم بك « شيخ البلد » عند ما استولى البليون على مصر لحماية مصالح فرنسا . ولما اضطرب البليون إلى الخروج منها اتحد الباب العالي مع إنجلترا عليه ، عاد « إبراهيم بك » إلى حكم البلاد بعد فراره منها إلى الوحة القبلية . ولا ضرورة لها إلى تبع مجرى الحوادث إلى الوقت الذي أحرز فيه محمد علي السيادة العليا على مصر حتى محمد علي سر المالك فالتفت لنفسه الحيلة وسمح على التخلص منهم فوقع زعمائهم بعد ست سنوات من تضييقه . بأن دعا البيكوات والأمراء إلى وثيقه في القلعة . ولما أرادوا الانصراف سكت الأبواب الخارجية وسدت عليهم مسالك الفرار . وأطلقت عليهم النار فماتوا جميعاً . ويقال إن عدهم بلغ « ٤٧٠ » . وبعد ذلك عملت تدابير أخرى كانت نتيجةها القضاء على بقية المالك بالقتل أو الطرد . وقد هرب منهم عدد إلى بلاد النوبة . ويقال إنهم لاقوا حتفهم هناك . والعدد القليل الذي بقي منهم في القاهرة اندمجوا في أهل البلاد وصاروا منهم هكذا انتهى حكم المالك الذين سادوا مصر حياً عدة فاستراحت منهم القاهرة راحة لم تعرفها من قبل

بـ خـ يـ جـ هـ

الملحق الثاني

مذكرة عبرها سادة يعقوب آرتين بلشا عن علاقة المالك بأهل مصر
(وهي اجابات عن أسئلة سأله ايها المؤلف)

تسأني في خطابك عدة أسئلة ؛ واتى لمورد هنا الاجابة عنها جهد الاستطاعة

(١) « دخل الممالك في طاعة الباب العالي عام ١٥١٧ م . واتى لاظمة
انهم ظفروا الى ذلك العهد أمة ذات شخصية متميزة لا اختلط لها بالسلطان
فماذا نرود ؟ »

نعم ، كان الأمر كذلك ؛ ويجب على المتبع لتاريخهم ألا ينسى أنهم لم يدعوا
مطلقاً أنهم يكتفون بالزواج والمصاهرة أمة مختلطة منهم ومن أهل البلاد ؛ وكذلك
لم يريدوا أن ينشئوا أسراً ظاهرة متميزة أو طبقة اريستقراطية بزواجهم من بنات
من ذات جنسهم . ومن أشهر حة صحتها الحقيقية والاصححية من الطفل منهم كان
لا معنى له ؛ فثقت وادد ؛ بل كان المملوك يخلف سيده المملوك فيصبح ولياً لسيده
ووصيه . ولدينا أمثلة كثيرة على أنه كان يضم أزواج سيده الى حريمه وإذا لم يقتل
الأطفال المملوكية معنيتهم من بعدهم . وفي آخر عهد دولة كبراً أمة حديده بغير طيبة

(٢) « وبعد ذلك انطلقوا بمزمل عمه الناس كما كانوا منه قبل ، أم أنهم
انفصلوا بالباس من عرب وغيرهم من سلالة البعور ، أو بالذين جاءوا منه
سوسة أو آسيا الصغرى وغيرها ؟ »

كلا ؛ أنهم ظفروا في عزلة لانهم ، لما كانوا يحرسون جد الحرس على بقائهم أمة
حديثة حاكمة البلاد ، تسكن عيشهم وهم عدم الاستيطان الدائم ، وكانت رغبتهم في
الاحتفاظ بمركرمهم السياسي تحتم عليهم دائماً عدم الاتحاد والاختلاط ؛ وكان أهم

ما تنص اليه فقومهم في الحياة الحروب بسهمهم ولو على أهل البلاد
يكبروا من سوكته ويحضعوه خاضعة . وما كانت هذه هي حياتهم كل تكوهمهم
لأشرباً قريباً من المسجيل . وقيل من هؤلاء الخرس من مات خنق نفسه وهم
على فراشه في سن لتسعين أو نحوها ؛ وكثير منهم مات منب سابعه وهم لم يجاوروا
من العمر ثلاثين أو خمساً وثلاثين سنة . وسددهم كان تولى بيوتهم ومنعهم
وأموالهم وجواهرهم ومنعهم وأطفالهم بكل من ، ملكة ، الى سديهم . أو الى
قاتليهم ، أو الى الحكومه التي كانت في ألعاب أقوى هيئة . وفي الحالة التي كانت في
الحكومة أقوى هيئة كان كل ، يخص اميت ، بما في ذلك أسوة . رباح مصاحبة « بت
لمل . وفيما عدا ذلك كان أقوى رئيس في الملك هم الذين ينشئوا على كل ذلك .
ما المالك الذين عسوا في عزلة عساة مدسة وتريدها وحاردهم دويه بعد استحقاق .
بعد جيل أو جيلين ، في العشرين ؛ وكان أولادهم يسمون « الموليين » وكأولاً في
عرفهم لا يلقون بأى خان الحديده والادارة . وانك لمجد في كتاب « تاريخ الجهرى »
مثله عدد لهذا التوبيد . وهل أنتم هؤلاء « عبد الرحمن الكيخ » على لك «
« النصف الثاني من القرن الثامن عشر » . والمثال الثاني أسوة رجل يعرفه أهل هذا الخيل
ونعى به « محمود بسا ساس البوردوى » وهو الآن في حريمه حريمه « سيلان »
مع عراقى دشا ؛ وهم يقول بأنه من سلالة اسطان العورى . ولكن المعروف عن نسبه
أنه حفيد مملوك أملى لك عبد الله بمرساة التي تشده في « بولاق » . وقد بقي
هذا المملوك في منصبه حتى محمد موب ، على بك ، لحبرته ودرايته فصاحه
البوردوى وصير البوردوى الملامر لمعمل المدافع وغير ذلك . ومن هاتى « البوردوى »
وقد تسكت انه مهد الجسيه وتزوج حاربه حركيه روى منها انه تزوجت بموكا
جركسيا ولدها له منها « محمود ساسى لك » (رب السيف والغدا) وقد تزوج من
حفيدة امة أخت « محمد على باشا الكبير » . ولا يزال له منها دويه « حبه » . قد
أوردنا هذا المثال لأنه يربط أسره يرجع لصلب في مملوك عرب في البلاد نحو مائة
وخمسين عاماً . وبقيت تعمل عن عبه السكان في المصاهرة ؛ ولم يحتاج أحد من
هذه الأسرى عدة ازواج بجزيرة سيوية سوى محمود بسا ساسى اذ تزوج من غير

جارية، كما ذكرنا، وان لم تكن مصرية. والأمثلة التي تشبه هذا المثال قليل عليها عندى. أما أمثلة الأسرات التي يقل تاريخها عن مائة عام أى بعد فتح محمد على الكبير للبلاد فكثيرة. وعلى الجملة نجد أن كل الأجانب الذين هم من دم أجنى صرف يفضلون أن يكونوا ممتازين عن المصريين السمر اللون. على أن هناك كثيراً من الأمثلة على اختلاط دم المصريين بهؤلاء الأجانب، ولكنه اختلاط على غير قاعدة، بل ينشأ في الغالب من الصعوبة في العثور على زوج من جنس المتزوج أو المتزوجة أو في درجتها الاجتماعية؛ أو ينشأ عن الرغبة في الاختلاط بحكم طول المعاشرة أو تنازع البقاء. وعلاوة على ما تقدم قد غير الحديو «إسماعيل باشا» منذ ثلاثين عاماً اللغة الرسمية التركية باللغة العربية فكان لذلك تأثير عظيم في ميول الأتراك والجرس، أو على العموم ميول المسلمين الأجانب، فجعلهم ينقبون من المصريين، خففوا من غلوهم وعالمهم معاملة النظائر لمعاملة السيد للعبد، بل ودوا لوقبائهم المصريين كصريين. وقد بلغ في اظهار هذه العاطفة إبان الثورة العربية عام ١٨٨٢م إذ رأيت يمينى رأسى أناساً ليس في دمهم قطرة عربية يدعون أنهم من سلالة النبي (محمد صلى الله عليه وسلم). وهذا الروح أخذ في الانتشار؛ وفي بقية أنه إن يمضى ثلاثون عاماً حتى لا يكون في البلاد تركى فتح أو حركى صميم، فإن جميع الأسر الموجودة الآن تستصير مندمجة في المصريين، بل إن الدم المصرى، من غير شك، سيتغلب على غيره كما تغلب في كثير من الظروف لمن قبل. ولما لنجد أن الاغريق والسوريين والأرمن والمسيحيين الأجانب الذين يتزوجون من أقباطر يتلاشون في الجنس المصرى بعد جيل أو جيلين (زيجة أو اثنتين متتاليتين)

يظن بعض الناس أن الأجانب في مصر لا يمكن أن يكون لهم ذرية أو أسرة خاصة بهم مختلفة بجنسيتهم بعد مرور الجبل الثالث على أصل هذه الأسرة، ولكن هذا خطأ فإن لدينا أمثلة تاريخية تدل على أن البطالسة الذين جاءوا من مقدونيا وأقاموا بهذه الديار، ظلوا أقباء عدة قرون رغم تزوجهم من أخواتهم، وبنائاً للصعوبة

التي نشأت في تكوين أسرات في مصر من وقت أن آلت مقاليد الحكومة الى المالك الترك يجب أن ننظر أولاً لنظامهم الحربى، ثم الى حياتهم الكثرية الهياج والاضطراب، وما كانوا يلقونه من أشنع الميئات، والى زواجهم - إذا اتفق أن طال عمرهم - من زوجات مصريات كنّ يصبن أولادهن من هؤلاء بالصعوبة المصرية. وانى على يقين من أن جو هذه البلاد له تأثير في الأجانب أحسن من تأثير أجواء البلاد الجنوبية كلها فيهم

وقد قيل لى إن أسرة «قايتباى» وبعضاً من سلالة العباسيين لازالون باقين في هذا البلد، ولكن مجرد النظر الى هؤلاء يرى أنهم مصريون، اللون بشرتهم وملامح وجوههم. ويجب على كل انسان أن يصفى بجذرى الى أى شخص يدعى أنه من ذرية السلاطين السابقين أو من نسل أى مملوك من مشاهير المالك بحجة أن له نصيباً في أوقاف جيسبا هذا السلطان أو ذلك المملوك، إذ أن هذه الحجة لا تقوم ذليلاً كافياً على نسبته الى ذلك الواقف فإن عيون الوقت كانت تجس على العموم على الأبناء، والوالدين والمالك والعبيد من ذكور وإناث وكذلك على الخادمين والخاديمات وذرياتهم بل على ذرية الذرية دواليك. ومن هذا ترى الصعوبة الكبرى في تتبع نسب أى انسان من أهل هذا العصر ولا في الحكم بصحته بمثل هذه المعلومات القليلة، وخاصة إذا راغبت أن تاريخ مصر قد توالى عليه، في غضون القرون السقة التي حلت، محصوراً كلها ثورات وانشقاقات

(٣) «في عام ١٨١١ نزع في القلعة بأمر محمد على الكبير» عدد كبير منه المماليك. فهرب هرب منه المماليك عدد كبير غير منه قتلوا؟ ومنه ذلك العبر هل بقى أى أثر يدل على أنه المماليك ظلوا ممتازين به عنه غيرهم؟

لم يقتل في مذبحه القلعة غير زعماء الممالك واتباعهم. ولكنى لا أستطيع تحديد عدد القتلى منهم، وكل ما لدى من المعلومات التي حصلت عليها أنهم لم يجاوزوا المائتين؛ وهؤلاء الرؤساء جميعهم جراكسة. أما أتباعهم الذين كانوا يتولون خدمتهم

فمن المصريين . أما من سكن الاقاليم من المايك فلم يجلّ بهم ما حل باخوانهم وكثير من المايك الذين كانوا في القاهرة كانوا أعواناً لمحمد علي ، ولما نجوا من العاصفة . ويحتمل أن بضعة الوف منهم هربوا من البلاد فخرج بعضهم الى سورية وبعضهم الى الوجه القبلي ، وذهبوا الى دقنة ، ومنها الى شندى حيث هلك بعضهم . وخدم آخرون في جيوش محمد علي التي ذهبت الى السودان عام ١٨٢٤م . وقد أخذ « محمد علي » الفئ من المايك الذين لم تبلغ سنهم الثامنة عشرة ، وكانوا تابعين للمالك الذين هلكوا ، بموجب قانون كان نافذ المفعول حينذاك ، ومؤداه : أن كل ما للعدو يصبح ملكاً لقاهره . وهذا القانون له نظير في التوراة (داود وابنة) . وهؤلاء الأحداث انضموا في أول الأمر في حرس « محمد علي » الخاص ، والتحقوا بمدارسه القلعة ثم صاروا ضابطاً في الجيش النظامي الذي أنشأه محمد علي عام ١٨١٥م في قلعة القاهرة ، ثم نقل بعد ذلك في عام ١٨١٨م . الى اسوان عند ما ثار الجيش الألباني على الجيش النظامي . وكان هؤلاء الأحداث أساس الفوق الأربع التي تم تكوينها الى عام ١٨٢٤ م . ويقال إن عدد جنود المايك بلغ عشرين ألفاً في أول حكم محمد علي ؛ وكان عددهم أربعين ألفاً قبل حملة « يونانرت » على القاهرة . وقبل أن يغتوا أو يقتلوا . ولا يغيب عن الذهن أنه قد قل ورود المايك من الشمال لكثرة الحروب والثورات في مصر بين عامي ١٧٩٨ و ١٨١١م . وكذلك يجب ألا ننسى أن النعاسين لم يجدوا فائدة لهم من توريدهم ممالك محمد علي لأفلس وعلا المايك ، ولهذا لم يكن في مقدور هؤلاء الزعماء لعدة سنين أن يكتروا جنداً من المايك قبل أن يقضي محمد علي رابطتهم في عام ١٨١١م . قضاء مبرماً . ومن عام ١٨٢٤م . الى هذا الوقت كان قواد الجيش من الأجانب ، وكان نصفهم على الأقل من المايك الجراكسة التابعين لأسرة الاولى . وانك لتجد آخر ذكر لهم سنة ١٨٨١م عند ما أراد « عرابي » أن يطردهم بجملة من الجيش . ومعظم هؤلاء الجراكسة اشتراهم الحديوي اسماعيل باشا بعد قبض الروس على « شامل » عظيم الجراكسة وآخر زعيمهم . إذ أنه بعد موت هذا الزعيم هاجر عدد كبير من الجراكسة الى

تركيا ومصر وباعوا ابنائهم ، فاشترى منهم « اسماعيل باشا » عدداً كبيراً ، كما ذكرنا ، وأرسلهم الى مدارس ، ووربهم تربية حرة حسنة حتى صاروا ضابطاً مديرين ولا تجد من عهد أن أبطلت تجارة الرقيق ممالك يياعون في مصر . ولا يزال عدد كبير منهم على قيد الحياة يشغلون مراكز في الأعمال العامة ، وهم على العموم من سلالة آرية من الأغرقي والجركس والأرمن وأهل جورجيا وغيرهم . وهم ينعمون بالحرية التي يتمتع بها الأحرار من الناس . إنك لا تجد في أي حية من جهات مصر أن الدم الأجنبي هو الغالب في السكان ، وأول قادم الى مصر عند ما ينزل الى الدلتا يلاحظ لأول وهلة أن لون البشرة في أهل السواحل أنقى منه في الداخل ، ثم يأخذ يضرب الى السيرة في الجنوب حتى القاهرة التي فيها خليط كبير من مختلف الألوان . والذي أراه أن الدم المصري قد امتزج بالدم الساسي أكثر من امتزاجه بدمه قديماً وحديثاً . وإلى الجنوب من القاهرة يزيد لون البشرة سمرة حتى اذا بلغنا اسوان وجدناه أشبه شئ بلون الزوج . وشمالى القاهرة يصفو اللون لامتمازج بالدم السوري والأغرقي والتركي . وليس الآن في مصر جنس مصري خالص في مصرية ولذلك كان عديراً على أي إنسان أن يجد ماهية اللون المصري . وعلى قدر مبلغ على أقول إن هناك مكانين جديرين بالاعتبار هما : (أولا) شواطئ بحيرة المنزلة حيث يجد الإنسان جنس الهكسوس إذ كما يتبين من الآثار - نجد لهم خدوداً ناعمة وعبوناً صغيرة وجهاً عريضة وأنوفاً كبيرة وحلج غير مكثة ، و (ثانياً) الجزء الشمالي الشرقي من مديرية الدقهلية فيما على الصحراء السورية حيث يجد الإنسان الجنس الساسي الصميم والقرين من الصميم وخاصة في النساء . وفيما يجتص بالجنس المصري - كما هو ظاهر في الآثار - فإن الانسان يجد له أثرأ من جنوبي بنى سويف الى الشلالات .

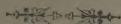
وانى لأعتقد انى أثريت ما يجب على نحو أسنتك ، وانى أخشى أن أكون قد أطلت ولكنى أرجو منك العفوة إذ أنك تعلم الصعوبة التي يلقاها من يتناول مثل هذه الموضوعات باليجاز

بمقرب أربعين باشا

فهرس مواد الكتاب

رقم الصفحة	الموضوع
٤	مقدمة الترجمة
٦	» المؤلف وتشمل شذرات عن المؤرخين الذين أخذ عنهم المؤلف ومنهم المقرئ وأبو الحسن وابن إياس والدكتور دبل
١٠	تمهيد وهو مختصر تاريخي للحروب الصليبية
٣٢	الفصل الأول - مصر والممالك
٣٦	» الثاني - الدولة الأيوبية وسلطنة أيبك وقطر
٤١	الجزء الاول - دولة المماليك البحرية - الفصل الثالث - الظاهر بيبرس البندقدارى
٥٥	الفصل الرابع - السلطان السعيد - السلطان قلاوون
٦٢	الفصل الخامس - السلطان خليل بن قلاوون
٦٥	الفصل السادس - السلطان الناصر محمد بن قلاوون للمرة الأولى
	السلطان كتبغا - السلطان لاجين
٦٩	الفصل السابع - عودة الناصر الى العرش للمرة الثانية - السلطان بيبرس الجاشنكير
٧٦	بيبرس الثاني
٧٩	الفصل الثامن - عودة الناصر للملك للمرة الثالثة
٩٥	الفصل التاسع - اولاد الناصر محمد بن قلاوون وأحفاده الملك المنطقر (حاجى) بن محمد بن قلاوون
١٠١	السلطان الناصر أبو الحسن حسن
١٠٣	الملك الصالح صلاح الدين صالح
١٠٥	عودة الملك الناصر حسن
١١١	الجزء الثانى - دولة المماليك البرجية
	الفصل العاشر - الظاهر سيف الدين برقوق

رقم الصفحة	الموضوع
١٢٠	الفصل الحادى عشر - الدولة العثمانية
١٢٣	الفصل الثانى عشر - السلطان الملك الناصر أبو السعادات فرج ابن برقوق
١٢٨	الفصل الثالث عشر - الخليفة الامام المستعين بالله والسلطان أبو النصر شيخ المحمودى
١٣٣	الفصل الرابع عشر - أحمد - ططر - محمد - برسباى الاشرف
١٤٢	الفصل الخامس عشر - يوسف بن برسباى - الملك الظاهر جقمق
١٤٦	الفصل السادس عشر - عثمان بن جقمق - الاشرف ايتال
١٥١	الفصل السابع عشر - احمد بن ايتال - الظاهر خشقدم
١٥٧	الفصل الثامن عشر - بلباى - نمرقا - الاشرف قايتباى
١٦٣	الفصل التاسع عشر - الناصر محمد الثانى - قانصوه الاشرفى - قانصوه جنبلط - العادل طومان باى
١٦٦	الفصل العشرون - قانصوه الفورى
١٧٦	الفصل الحادى والعشرون - الاشرف طومان باى
١٨٢	الفصل الثانى والعشرون - سليم والخليفة المتوكل
١٨٦	الفصل الثالث والعشرون - طائفة المماليك
١٩٤	الملحق الاول - نظرة مختصرة فى المماليك تحت حكم العثمانيين
١٩٦	الملحق الثانى - مذكرة حررها عمادة يعقوب أرئين باشا عن علاقة المماليك بالمصريين (وهي إجابات على أسئلة سألها إياها المؤلف)



فهرس الصور

رقم الصيغة	الصورة
٣	خريطة سورية و بلاد الجزيرة وارمينيا وآسيا الصغرى
٤	إيوان الناصر محمد بن قلاوون (كما كان عام ١٧٩٨ م)
٣١	منظر القلعة من الجنوب الشرقى — مسجد الناصر بن قلاوون
٤٠	القلعة (كما كانت عام ١٧٩٨ م) — باب الزميلة
٩٣	مئذنة مسجد الناصر بن قلاوون
١٠٤	مسجد السلطان حسن بن الناصر ومقبرته
١١٩	مقبرة الظاهر برقوق
١٤١	مقبرة برباى الاشرف
١٥٠	مئذنة مقبرة السلطان إينال
١٨٥	منظر القلعة من المقطم
١٩١	سطح كرسى مرصع بالفضة وجد في مسجد شعبان بن الناصر
	وعقود بدار الآثار العربية بالقاهرة
١٩٢	ظهر الكرسى الذى فى الصورة السابقة
١٩٣	كرسى من البرونز مرصع وموشى بالفضة وجد فى مسجد الناصر
	ابن قلاوون و يظهر أنه صنع فى زمنه وهو عقود بدار الآثار
	العربية بالقاهرة

٢٠٤